

الذخيرة السننية

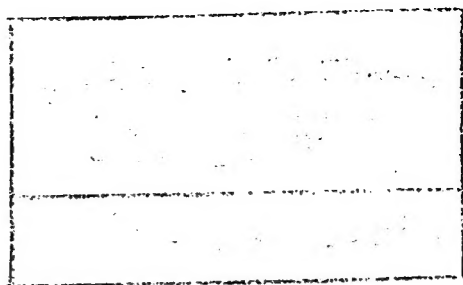
في تاريخ الدولة المملوكية

تأليف

علمي بن أبي زرع الفاسي

الذخيرة السننية
في تاريخ الدولة المنيّة

تأليف
عليّ ابن أبي زرع الفاسيّ



تَفْهِيمٌ

❧ اسمُ هذا الكتاب كما ورد في مُقدِّمته (الذخيرة السنية ،
في تاريخ الدولة المرينية العبد الحقيَّة) .

* لم يعرف الكتابُ رواجًا على أهميَّة ما فيه من أخبار ،
فلم يقع النقلُ عنه في قديم ولا حديث ، إلا إشارةً عابرةً في
كتاب (روضة النِّسرين، في دولةِ بنى مَرِين) تأليف إسماعيل
ابن الاحمر الذي سماه (الدرة السنية) (1)

❧ لا يُعرف على وجه التحقيق اسمُ مؤلِّف الكتاب ، ولكن
بمقارنة بسيطة بين عباراته ونصوصه يظهر بسهولة أنَّ مؤلِّفَه
ومؤلِّفُ الانيس المطرب بروض القرطاس ، في أخبار ملوك
المغرب وتاريخ مدينة فاس) واحد، وأول مَنْ كتب في الموضوع
الاستاذ الجليل السيد عبد الله كُنُون الذي نشر في مَجَلَّة تطوان
(2) بحثًا قارن فيه بين عبارات الكتَّابَيْن ورجح أن يكون مؤلفُ
الذخيرة السنية هو ابن أبي زرع صاحب القرطاس ، ثم نُشِر منذ
بضعة شهور بحث أآخر أوسع في مجلة دعوة الحق ذهب فيه
كاتِبُه مذهبَ الاستاذ كُنُون ، أما الاستاذ الجليل محمد بن أبي
بكر التطوانى فيرا أنَّ تشابُهَ عبارات الكتَّابَيْن واتفاقَهما

لا يدلان حتمًا على أن مؤلفيهما واحد، لان عادة مؤرخي ذلك العصر جرت بأن ينقل أحدهم كلام غيره دون أن ينسبه إليه، وعلى وجاهة هذا الرأي نميل إلى ما رجّحه الاستاذ كُتُون فننسب الذخيرة السّنية إلى ابن أبي زرع حتى تقوم الحجة على أنه من عمل غيره.

✽ نشر هذا الكتاب للمرة الأولى الباحثة الجزائرية الشهيرة الدكتور محمد بن أبي شنب بالجزائر سنة 1920 من غير تقديم ولا تعليق، ولم يُعَنّ الناشر بتحقيق الكتاب فجاء مليئًا بالأخطاء شكلا وموضوعًا.

✽ والآن وقد مرّ على نشر الكتاب للمرة الأولى أكثر من نصف قرن رأت دار المنصور للطباعة والوراقة أن تُعيد طبعه لتعميم الفائدة به وجعله في متناول أيدي الباحثين والمؤرخين منهم على الخصوص، وقد قامت دار المنصور بتحريره ومقارنة نصوصه بالنصوص المشابهة الواردة في كتب أخرى أُلفت في ذلك العصر، كما قامت بترتيب حوادثه ووقائعه ترتيبًا زمنيًا مطابقًا للسلسل التاريخي الذي لم يُراعِه المؤلفُ دائمًا، وحذفت في أكثر الحالات الكُنّا التي كان إحلالها محلّ الأسماء موضوعة ذلك الوقت، فجعلت عبد العزيز بدل أبي فارس، وعبد الله بدل أبي محمد، ويحيا بدل أبي زكرياء، ويعقوب بدل أبي يوسف وهلمّ جرا، لأنها هي أسماء الناس الحقيقية التي لا يبقا معها انبهام ولا التباس، أما الشروح والتعليق فضُرب عنها صفحًا، ولم يُشرّ في أسفل الصفحات إلا إلى ما اعتقِد أن الإشارة إليه لازمة وهو قليل جدًا.

اعتمدت دار المنصور فى نشر الذخيرة السنية على نسختين منه :

- النسخة الأولى هي المطبوعة التى نشرها الدكتور محمد بن أبى شنب .

- والنسخة الثانية خطية كانت فى خزانة العلامة المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب ثم انتقلت بعد موته إلى المكتبة القومية التونسية وحفظت فيها تحت عدد 18.280 (رقم جديد) .

وهذه النسخة مغربية الخط ، مبتورة الآخر ، كتابتها رديئة ، وبأكثر ورقاتها آثار رطوبة تجعل قراءة النص صعبة أحياناً ، عند أوراقها 68 من حجم 27 - 20 فى كل صفحة 25 سطراً .

وقد كتب على ظهر الورقة الأولى من هذه النسخة ما يلى :

الحمد لله صلا الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

أودع كاتب الحروف الفقير إلى رحمة مولاه الكبير محمد بن سالم بن حسن بن محمد الورقلى المسراتى الطرابلسى شهادة أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وأن جميع ما جاء به حق وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور، اللهم اغفر لى .

وبعد فهذه النسخة قد استعرتها من بلد الجزائر من الأجل سيدى حمدان وكيل الحرج ببلد الجزائر فسن وقف وهو قادم لبلد الجزائر فليأخذها وليمكنها له بيده ويطلب

لى منه السماحَ فيما تعدّ يتّ عليه فيها لأجل لم نبلّغها له
وسافرتُ بها من غير مشورته والسلام .

§ وأخيراً تَلَفْتُ دار المنصور أنظارَ القراء إلى أنّها طبعت
هاذا الكتاب مثل باقى الكتب التى تنشرها على طريقتها التى
تعتقد أنّها أدنا إلى الصواب من الطريقة التى جرا عليها الناس
منذ قرون ، فهى تمُدُّ خطأ كلِّ ما هو ممدودٌ لفظاً ، كما أنّها
تكتب الألفَ اللّين ألفاً مطلقاً ، وتذكّر - فى أكثر الحالات -
كل ما ليس مؤنثاً حقيقياً ولا لفظياً . الشيء الذى يثيرُ ولا شكَّ
استغرابهم واستنكارهم لأنهم لم يألوه ، وهم يشعرون فى قرارة
أنفسهم أنه يُطلق الكتابة العربية من عِقالها ويُنقّيها من
رواسب الماضى .

الرباط - الاثنين } 5 ماي 1972
22 ربيع الثانى 1392

[illegible]

١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠
 ٢٠١
 ٢٠٢
 ٢٠٣
 ٢٠٤
 ٢٠٥
 ٢٠٦
 ٢٠٧
 ٢٠٨
 ٢٠٩
 ٢١٠
 ٢١١
 ٢١٢
 ٢١٣
 ٢١٤
 ٢١٥
 ٢١٦
 ٢١٧
 ٢١٨
 ٢١٩
 ٢٢٠
 ٢٢١
 ٢٢٢
 ٢٢٣
 ٢٢٤
 ٢٢٥
 ٢٢٦
 ٢٢٧
 ٢٢٨
 ٢٢٩
 ٢٣٠
 ٢٣١
 ٢٣٢
 ٢٣٣
 ٢٣٤
 ٢٣٥
 ٢٣٦
 ٢٣٧
 ٢٣٨
 ٢٣٩
 ٢٤٠
 ٢٤١
 ٢٤٢
 ٢٤٣
 ٢٤٤
 ٢٤٥
 ٢٤٦
 ٢٤٧
 ٢٤٨
 ٢٤٩
 ٢٥٠
 ٢٥١
 ٢٥٢
 ٢٥٣
 ٢٥٤
 ٢٥٥
 ٢٥٦
 ٢٥٧
 ٢٥٨
 ٢٥٩
 ٢٦٠
 ٢٦١
 ٢٦٢
 ٢٦٣
 ٢٦٤
 ٢٦٥
 ٢٦٦
 ٢٦٧
 ٢٦٨
 ٢٦٩
 ٢٧٠
 ٢٧١
 ٢٧٢
 ٢٧٣
 ٢٧٤
 ٢٧٥
 ٢٧٦
 ٢٧٧
 ٢٧٨
 ٢٧٩
 ٢٨٠
 ٢٨١
 ٢٨٢
 ٢٨٣
 ٢٨٤
 ٢٨٥
 ٢٨٦
 ٢٨٧
 ٢٨٨
 ٢٨٩
 ٢٩٠
 ٢٩١
 ٢٩٢
 ٢٩٣
 ٢٩٤
 ٢٩٥
 ٢٩٦
 ٢٩٧
 ٢٩٨
 ٢٩٩
 ٣٠٠
 ٣٠١
 ٣٠٢
 ٣٠٣
 ٣٠٤
 ٣٠٥
 ٣٠٦
 ٣٠٧
 ٣٠٨
 ٣٠٩
 ٣١٠
 ٣١١
 ٣١٢
 ٣١٣
 ٣١٤
 ٣١٥
 ٣١٦
 ٣١٧
 ٣١٨
 ٣١٩
 ٣٢٠
 ٣٢١
 ٣٢٢
 ٣٢٣
 ٣٢٤
 ٣٢٥
 ٣٢٦
 ٣٢٧
 ٣٢٨
 ٣٢٩
 ٣٣٠
 ٣٣١
 ٣٣٢
 ٣٣٣
 ٣٣٤
 ٣٣٥
 ٣٣٦
 ٣٣٧
 ٣٣٨
 ٣٣٩
 ٣٤٠
 ٣٤١
 ٣٤٢
 ٣٤٣
 ٣٤٤
 ٣٤٥
 ٣٤٦
 ٣٤٧
 ٣٤٨
 ٣٤٩
 ٣٥٠
 ٣٥١
 ٣٥٢
 ٣٥٣
 ٣٥٤
 ٣٥٥
 ٣٥٦
 ٣٥٧
 ٣٥٨
 ٣٥٩
 ٣٦٠
 ٣٦١
 ٣٦٢
 ٣٦٣
 ٣٦٤
 ٣٦٥
 ٣٦٦
 ٣٦٧
 ٣٦٨
 ٣٦٩
 ٣٧٠
 ٣٧١
 ٣٧٢
 ٣٧٣
 ٣٧٤
 ٣٧٥
 ٣٧٦
 ٣٧٧
 ٣٧٨
 ٣٧٩
 ٣٨٠
 ٣٨١
 ٣٨٢
 ٣٨٣
 ٣٨٤
 ٣٨٥
 ٣٨٦
 ٣٨٧
 ٣٨٨
 ٣٨٩
 ٣٩٠
 ٣٩١
 ٣٩٢
 ٣٩٣
 ٣٩٤
 ٣٩٥
 ٣٩٦
 ٣٩٧
 ٣٩٨
 ٣٩٩
 ٤٠٠
 ٤٠١
 ٤٠٢
 ٤٠٣
 ٤٠٤
 ٤٠٥
 ٤٠٦
 ٤٠٧
 ٤٠٨
 ٤٠٩
 ٤١٠
 ٤١١
 ٤١٢
 ٤١٣
 ٤١٤
 ٤١٥
 ٤١٦
 ٤١٧
 ٤١٨
 ٤١٩
 ٤٢٠
 ٤٢١
 ٤٢٢
 ٤٢٣
 ٤٢٤
 ٤٢٥
 ٤٢٦
 ٤٢٧
 ٤٢٨
 ٤٢٩
 ٤٣٠
 ٤٣١
 ٤٣٢
 ٤٣٣
 ٤٣٤
 ٤٣٥
 ٤٣٦
 ٤٣٧
 ٤٣٨
 ٤٣٩
 ٤٤٠
 ٤٤١
 ٤٤٢
 ٤٤٣
 ٤٤٤
 ٤٤٥
 ٤٤٦
 ٤٤٧
 ٤٤٨
 ٤٤٩
 ٤٥٠
 ٤٥١
 ٤٥٢
 ٤٥٣
 ٤٥٤
 ٤٥٥
 ٤٥٦
 ٤٥٧
 ٤٥٨
 ٤٥٩
 ٤٦٠
 ٤٦١
 ٤٦٢
 ٤٦٣
 ٤٦٤
 ٤٦٥
 ٤٦٦
 ٤٦٧
 ٤٦٨
 ٤٦٩
 ٤٧٠
 ٤٧١
 ٤٧٢
 ٤٧٣
 ٤٧٤
 ٤٧٥
 ٤٧٦
 ٤٧٧
 ٤٧٨
 ٤٧٩
 ٤٨٠
 ٤٨١
 ٤٨٢
 ٤٨٣
 ٤٨٤
 ٤٨٥
 ٤٨٦
 ٤٨٧
 ٤٨٨
 ٤٨٩
 ٤٩٠
 ٤٩١
 ٤٩٢
 ٤٩٣
 ٤٩٤
 ٤٩٥
 ٤٩٦
 ٤٩٧
 ٤٩٨
 ٤٩٩
 ٥٠٠
 ٥٠١
 ٥٠٢
 ٥٠٣
 ٥٠٤
 ٥٠٥
 ٥٠٦
 ٥٠٧
 ٥٠٨
 ٥٠٩
 ٥١٠
 ٥١١
 ٥١٢
 ٥١٣
 ٥١٤
 ٥١٥
 ٥١٦
 ٥١٧
 ٥١٨
 ٥١٩
 ٥٢٠
 ٥٢١

[illegible]

وَأَمَّا الْفُلُ فَأَنزَلْنَاهُ ذِي الْقُرْبَىٰ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمَ يَافَثَ ۚ

卷之四

وَأَمَّا الْفُلُ فَأَنزَلْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ وَأَتَيْنَاهُم بِطَارِيقٍ فَالْمُنَافِقِينَ

卷之四
 四
 五
 六
 七
 八
 九
 十
 十一
 十二
 十三
 十四
 十五
 十六
 十七
 十八
 十九
 二十
 二十一
 二十二
 二十三
 二十四
 二十五
 二十六
 二十七
 二十八
 二十九
 三十
 三十一
 三十二
 三十三
 三十四
 三十五
 三十六
 三十七
 三十八
 三十九
 四十
 四十一
 四十二
 四十三
 四十四
 四十五
 四十六
 四十七
 四十八
 四十九
 五十
 五十一
 五十二
 五十三
 五十四
 五十五
 五十六
 五十七
 五十八
 五十九
 六十
 六十一
 六十二
 六十三
 六十四
 六十五
 六十六
 六十七
 六十八
 六十九
 七十
 七十一
 七十二
 七十三
 七十四
 七十五
 七十六
 七十七
 七十八
 七十九
 八十
 八十一
 八十二
 八十三
 八十四
 八十五
 八十六
 八十七
 八十八
 八十九
 九十
 九十一
 九十二
 九十三
 九十四
 九十五
 九十六
 九十七
 九十八
 九十九
 一百

11
 12
 13
 14
 15
 16
 17
 18
 19
 20
 21
 22
 23
 24
 25
 26
 27
 28
 29
 30
 31
 32
 33
 34
 35
 36
 37
 38
 39
 40
 41
 42
 43
 44
 45
 46
 47
 48
 49
 50
 51
 52
 53
 54
 55
 56
 57
 58
 59
 60
 61
 62
 63
 64
 65
 66
 67
 68
 69
 70
 71
 72
 73
 74
 75
 76
 77
 78
 79
 80
 81
 82
 83
 84
 85
 86
 87
 88
 89
 90
 91
 92
 93
 94
 95
 96
 97
 98
 99
 100
 101
 102
 103
 104
 105
 106
 107
 108
 109
 110
 111
 112
 113
 114
 115
 116
 117
 118
 119
 120
 121
 122
 123
 124
 125
 126
 127
 128
 129
 130
 131
 132
 133
 134
 135
 136
 137
 138
 139
 140
 141
 142
 143
 144
 145
 146
 147
 148
 149
 150
 151
 152
 153
 154
 155
 156
 157
 158
 159
 160
 161
 162
 163
 164
 165
 166
 167
 168
 169
 170
 171
 172
 173
 174
 175
 176
 177
 178
 179
 180
 181
 182
 183
 184
 185
 186
 187
 188
 189
 190
 191
 192
 193
 194
 195
 196
 197
 198
 199
 200
 201
 202
 203
 204
 205
 206
 207
 208
 209
 210
 211
 212
 213
 214
 215
 216
 217
 218
 219
 220
 221
 222
 223
 224
 225
 226
 227
 228
 229
 230
 231
 232
 233
 234
 235
 236
 237
 238
 239
 240
 241
 242
 243
 244
 245
 246
 247
 248
 249
 250
 251
 252
 253
 254
 255
 256
 257
 258
 259
 260
 261
 262
 263
 264
 265
 266
 267
 268
 269
 270
 271
 272
 273
 274
 275
 276
 277
 278
 279
 280
 281
 282
 283
 284
 285
 286
 287
 288
 289
 290
 291
 292
 293
 294
 295
 296
 297
 298
 299
 300
 301
 302
 303
 304
 305
 306
 307
 308
 309
 310
 311
 312
 313
 314
 315
 316
 317
 318
 319
 320
 321
 322
 323
 324
 325
 326
 327
 328
 329
 330
 331
 332
 333
 334
 335
 336
 337
 338
 339
 340
 341
 342
 343
 344
 345
 346
 347
 348
 349
 350
 351
 352
 353
 354
 355
 356
 357
 358
 359
 360
 361
 362
 363
 364
 365
 366
 367
 368
 369
 370
 371
 372
 373
 374
 375
 376
 377
 378
 379
 380
 381
 382
 383
 384
 385
 386
 387
 388
 389
 390
 391
 392
 393
 394
 395
 396
 397
 398
 399
 400
 401
 402
 403
 404
 405
 406
 407
 408
 409
 410
 411
 412
 413
 414
 415
 416
 417
 418
 419
 420
 421
 422
 423
 424
 425
 426
 427
 428
 429
 430
 431
 432
 433
 434
 435
 436
 437
 438
 439
 440
 441
 442
 443
 444
 445
 446
 447
 448
 449
 450
 451
 452
 453
 454
 455
 456
 457
 458
 459
 460
 461
 462
 463
 464
 465
 466
 467
 468
 469
 470
 471
 472
 473
 474
 475
 476
 477
 478
 479
 480
 481
 482
 483
 484
 485
 486
 487
 488
 489
 490
 491
 492
 493
 494
 495
 496
 497
 498
 499
 500
 501
 502
 503
 504
 505
 506
 507
 508
 509
 510
 511
 512
 513
 514
 515
 516
 517
 518
 519
 520
 521
 522
 523
 524
 525
 526
 527
 528
 529
 530
 531
 532
 533

THE
JOURNAL
OF
THE
ROYAL
ANTHROPOLOGICAL
INSTITUTE

of the same kind as the one in the first column, but with the addition of the word "and" before the word "and" in the second column.

الدرة السنية في تاريخ الدولة المرينية



تأليف
علي بن عبد الله بن أبي زرع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلا الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

الحمد لله رب العالمين ، والدعاء للدولة السعيدة العثمانية (I) بالنصر والتأييد ، والظهور والبقاء ، والتأييد ، أعلا الله تعالا أمرها ، وخلد على مرّ الأيام ملكها وفخرها ، ولا زال علم كلمتها بالعرب منصوراً ، وعلى كامل العدل والاحسان منشوراً ، بعمه وطوله .

أما بعد أظال الله بقاء مولانا الملك الرفيع ذكره وقدره ، البديع شرفه وفخره ، الطيب أصله وفرعه ، الزكي شخصه وصنعه ، المنيف حسبه ونجاره ، الكريمة مآثره وآثاره ، الذي لا توازيه الجبال رجاحة ، ولا تجاريه الرياح سباحة ، ولا يضاهيه الصباح طلاقة وصباحة ، ولا تراومه الملوك بسالة وسياسة ، ولا تجاريه جلالة ورياسة ، ولا تساميه علواً ونفاسة ، ولا تقل الأرض أسعد منه جداً ، ولا أثبت زنداً ، ولا أحضر فهماً ، ولا أمضا عزماً ، ولا أعدل حكماً ، ولا أرجح حلماً ، ولا أغزر كرمًا ، ولا خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ، القائم بأمر الدنيا والدين ، والقامع للطغاة المفسدين ، الذي أشرق بجبين خلافته الزمان ، وسعد بها العباد وأضاء الأوان ، وتمهدت ببركة دولته الأقاليم وتأمنت البلدان ، وشهدت بعلو شأنه وجلال سلطانه الآثار

(I) يريد بالدولة السعيدة العثمانية دولة السلطان عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المرينى المشهور بكنيته (أبى سعيد) وهو الذى ألف الكتاب برسمه .

والأعيان ، الامام العادل الرشيد ، والملك المنصور السعيد ، أمير المسلمين أبو سعيد ، ابن مولانا الملك الامام ، ناصر دين الاسلام ، ومبيد عبدة الأصنام ، المؤيد المظفر المنصور ، الصالح العابد المجاهد المبرور ، الهمام القائم بالحق ، أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، أمتع الله الدين والدنيا باتصال أيامهم ، ودام ملكهم وسلطانهم ، وأعان الأمة على القيام بطاعتهم ، وتعزيزهم وإعظامهم ، وفتح لهم فى البلاد شرقاً وغرباً ، وأوطأ لهم رقاب الكفار والأعداء مسلماً وحرباً ، وفتح لهم وعلى أيديهم الفتح المبين ، وجعل الخلافة كلمة باقية فى عقبهم الى يوم الدين .

لا زال ملكهم فى رفعة وعلا وسعدهم بهذا الأيام موصول
يقتنوا العدا ويقيموا الدين من أودر وسيف نصرهم الله مسلسل

وانى لما رأيت الخلافة العبد الحقية العثمانية باهرة ، وغرر مآثرها الكريمة على أوجه محاسنها سافرة ، وأخبار مكارمها ومآثرها تنظم نظم الجنان ، وسور فضائلها تتلا بكل لسان ، وشموس عوارفها وأنوار محامدها تشرق بكل أفق ومكان ، أردت خدمة جلالها ، والتقرب إلى كمالها ، والتفتي بظلالها ، والورود من عذب زلالها ، بتأليف كتاب أؤرخ فيه أيام الدولة السعيدة المرينية العبد الحقية ، أخلد فيه محاسنها وأسطر مآثرها ، وأذكر غزواتهم وفتوحاتهم ومناقبهم الجميلة وآثارهم ، وما رسموه من المراسم وبنوه من المدائن وفتحوه من البلاد ، وما ملكوه من الأقاليم وما وقع من الحوادث فى الوجود فى أيامهم ، معتمداً فى جميع ما أذكره من ذلك على ما شاهدته وقيدته ، وما رويته عن أثق به من الأشياخ والنقات من أهل العلم بالتاريخ وأيام الناس والمعرفة بالأنساب ، ونسجته على عشرة أبواب :

الباب الأول فى ذكر بنى مرين وقبائلهم ونسبهم المصرح ، ونجازهم العالى الصحيح ، ودخولهم المغرب وظهور ملكهم السنى المعجب .

الباب الثاني فى ذكر الأمير الصالح أبى الأملأك أبى محمد عبد الحق بن محيو وسير أولاده وفضله .

الباب الثالث فى ذكر الأمير أبى سعيد عثمان بن عبد الحق .

الباب الرابع فى ذكر الأمير أبى معرف محمد بن عبد الحق .

الباب الخامس فى ذكر دولة الأمير الأجل أبى يحيى ابن عبد الحق .

الباب السادس فى خلافة أمير المسلمين ، وناصر الدين ، الملك القائم بالحق ، يعقوب ابن عبد الحق .

الباب السابع فى خلافة أمير المسلمين ، يوسف ابن أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق .

الباب الثامن فى خلافة أمير المسلمين ، عامر ابن الأمير عبد الله ابن أمير المسلمين يوسف ابن أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق .

الباب التاسع فى خلافة أمير المسلمين سليمان ابن الأمير عبد الله المذكور ابن أمير المسلمين يوسف .

الباب العاشر فى خلافة ملك الزمان ، وسراج الأوان ، الامام السعيد ، الخليفة العادل الرشيد ، أمير المسلمين أبى سعيد عثمان ابن مولانا أمير المسلمين المنصور القائم بالحق ، يعقوب بن عبد الحق ، أطال الله أيامه ، وخذ ملكه ونصر أعلامه ، وأمضا فى الأعادى سيوفه وأقلامه ، بمنه وطوله .

وسميته (الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية العبد الحقية) .

والله سبحانه يعين على ما أردته ، وينجح القصد فيما أملتته ورجوته ، ويعصمنا من الخطأ والزلل ، فى القول والعمل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الباب الأول

قال المؤلف عفا الله عنه :

أما بنو مرين فبهم أقام الله تعالى فى المغرب الدين ، وبسيوفهم قمع
بجزيرة الأندلس المشركين ، وأبقا بها دماء المسلمين .

همُ نصرُوا دينَ الإِلهِ وأظهروا على الدين والدنيا من الحق رونقا
بملكهم قد أحمَدُ اللهُ للعبدِ ومن عدلهم ضاء الزمانِ وأشرقوا

فهم الآن سيوفُ الاسلام ، وحماةُ دينِ النبيِّ محمد عليه السلام ،
وهم أعلا قبائل زناطة حسبا ، وأشرفها نسباً ، وأعزها كرمًا ، وأحسنها شيمًا ،
وازكاها ذممًا ، وأرجحها أحلامًا ، وأنفذها رماحًا ، وأمضاها حسامًا ، وأشدّها
فى الحروب بأسًا ، وأكثرها إقدامًا ، وأقواها دينًا ، وأصحها يقينًا ، وأوثقها
عقدًا ، وأوفاهما عهدًا ، وأوفرها عددًا ، وأطولها فى الشدائد يدًا ، وأشرفها
فريقًا ، وأقومها طريقًا ، لهم شرفُ التجار ، وحفظُ الجوار ، وحمايةُ الذمار ،
ووقود النار ، وإكرام الضيف ، والضرب بالسيف ، والبعد عن الغدر والعار
والخيف ، وأنشد يقول :

لا يسلمون إلى النوائب جارهم يوماً إذا أضحا الجوار يُضيئُ
لهم الرياسة والشجاعة والندا والله يعطى ما يشاء ويمنع

شيمهم وحلاهم التى تحلوا بها واتصفوا بصفاتِها : الأدب والدين ،
وإكرام العلماء وتوقير الصالحين ، تزينوا بالشجاعة والكرم والتواضع ، وتحلوا
بالصدق والوفاء وترك الكذب والتنازع ، لم يزلوا على هذا السنن القويم ،
والمنهج المستقيم ، يعرفون به فى الحديث والقديم ، والله درُّ القاتل فى مدح
حسنهم الصميم :

مرين سادة غر كسرام تحلوا بالشجاعة والسماح
هم القوم الأعزة منذ كانوا ذوو الافضال والحسب الصراح

أقاموا المجد في سمك علي^١ ومدوا العز في أرض فيساح
بأسياف وأرماح وجود وراخات وساحات فساح
فأوا كل عاف في ذراعهم إلى بيض الله خضر البطيحاء
ومن كانت مرين له ظهيرا فكيف يكون مهضوم الجناح ؟
وقد قام العلا عنهم خطيبا ونادا الجود حي^٢ على الفلاح
فما للفضل فيهم من زوال وما للمجد عنهم من نبز وإراج

• إيقاهم الله تعالا متصلة أيامهم ، منصورة أعلامهم ، نافذة أحكامهم ،
ماضية في الأعادي سيوفهم وأقلامهم .

الخبر عن نسبهم الصريح ، ونجارهم العلي^٣ الصريح

قال المؤرخ لأيامهم عفا الله عنه :

ذكر الفقيه الكاتب البارع أبو علي الملياني رحمه الله في نسبهم
ما نذكره إن شاء الله ونقلته من تقييد بخطه :

إعلم وفقنا الله وإياك لطاعته أن بنى مرين فخذ^٤ من زناثة^٥ وهم
ولد مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن وجديج بن فائن بن يدر بن بجفت^٦ بن
يصليتن بن عبد الله بن ورتيب بن المعز بن إبراهيم بن شجيج بن واسين بن
يصليتن بن مسرى بن زاكيا بن وسيد بن زانات بن جانا بن يحيى بن تمزيت
بن ضريس ، وهو جالوت ملك البربر ، ابن رجيج بن مادغيس الأبت^٧ ، بن بر
بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، فهم عرب الأصل ،
يجيئون من ولد نزار بن معد ، وهو أصح ما ذكر في نسبهم والله أعلم
وبه قال أكثر أهل التاريخ والمعرفة بالنسب العرب والبربر ، وفي ذلك
يقول الفقيه الأديب مالك بن المرحل يمدح أمير المسلمين يوسف بن إميز
المسلمين يعقوب بن عبد الحق :

أنتم لأبناء عبد الحق كلهم^٨ فخر وهم للورا فيخو^٩ إذا افتخروا
فحسبكم شرفا أن كان جدكم بر بن قيس وقيس جد^{١٠} مضت^{١١}

قال إبراهيم الرازى : قبائل زناتة كلها من ولد بر بن قيس عيلان ، وقال ابن حنّون فى تاريخه لمدينة فاس وظهورهم عليها قال : بنو مريّن فخذ من زناتة ، وهم ولد مريّن بن مجرز بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدر بن يثفت بن يصليتن بن عبد الله بن ورتيب بن المعز بن مسطيب بن جانا بن يحيى بن زانات بن برنى بن صرفى بن ربك بن مادغيس بن قيس عيلان بن مضر بن نزار ، ومن زانات بن يحيى بن جانا تفرقت قبائل زناتة كلها ، وهم أمم كثيرة وقبائل جمّة ، منهم مغراوة ، وبنو يفرن إخوانهم ، وزواغة ، ووجديجة ، وبنو فاتن ، ومغيلة ، ومطغرة ، ومدبونة ، وكشاشة ، وملزوزة ومطباطة ، وللهاصة ، ولواتة ، ومرنيسة ، وبنو دمر ، ونفوسة ، وبنو يطوفت ، وبنو يخفش ، وبطوية ، وكزنانية ، وبنو ورتطير ، وبنو يزونت ، وملكيشة ، وعشعاشة ، وسدريكة ، ونفزة ، وجراوة ، ولماية ، وبنو مسارت ، وسدراتة ، وبنو واسين ، وزحيلة ، وسوماتة ، وورسيقة ، وبنو تاجرة ، وبنو مريّن ، وبنو عبد الواد وإخوانهم بنو تجين ، فهؤلاء قبائل زناتة ، وكلهم عرب الأصل من ولد بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار ، والسبب فى تغير لغتهم عن لغة أجدادهم العربية إلى اللغة البربرية ما ذكره علماء التاريخ وأهل المعرفة بالأنساب وأيام الناس فانهم اتفقوا على أن مضر بن نزار بن معد كان له ولدان ، إلياس وعيلان ، وأمهما الرباب بنت حيدة ، بن عَمَر بن معد بن عدنان ، وتكنى خندف ، فأما إلياس فهو جد النبي صلا الله عليه وسلم ، ومن نسله جميع قبائل قريش ، وأما عيلان بن مضر فولد ولدين قيس ودهمان ، ومنهما تفرقت قبائل قيس بأسرها .

فأما دهمان فولده قليل ، وهم أهل بيت فى قيس يقال لهم بنو أمانة يعرفون بأهم ..

وأما قيس فولد أربعة رجال وجارية ، وأهم مزنة بنت اسد بن ربعة بن نزار .

وأما بر وأخته تماضر فهما شقيقان ، أبوهما قيس بن عيلان ، وأمهما يريخ بنت مجدول بن عمار بن مصفر بن بربر بن قبط بن مصرايم بن حام

البربرية المجدولية . وكانت القبائل البربرية إذ ذاك تسكن أرض فلسطين وما والاها من بلاد الشام وبلاد مصر ويجاورون العرب في المساكن والمسارح والمراعى ، ويشاركونهم في المياه والمشارع والمساعي ، ويظهرون بعضهم بعضاً ، ويتعاملون في أسواقهم ومواعيدهم بالانصاف والوفاء والرضا ، وكانت البهاء بنت دهمان بن عيلان بن مضر من أجمل نساء أهل زمانها وأكملهن ظرفاً وحسباً وأدباً ، فكثر خطاؤها من كل قبيلة من العرب ، فقال بنو عمها قيس وهم سعد وعمر وحفصة وبر لا تتزوج ابنة عمنا إلا أحداً ، ولا تخرج منا إلى غيرنا ، فتخيرها فيمن شاءت منا ، فاخترت براً وكان أصغرهم سنّاً وأحسنهم وجهاً وأكملهم شباباً ، فتزوجته لحسن صورته ، وفضلته على إخوته ، فحسدوه عليها ، وهما بقتله من أجلها ، وكانت أمه يريغ بنت مجدول من دهاة النساء ، فخافت على ولدها من إخوته ، فبعثت إلى البهاء بنت دهمان ، فأعلمتها الخبر وتواطأت معها على الخروج هي وابنها إلى بلاد إخوتها البربر حيث تأمن على ولدها من إخوته ، ثم بعثت إلى إخوتها وقومها من البربر فاتوها سراً فسارت معهم هي وولدها بر وكنتها البهاء بنت دهمان فلحقوا ببلاد البربر ، وهي فلسطين من أرض الشام ، فنزل بر بين أخواله من البربر في أحسن جوار ، وأعز دار ، فاعتز بأخواله وقوي بهم عضده وامتدت أطنا به ، فأعرس هنالك بابنة عمه البهاء ، فولدت له ولدين مادغيس وعلوان ابني بر بن قيس عيلان ، فأما علوان فمات ولم يعقب قاله جميع أهل النسب ، وأما مادغيس بن بر فكان يلقب بالابتر وهو أبو البتر من البربر ، وإليه يرفعون أنسابهم ، ومن ولده جميع قبائل زناتة ، وفي ذلك يقول بعض أدباء زناتة الذين سكنوا الأندلس :

| | |
|-------------------------|---------------------------|
| أيها السائل عن أحسابنا | قيس عيلان بنو العز الأول |
| وبنو بر بن قيس من به | تضرب الأمثال في كل أهل |
| إن نسبنا فبنو بر النـدا | طارد الأزمة نهار الإبل |
| من تردا سالف المجد علا | وبروداً فاكتسا منها حليل |
| إن قيساً يعتزى بر له | ولبر يعتزى كل بطـل |
| حسبك البربر قومي إنهم | ملكوا الأرض بأطراف الأسـل |
| وببيض تضرب إلهام بها | هام من كان عن الحق نكل |

ولما فتح حسان بن النعمان إفريقية والمغرب كان أكثر جيوشه قبائل قيس ، فأتا جبل أوراس من بلاد إفريقية فوجد قبائل زناتة قد اجتمعت به لقتاله ، فدعاهم إلى الاسلام ، وقال لهم يامعشر زناتة أنتم إخواننا في النسب ، فلم تخالفونا وتعينون علينا أعداءنا ؟ أليس أبوكم بر بن قيس بن عيلان ؟ قالوا بلى ! ولاكنكم معشر العرب تنكرون لنا ذلك وتدفعوننا عنه ، فإذا أقررتم بالحق ورجعتم إليه فاشهدوا لنا به على أنفسكم ، فاجتمعت وجوه قيس وأشرافها وأشراف زناتة وأقيالها وأشهدوا على أنفسهم من حضرهم من وجوه العرب ورؤساء أهل إفريقية من البربر والروم وكتبوا بينهم كتاباً فيه : « باسم الله الرحمان الرحيم ، هاذا ما شيد به أنجاد قيس عيلان لاخوانهم زناتة بنى بر بن قيس عيلان أنا أقررنا لكم وشهدنا على أنفسنا وعلى آبائنا وأجدادنا أنكم معشر زناتة من ولد بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، فأنتم والحمد لله إخواننا نسباً وأصلاً ترثوننا ونرثكم ، نجتمع في جد واحد ، وهو قيس عيلان ، فلکم ما لنا ، وعليکم ما علينا ، لم نزل نعرف ذلك ونتوارث علمه وصحته عن آبائنا ومشايخنا وأهل العلم بالتاريخ والمعرفة بالانساب منا ، يأخذه كابر عن كابر ، وعادل عن عادل ، فليعرفوا ذلك ويلزموا أنفسهم وأموالهم معرفته امتثالاً لقوله تعالا : (واتقوا الله الذى تسألون به والأرحام) واقتدوا بقوله (ص) (واتقوا الله وصلوا الأرحام) ، وقد قال (ص) ، حين خطب في حجة الوداع : أيها الناس ، اتقوا الله وصلوا أرحامكم ، واحفظوا أنسابكم ، والله على ما نقول وكيل .

قال الراوى :

فلما وقع هذا الاشهاد أسلمت قبائل زناتة كلها في ذلك اليوم ، وذلك سنة ثمانين من الهجرة بعد أن كانوا أهل أهواء مختلفة ، وأديان متفرقة ، وفي ذلك يقول الطرماح بن ساعدة القيسى هذه الأبيات الخمسة :

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| يا آل بر بن قيس مرحباً بكم | قيس أبى وأبوكم حيث ننتسب |
| ما قلت إلا الذى قد كنت أعلمه | وكل شيء إلى وقت له سبب |
| الله يعلم أنى ما كذبتكم | والقول أقبحه البهتان والكذب |
| بر بن قيس وعيلان له شرف | عال إليه انتها الافضال والحسب |

نفسى فداء بنى بر وإن غضبت يوماً فدام لها الارغام والغضب .

وقال بعض العرب الذين نزلوا الأندلس وأقاموا قاطنين بها إلى أيام
الفتنة البربرية الواقعة بالأندلس بعد الأربعمئة الماضية من الهجرة يستألف
قبائل زناتة من البربر ، ويذكر قرب نسبهم من العرب واتصال رحمهم
بهم (طويل) :

| | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| ألا أيها الساعى لفرقة بيننا | ألا قف هداك الله سبل الاطاييب |
| فأقسم أنا والبرابر إخوة | نماتا وهم جدٌ كريم المذاهب |
| أبونا أبوهم قيس عيلان فى الذرا | لهم حرمة تشفى غليل المحارب |
| فنحن وهم ركن منيع وإخوة | على رغم أعداء لثام المناقب |

وفى ذلك يقول سابق المطماطى فى حين قتال البربر مع الروم
بافريقية أيام سليمان بن عبد الملك :

| | |
|------------------------------|-----------------------------|
| أيامعشر الروم ارحلوا لبلادكم | وخلوا لنا عنها بطي المراحل |
| فقد قصدتكم بربرٌ بسيفها | وأحلافها أهل الرماح الذوايل |
| قبائل بر ابن قيس وخندف | وذى يمن فى عزها المتطايل |

وأبنا خندف لأنهم إخوة قيس، وخندف اسم امرأة نُسب بنوها إليها ،
وهما إلياس وعيلان ابنا مضر بن نزار ، وذكر اليمن لأن قبائل من البربر
ينتمون الى العرب اليمنية ، منهم صنهاجة ينتمون الى حمير ، وكذلك هواره
ينتمون الى عاملة ، وكتامة ينتمون إلى الجيهم .

وتوفى بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار ، وترك ولده مادغيس
الأبتر بن بر بن قيس فيهم ، فنشأ بين أظهرهم ولقب بالأبتر لأنه لم يكن له
إلا هو أبو البتر من البربر ، فولد مادغيس بن بر زحيج بن مادغيس بن بر ،
ورلد زحيج بن مادغيس أربعة رجال ، أولهم لوا ، وضريس ، ونفوس ، وأداس ،
بنو زحيج ، فنشأوا بين أحوال جدهم بر من البربر ينطقون بلغتهم ،
ويتزينون بزيمهم ، وينضافون إلى جملتهم ، فانتشرت ذرية بر بن قيس فى

البربر وكثروا حتى صاروا في أمم لا تعدُّ ولا تحصى ، إلا أن لسانهم باللغة البربرية ناطق ، وحالهم لحالهم مطابق وموافق ، وفي ذلك تقول تماضر بنت قيس ترثي أخاها وتبكيه ، وتذكر بعده عن وطنه وذويه ، في أشعار كثيرة ، من ذلك قولها :

لتبكي كل باكية أخاها كما أبكى علي بر بن قيس
تحمل عن عشيرته فأضحى ودون لقائه إنضاء عيس
وقالت أيضاً :

كأنى وبراً لم تمز ديارنا بنجد ولن نقسم نهاباً ومغتما
وشطت ببر داره عن بلاده وطوح بر نفسه حيث يمما
وأزرت ببر لكنة أعجمية وما كان بر في الحجاز بأعجما

ولقد أحسن في ذلك السياق صاحب أرجوزة نظم السلوك في ذكر الأنبياء والخلفاء والملوك أبو فارس عبد العزيز الملزوزي الزناتى (2) حيث يقول في فصل منها :

فجاورت زناة البرابرا فصيِّروا كلامهم كما ترا
ما بدل الدهر سوى أقوالهم ولم يبدل مقتضاه أحوالهم
بل فعلهم أرباً على فعل العرب في الحال والآثار ثم في الأدب
فانظر كلام العرب قد تبدلا وحالهم عن حاله تحولا
لا يعرفون اليوم ما الكلام ولا لهم نطق ولا إتهام
وان تمادت بهم الأحوال لم تبق في الدهر لهم أقوال

قال صاحب التاريخ عفا الله عنه :

ومن مريـن بن ورتاجـن بن ماخوخ ، تفرقت قبائل مريـن وعشائرها ، وإلى جده ماخوخ الزناتى انتهت رئاسة زناة في وقته ، لأنه كان في زمانه

(2) في الأصل الكتامي ، والصواب الزناتى ، لأن قبيلة ملزوزة من شعب زناة وليس من شعب كتامة .

أحد الشجعان الأبطال المضروب بهم المثل في الشجاعة والكرم وعلو الهمة ، وكان ينحر كل يوم جملين من إبله وعشرين رأساً من الضأن فيطعمها الضيفان ومن يحضره من الناس ، وكان قد اتخذ في حلته قباباً وخياماً مضروبة مفروشة بالقطف والوسائد قد اعتدها لنزول الضيفان والوراد وأبناء السنييل ، وكان يقعد مع أشياخ زناتة : مغراوة ، وبني يفرن ، وبني واسين ، ونفوسة ، وغيرهم يلعب بتداس بأقلام الفضة والذهب ، فإذا فرغ من لعبه وأراد القيام أنهبها جلساءه ، فولد ماخوخ المذكور ولده ورتاجن بن ماخوخ ، وولد ورتاجن بن ماخوخ مرين ، فولد ورتاجن بن مرين جميع شعوب قبائل بني ورتاجن ، وهم تسع عشيرة قبيلة ، أولهم بنو الخير ، وهم رؤساؤهم ، ثم بنو وارثن ، ثم بنو بيضاء ، ثم بنو خلف ، ثم بنو تيورت ، ثم بنو وازن ، ثم بنو زنتار ، ثم بنو فودود ، ثم بنو تاجاسنت ، ثم بنو وومزدر ، ثم بنو بنو وسان ، ثم بنو نعمان ، ثم بنو أبي الحسن ، ثم بنو سرطان ، ثم بنو مصرى ، ثم بنو مزال ، ثم مجدول ، ثم يطرنكا ، ثم منار .

وأما جرماط بن مرين فولد ولدين : فجوس ويابان ابني جرماط بن مرين ، فولد يابان جميع قبائل بني يابان ، وولد فجوس ثلاثة أولاد ، واطاس ، وتنالفت ، ووزير ، وولد وزير بن فجوس ولدين : ينجاسن ، ومحمداً ، وولد محمد سبعة رجال ، وولد ينجاسن جميع قبائل بني ينجاسن ، ومن ولد محمد بن وزير عسكر ، ثم حمامة ، وهما شقيقان ، وفي ذرية حمامة جعل الله الرياسة .

فأما عسكر بن محمد فولد له جميع قبائل بني عسكر ، ولهم كانت رياسة مرين في القديم ، وأول من رأس منهم المخصَّب بن عسكر بن محمد ، تملك على جميع بوادي زناتة وبلاد الزاب ، وضرب الطبول ونشر البنود وقاد الجنود وأذاق ملوك لمتونة وملوك تكلاتة الصنهاجيين شراً كثيراً ، ولم يزل يغير في بلادهم بتلمسان وبجاية والقلمة وغير ذلك من البلاد يهزمون وينهبون ويهزم الجيوش ويقتل الرجال ، وكانوا يصانعونه ويهادونه ليُسَالِمَهُمْ ، فكانوا معه على ذلك إلى أن انقضت دولتهم وغلبهم

الموحدون على ملكهم .، وفتح عبد المومن بن علي تلمسان ووهران ، فبعث بما وجد فيهما من الاموال والذخائر والسلاح إلى تينمل ، وكان الأمير المخضب بن عسكر إذ ذاك قد ملك أكثر بوادي تلمسان وقرى أمره بتلك البلاد ، إلا أنه كان عند حصار عبد المومن للمرابطين بتلمسان غائباً ببلاد الزاب يحارب بعض قبائل زناتة ، فكان أهل تلمسان والمرابطون في طول حصار عبد المومن إياهم يهددون الموحدين بقدم المخضب بن عسكر ، فأسرع السير في خمسمئة فارس من بنى مرين ، وأخذ على القبلة حتى خرج بوادي تلاغ ليقطع بالأموال والسلاح اثني بعث بها عبد المومن إلى تينمل ، فأئذ عبد المومن بمسيره ، فبعث إليه جيشاً من ثلاثمئة فارس من الموحدين والخشم مع الشيخ عبد الحق بن معاذ الزناتى العبد الوادى ، فالتقا به بفحص مسون وهو قد حاز المال ، فكان بينهما قتال عظيم ، قتل فيه الأمير المخضب وهزم أصحابه وأخذ الموحدون طبوله وبنوده ونهبوا أمواله ، وحمل رأسه إلى عبد المومن ، وذلك فى جمادى الآخرة من سنة أربعين وخمسمئة . وفى أيام المخضب دخلت قبائل من زناتة وغيرهم من البربر فى بنى مرين ، وانتسبوا فى قبائلهم ، فهم فيهم الى اليوم .

وأما بنو علي فليس هم من بنى مرين ، وإنما هم شرفاء حسنيون ، كان جدهم علي بن صالح الحسنى السرعينى رجلاً صالحاً ورعاً حافظاً لكتاب الله ، قدم من بلاد المصامدة برسم المشرق لاداء فريضة الحج وزيارة قبر النبي (ص) ، فقصا حجته وزار النبي (ص) وانصرف راجعاً الى المغرب ، فمر فى طريقه بقبلة زاب إفريقية ، فوجد فيها أحياء بنى مرين بازاء جبل ايكجان ، فنزل منها على محمد بن وزير ، فأقام عنده أياماً فاستحسنه محمد ابن وزير فرغب منه أن يقيم عنده يوصلى بهم الفريضة ويعلم صبيانهم القرآن ، فأجابه إلى ذلك ، فأقام عندهم ، وتزوج منهم ، وولد له بينهم ثلاثة عشر ولداً ذكراً ، فنشأ بنوه وحفدته وذريته بينهم ، وكانوا فى بنى مرين كأحد شعوبهم وقبائلهم ، أما أنتم متسويون إلى شرفهم ، وفى ذلك يقول بعض الأدباء رحمه الله تعالى .

لأن بنى علي من عسلي هم الشرفاء من نسل الامام
بجدهم حووا كل المعالي وحازوا الفخر أجمع فى نظام

وكان لبنى علي شرف وجمال وشجاعة وكرم ، فسادوا بذلك
وبشرفهم فظهروا ، وكذلك بنو وطاس ليس هم أيضاً من بنى مرين ، وإنما
هم من صنباجة من قبائل لمتونة من ولد وطاس بن المعز بن يوسف بن
تاشفين ملك المغرب بأسره ، والأندلس بأسرها وبلاد القبلة إلى السودان ،
وخطب له على أزيد من ألفي منبر ، وبنو وطاس مجميعون على ذلك ،
والقوم أعرف بأنسابهم ، وسبب دخولهم فى قبائل بنى مرين أنه لما انقضت
أيامهم وغلبهم الموحدون على ملكهم خرج جدهم وطاس بن المعز بن تاشفين
فاراً بنفسه من تلمسان أمام عبد المومن بن علي أمير الموحدين القادمين
عليهم ، فلحق ببلاد الزاب ولجأ إلى أحياء بنى مرين ، فاستجار بهم فأجاروه ،
فلم يزل مقيماً بين أظهرهم هو وبنوه وذريته من بعده فى أحسن جوار وأعز
دار إلى أن ظهر بنو مرين على الغرب وغلبوا الموحدين على ملكهم واستوطنوا
بلادهم فكانوا من جملة قبائلهم محسوبيين فى عدادهم وكان لهم فيهم رئاسة .

وأما سجم بن محمد بن وزير فولد جميع بنى سجم ، وولد وراغ
بن محمد جميع بنى وراغ ، وولد قرنت بن محمد جميع بنى قرنت ، وولد
شحيما بن محمد بنى شحيما ، وولد سنكيان جميع بنى سنكيان ، وهؤلاء
الخمس قبائل من أولاد محمد بن وزير يعرفون بتيربعين .

وأما حمامة بن محمد فولد ولدين : خديماً وأبا بكر ، وإلى أبى بكر
بن حمامة انتقلت الرئاسة بعد قتل ابن عمه المخضب ابن عسكر ، فلم يزل
أبو بكر بن حمامة أميراً على قبائل الجميع من بنى مرين إلى أن توفي رحمه الله ،
فترك ثلاثة أولاد : محيى ، ويحيا ، وشعيياً ، فولد محيو بن أبى بكر ثلاثة
رجال : سناف ، ويحياتن ، وعبد الحق ، فولد عبد الحق بن محيو عبد الله
وإدريس ، ورحو ، وعثمان ، ومحمداً ، وأبا بكر ، وأبا عياد ، ويعقوب ،
وأختهم ورتطيم .

فأما عبد الله وادريس ورجو فهم أشقاء ، أمتهم سوط' النساء من بنى علي ، وأما عثمان ومحمد فهما أيضاً شقيقان ، وأمهما النوار بنت أبي بكر بن حفص ، وأما أبو عبيد فأمه أم الفرج العبد الوادية من بنى والي ، وأما يعقوب بن عبد الحق فأمه أمّ اليمن بنت محلي البطوئي ، وكانت من خيرات النساء ، ذات فضل وعقل ودين ، صوامة قوامه ، حجّت بيت الله الحرام ، ورجعت إلى المغرب ثم عادت إلى الحجاز لتحجّ ثانية ، فتوفيت ببلاد مصر في قرية على النيل وهي قاصدة إلى مكة شرفها الله تعالى .

وفى عبد الحق وذريته جعل الله تعالى الملك والرياسة ، وهو أبو الأملاك من بنى مريّن ، وأصلهم الذي يرجعون إليه ويفتخرون به .

أصل" نما في المكرمات ففرعته سامي نداه بالمحامد مثمراً
هم آل عبد الحق حقاً إنهم ورثوا العلا والمجد أكبر أكبرا
أهل السيادة والرياسة والندا بسيفهم حلثوا الذرا منعوا الورا

فولد كل واحد من أولاد عبد الحق جماعة ، وجعل الله فيهم الكثرة ، وبارك فيهم ، وولد يعقوب بن عبد الحق أحد عشر ولداً ، وهم عبد الله ، وعبد الواحد ، ويوسف ، وعثمان ، ومحمد ، ومنديل ، وإبراهيم ، وعمر ، والعباس ، وأبو يحيى ، ويعيش ، وولي الخلافة منهم اثنان : يوسف ، وعثمان .

قال المؤرخ لآيامهم عفا الله عنه :

لما قُتِلَ المخضّب بن عسكر بن محمد بن وزير المريني انتقلت رياسة مريّن إلى ابن عمه أبي بكر بن حمامة بن محمد ، فلم يزل أبو بكر بن حمامة أميراً ورئيساً على قبائل مريّن إلى أن توفي رحمه الله سنةً إحدى وستين وخمسمئة ، فقام بأمر بنى مريّن بعده ولده محيو بن أبي بكر بن حمامة ، فلم يزل محيو أميراً مطاعاً على بنى مريّن مُحَبَّباً فيهم يقوم بأمرهم وينظر في أحكامهم إلى أن توفي رحمه الله شهيداً من جراحة أصابته في غزاة الأراك التي كانت ببلاد الأندلس في سنة إحدى وتسعين ، فانه كان شهداها مع أمير المومنين يعقوب المنصور ، متطوعاً مع جماعة ، وعقد له أمير المومنين في ذلك

اليوم على جميع قبيلة مرين وأبلا في ذلك اليوم بلاء حسناً ، وأصيب فيه بجراحات ، فرجع إلى بلاده من الغزوة ، فاشتدت عليه جراحاته فمات رحمه الله ، وذلك في شهر صفر سنة اثنتين وتسعين وخمسمئة ، فقام بعده بأمر بنى مرين ولده الأمير المبارك عبد الحق ، وكان الأمير عبد الحق قد نشأ على الخير والدين والصلاح والفضل ، وهو الذى أدخل بنى مرين إلى المغرب لما أراد الله تعالى من ظهور ملكهم فيه واستيلائهم عليه .

الخبر عن دخولهم المغرب وظهور ملكهم السنى المعجب

لما أراد الله تعالى إظهار الدولة السعيدة المرينية المباركة العبد الحقية ، ونسخ الدولة الموحدية المؤمنية لما سبق فى علمه وقدره فى سابق قضائه ومبرم حكمه ، كما قال تعالى فى كتابه العزيز ، ومُحْكَمْ وَحْيِهِ الْبَلِيغِ الْوَجِيزِ ، الذى ليس فيه لغو ولا التباس (وتلك الأيام نداولها بين الناس) ، وكان من سلف وتقدم من ملوك الموحدين ، أولى حزم ورأي ودين ، إلى أن كانت وقعة العقاب ، التى آذنت دولتهم بالذهاب ، وذلك فى سنة تسع وستمئة ، فرجع الناصر مهزوماً ذا مهانة وانكسار ، فدخل حضرة مراکش ، ولم يزل ملكه فى نقص وأمره فى إديار ، إلى أن توفي بها فى الحادى عشر لشعبان سنة عشر وستمئة مفاجئاً ، ووليّ ولده يوسف المستنصر بعد أبيه ، وكان صبياً هُلُوعاً جَزُوعاً ، لم يبلغ الحلم ولا جرب الأمور ، فاعتكف فى قصره على اللهو واللعب والخمر ، وأسلم الملك لأعمامه وقربائه ، وفوض الأمور إلى وزرائه وأشياخ دولته ، فتحاسدوا فيما بينهم على الرئاسة ، وناقض بعضهم بعضاً تكبراً ونفاسة ، وأدرك رؤسائهم وولاتهم الإعجاب ، فأضاعوا الأحكام وأغلظوا الحجاب ، وقطعوا الأرحام ، وجاروا فى الأحكام ، وولوا أمرهم وأحكامهم السفلة ، وأبعدوا العلماء وقربوا الجهلة ، فبدا فى ملكهم الفساد ووهن فى دينهم ، وظهر الجور فى أحكامهم وبلادهم والنقص فى سلطانهم ، فولت أيمانهم واختلفت كلمتهم ، وجعل الله بأسهم بينهم ، وبعث لفنائهم

وذهب ملكهم بنى مرين وأيدهم عليهم فأصبحوا ظاهرين (3) ، ومكن لهم فى الأرض وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين ، وكان بنو مرين أهل تصميم وصحة يقين ، ينزلون بأنعامهم فى السباسب والصحارى من قبلة القيروان ، إلى صحراء بلاد السودان ، لا يعمرون إلا القفار ، ولا يؤدون لسلطان بدرهم ولا دينار ، ولا يدخلون تحت حاكم ولا سلطان ، ولا يرضون بذل ولا هوان ، لهم هم عالية ، ونفوس إلى المعالي سامية ، لا يعرفون الحرث ولا التجارات ، ولا يشتغلون بغير الصيد والغارات ، جل أموالهم الإبل والخيول ، ودأبهم الحرب وتخوضان الليل ، وشيبتهم إكرام الضيف ، وضرب أعدائهم بالسيف :

فبنو مرين من بنى مضر الألا نصبوا منار الحل والاحرام
من قيس عيلان الذين بهديهم شدت على التقوا عرا الاسلام
المخمدون بجدهم وسيوفهم فى الحرب حدة عبء الأصنام

وقال آخر فى مدحهم أيضاً :

إن الكرام بنو مرين كلهم ورثوا العلا والمجد أوحداً
قسموا المعالي بالسواء وفضلوا أبناء يعقوب المليك الأسعدا

وكانت طائفة من بنى مرين يدخلون بلاد المغرب فى زمان الصيف
فيرعون به أنعامهم ، ويكتالون منه ميرتهم ، فإذا توسط فصل الخريف
اجتمعوا ببلدة كرسيف ، فإذا استوفوا بها جمعهم شدوا رجالهم ، وقصدوا
بلاذهم ، كان ذلك دأبهم على مر الزمان ، وتعاقب الأحيان ، إلى سنة إحدا
وستمئة فوقعت بينهم وبين بنى عبد الوادى وبنى واسين حرب بسبب

(3) ورد فى النسخة الخطية التونسية بعد كلمة ظاهرين ما يلى :

قف ، هاهنا فصحة (كذا) حاضرة من الخبر انبتر شىء من الكتاب لاطالته وكثرة قرطه ،
لكنها قريبة العهد والله أعلم لأجل ما ذكر فى دخول بنى مرين المغرب وظهور ملكهم السنى المعجب
فى الورقة التى تليه ، ثم يعود الكلام الى بنى مرين .

ولكن بمقارنة عبارات (الذخيرة السنينة) بمبارات (القرطاس) يظهر أن ليس هناك
نصم ولا انقطاع .

إمراة فافترقوا من تلك السنة ، وقصدت مريـن نحو المغرب ، فنزلوا بالجبل المـطلّ على وادى ملوية وهو الجبل الفاصل بين بلاد المغرب وبلاد الصحراء ، فأقاموا به إلى سنة عشر وستمئة ، فدخلت طائفة منهم المغرب ليمتاروا على عادتهم ، فوجدوا المغرب خالياً قد باد أهله ورجاله ، وفني خيله وحماته وأبطاله ، وقُتِلَت قبائله وأقـياله ، قد استشهد الجميع فى غزاة العقاب ، فأفقرت بلادهم فعمرها اليوم والسباع والذئاب ، فأقاموا بمكانهم ، وبعثوا البرية إلى إخوانهم يخبرونهم بحال البلاد وخلائها ، وخصبها ونقاية هوائها ، وسعة مسارحها ومراعيها وعدوبة مياهها ، وكثرة أنهارها ، والتفاف أشجارها ، وبركات ثمارها ، ويأمرونهم بالمسير إليها ، والقـدوم عليها ، فليس ثم من يصدكم عنها ولا من يـنازعكم فيها ، فوصل الخبر إلى أشياخ مريـن فأعلمهم بخلاء البلاد وخصبها ، وضعف الموحدين عن حمايتها ، فشدوا رحالهم وأقبلوا إلى المغرب مسرعين ، وإلى داعيهم مطيعين ، وعلى الله تعالا فى جميع أمورهم متوكلين ، يقطعون المهامه والسباسب ، على ظهور الخيل والنجايب ، يرومون الدنو والبلاغ ، حتى وصلوا إلى وادى تـلاغ ، فولجوا المغرب من ذاك الباب ، بالـخيل والأبل والمراكب والقباـب ، فى جيوش كالسيل ، أو الليل ، أو النمل ، أو الجراد المنتشر ، وذلك لأمر قد قُـضِيَ وقدر ، وليظهر ما كان فى الغيب مجهولا ، وليقضى الله أمراً كان مفعولا .

قدمت مريـن إلى بلاد المغرب والسعدُ يصحبها لنيل المطلب
فى عام عشر بعد ست قد مضت مئين فاحفظه وقيدُ واكتب

وقال صاحب أرجوزة نظم السلوك عبد العزيز المـلزوزى رحمه الله :

فى عام عشرة وستمئة أتوا إلى الغرب من البرية
جاءوا من الصحراء والسباسب على ظهور الخيل والنجايب

فدخل بنو مريـن المغرب فى تلك السنة والسعدُ قد ألقا بأيديهم
مقاده ، فوجدوا ملوك الموحدين قد تهاونوا بالأمور ، واعتكفوا فى قصورهم
على اللهو وزكنوا إلى الغيد فى القصور ، فأدّا ذلك بهم إلى الوهن والقصور ،

فحل بنو مرين بالمغرب ، والقدرُ يُيسر لهم ملكه ويُقرب ، فانتشرت قبائلهم فى بلاده كالجراد ، وملأت حللهم وعساكرهم النجود والوهاد ، فلم يزالوا ينتقلون فى أقطاره مرحلة بعد مرحلة ، حتى أبادوا الجيش عام المشعلة ، وهو عام ثلاثة عشر وستمئة .

أخبرنى من أثق به من أهل العلم والمعرفة بالتاريخ وأيام الناس ، وهو الشيخُ الفقيه أبو العباس ابن الجبر وأدركته وقد أخذتُ منه السنَّةُ العالية : أن بنى مرين أنجدهم الله تعالى لما دخلوا المغرب تفرقت قبائلهم فى جهاته وأنحائه ، وانتشرت فرقهم فى جباله وبطحائه ، وشنوا الغارات على قراه ومدنه ، وضيقوا على قبائله فكان أحدهم لا يقدر أن يخرج من مسكنه ، إلا أن كل من أذعن لهم بالطاعة سالموه ، ومن نابذهم قاتلوه وقصموه ، وفر الناس أمامهم يميناً وشمالاً ، ولجأوا إلى الجبال المنيعة لتكون لهم حصناً ومآلاً ، وخلت المشاجر وقلَّت العمارات ، ووقع الخوف فى البلاد والطرقات ، وغلت الأسعار ، فى جميع الأمصار ، فاتصل خبرهم بمليك الموحدين وهو أمير المومنين يوسف المستنصر فأطرق يفكر فى أمرهم ويدبر ، ثم دعا بالوزراء والأشياخ من الموحدين ، فشاورهم فيما اتصل به من أمر بنى مرين ، فقالوا يا أمير المومنين : لا تهتم بأمرهم ، ولا تشغل قلبك بحالهم ، فانهم شرذمة قليلون ، وأنا إن شاء الله فوقهم قاهرون ، وهم مسع ذلك أضعفُ جنداً ، وأقلُّ عدداً ، ولكننا لا ندعهم لئلاً ، ولا نتركهم سُدّاً ، بل نبعث لهم جنداً من أنجاد الموحدين ، يبادرهم بالغزو فى الحين ، فيقتل رجالهم ، وينهب أموالهم ، ويسبى نساءهم ، وينسف آثارهم ، ويشرد بهم من خلفهم ، وينذر بهم من سواهم ، فبعث إليهم المستنصر جيشاً من عشرة آلاف فارس من الموحدين والعرب والحشم ، وقدم عليهم الشيخ أبا علي بن وانودين ، وأمره باستئصال مرين وقطع شأفتهم وإفنائهم ، وقَالَ له : اقتل الوالد والولد ، ولا تَبْقَ منهم على أحد ، وكتب إلى عماله على مدينة فاس ورباط تازة وهو السيد إسحاق بن يوسف بن عبد المومن والد المرتضا أن يحشد قبائل العرب ويخرج معه إلى قتال بنى مرين ، فارتحل إسحاق وأبلغه أمير المومنين المستنصر ، فسارع إليه وبعث إلى قبائل مكناسة ، وتسول ، والبرانس ،

وسدراتة ، وهوارة ، وصنهاجة ، وفشتالة ، ولمطة ، وغيرهم من قبائل فاس وقبائل الرباط (4) ، فحشد الجميع وأقبلوا بهم نحو مرين ، فسمعت مرين باقبالهم ، فتاهبت لحربهم ونزالهم ، وتآلفت قبائلها ، واجتمعت عشيرتها ، وتشاور رؤسائها وأقيالها فاتفق رأيهم وأجمع جميعهم على الإقامة في البلاد والمحاربة لمن خالفهم ، وأن يجمعوا بقاع الريف حريمهم وأموالهم ففعلوا ذلك ، ثم أقبلوا مستعدين للقاء جيوش الموحدين ، فالتقا الجمعان بمقربة من وادي نكور ، فكان بينهم حرب عظيم مذكور ، يباكرون الحرب ويرأحونه ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع رأى السيد إسحاق وأبو علي بن وانودين أن يرتحلا بجيوشهما إلى ناحية رباط تازة طمعاً في أن يتبعهم بنو مرين فيتوغلوا في البلاد فيتمكنوا منهم ويستأصلونهم بالسيف ، فسار الحميد إسحاق وأبو علي بن وانودين بجيوشهما وحشودهما حتى نزلوا بفحص الوادي ما بين الرباط والمقرمة ، ومرين تتبعهم في أعقابهم ، يرتحلون برحيلهم ، وينزلون لنزولهم ، وينهبون ما قدروا عليه من أطراف محللتهم ، فلما وصل الموحدون إلى فحص الوادي وعلموا أن مرين توغلت في البلاد فروا راجعين في وجوههم ، فالتحم القتال هنالك بينهم من أول النهار إلى وقت العصر ، فسمح الله تعالى مرين النصر والفتح المبين ، فهزموا جيوش الموحدين ومن ظافروهم من القبائل الواصلين ، وأيئدهم عليهم فأصبحوا ظاهرين ، فقتلوه قتلًا ذريعاً ، وفر من أفلت منهم تحت ظلام الليل خائفاً جزواً ، واحتوت مرين على جميع ما كان في عسكرهم من الأثاث والسلاح والأموال ، والخيل والعبيد والبغال ، فقويت بذلك مرين قوة عظيمة ، وشكروا الله تعالى على ما منحهم من نصره وخولهم من نعمه الجسيمة ، وهابهم جميع من بالمغرب من الناس ، ودخل جل جيش الموحدين عراة إلى رباط تازة ومدينة فاس ، وأكثرهم جرحاً ومنهزمين ، وبالربيع والمشعلة مستترين ، قد علاهم الشعث والغفار ، وبدت عليهم الذلة والصفار ، دموعهم مرسله ، ونفوسهم بالحزن مشعلة ، فسمي ذلك العام عام المشعلة (5) .

(5) المشعلة نبات ، سمي بها عام 613 لأن منهزمي الموحدين كانوا يخفون عليهم من ورقة أثناء وصولهم إلى فاس فأزين أمام بني مرين . ظ عن عام المشعلة البيان المغرب لابن عذاري ص 244 طبع تطوان .

(4) رباط تازة .

يحكى أن السيد إسحاق لما وصل إلى مدينة فاس مهزوماً وقف بباب الفتوح ليتدارك به الناس فيدخل بهم البلد ، فبينما هو واقف هناك إذ أقبل عليه من أهل عسكره عراة مستترين بالمشعلة ، فقال لهم ما هذا ؟ فقالوا له في مدتكم المباركة ياسيدنا وتحت لوائكم المنصور ، فمن ذلك العام ظهر أمر بنى مرين ، ومن تلك الواقعة بدا الضعف والوهن في ملوك الموحدين ، فخلت بلادهم ، وقلّ خراجهم ، وفني أشرافهم ، فساد أشرارهم ، وقتل حمانهم وأنصارهم ، وجعل الله بأسهم بينهم ، فكان أشياخهم يُولون سلطاناً ثم يخلعونهم ويباعون غيره ، ثم ينكثون عليه فيقتلونه وينهبون أمواله ويقتسمون خوله وعياله ، فولوا بعد موت المستنصر عم أبيه عبد الواحد بن يوسف بن عبد المومن ، ثم خلعوه وقتلوه وباعوا بعده العادل بن أخيه ، ثم نكثوا بيعته فدخلوا قصره فخنقوه وجعلوا رأسه في خصة من الماء حتى مات ، وبعثوا إلى أخيه المامون ببيعتهم ثم بدا لهم فيها ، وعليه نكثوا وباعوا ابن أخيه يحيى في الحين وتلبثوا ، فضعف ملكه بذلك وذري ، وظهر أمر بنى مرين واعتزّ وقوي .

الباب الثاني

في ذكر الأمير الصالح المبارك عبد الحق رحمه الله وذكر سيره
الجميلة ، ومآثره المحمودة الجليلة ، وذكر رياسته وإمارته على بني مرين ،
وما كان عليه من الفضل والثقا والدين .

قال المؤلف :لهذا التاريخ رحمه الله :

هو الأمير أبو محمد عبد الحق ابن الأمير أبي خالد محيو ابن الأمير
أبي بكر بن حمامة بن محمد بن وزير ، بن فجوس ، بن جرماط ، بن مرين ،
فهو أمير ابن أمير ابن أمير ، إلى جده مرين .

ولما توفي والده محيو بن أبي بكر اجتمع أشياخ مرين بتامة فقدموا
على أنفسهم عبد الحق ، وكان الأمير عبد الحق في قبائل مرين مشهوراً بالثقا
والفضل والدين ، والصلاح والبركة واليقين ، معروفاً عندهم بالورع
والعفاف ، موصوفاً في أحواله وأحكامه بالعدل والانصاف ، ينظم الطعام
ويكفل الأيتام ويؤثر على نفسه المساكين ويحنو على الفقراء والمستضعفين
(البسيط) :

نف اللسان عفيف الفرج تحمده في كل حال له في الدين تصميم
:و عزة وتقاً قد حاز كل عللاً له لدا الناس تبجيل وتعظيم

وكانت له بركة معروفة ودعاء مجاب ، قلنسوته وسراويله يتبرك
بهما في جميع أحياء زناته ، تحمل الى الحوامل اللواتي صعب عليهن الوضع
فتهنون عليهن الولادة ببركته ، وكان بقية مائه يحملته الناس تبركاً به ،
فينشرون به مرضاهم ، وكان رحمه الله من أهل الفضل والدين ، يرد الصوم ،
فلا يزال صائماً في شدة الحر ، قائماً في ليالي البرد ، ولا يرا منطراً إلا في
أيام الأعياد خاصة ، كثير الذكر والتسبيح والأوراد والأذكار ، لا يكاد يفتر
عن الذكر على أي حالة كان ، ولا يأكل إلا الحلال المحض من طيب كسبه

ولحوم إبله وغنمه وألبانها أو مما يُعانيه بيده من الصيد ، فكان رحمه الله في قبائل مريـن عالماً مشهوراً ، وأميراً مُطاعاً مذكوراً ، يفقون عند أمره ونهيـه ، ويصدرون في جميع أمورهم عن رأيه .

قال المؤلف رحمه الله :

أخبرني الشيخ الفقيه القاضي المبارك عبد الله بن الودون أنه قدم على أمير المؤمنين يعقوب بن عبد الحق المذكور في وفد أهل مدينة فاس من الشرفاء والفقهاء والصلحاء ، وهو رحمه الله بمدينة رباط الفتح ، وذلك في شهر رمضان المعظم من سنة ثلاث وثمانين وستمئة برسم السلام عليه والوداع له حين قدم من حضرة مراكش يريد الجواز إلى الأندلس برسم الجهاد ، فجزا في مجلسه رحمه الله ذكر والده الأمير عبد الحق قدس الله روحه فقال أمير المسلمين ولده يعقوب : كان والله عبدُ الحق صادقَ اللهجة كريمَ الفعال ، إذا قال فعل ، وإذا عاهد وفا ، لم يحلف قط بالله تعالا برأ ولا حائثاً ، ولم يشرب قطك مُسكرأ ولا ارتكب فاحشة في شبابه ولا في كِبَره ، ببركة سراويله يسهل الوضع على الحوامل ، وكان يسرد الصوم ويقوم أكثر الليل وإذا سمع بصالح أو عالم قصده لزيارته ، ويستوهب منه الدعاء ، وكان من صدق يقينه وحسن ظنّه إذا دعا له صالح نصب برئسته لأخذ دعائه ، فإذا فرغ الرجل من الدعاء ضمّ أطراف برئسته وجاء به إلى بيته فجمع أولاده ونفض عليهم البرنس وهو يقول : هاذا حظكم من دعاء الصالحين ، وكان شديد المحبة في العلماء والصلحاء ، خائفاً منهم ، متواضعاً لأهل العلم والدين ، وكان مع ذلك ستمّاً لأعدائه قاهراً لهم ، غالباً على من ناواه ، وما وجدنا إلا بركته وبركة من دعا له من الصالحين .

قال المؤرخ لأيامهم :

وكان الأمير عبد الحق في شبابه قليلَ الولد ، فنام ليلة بعد أن خرج من ورده ، وأكثر من شكر الله وحمده ، فرأى في سِنَةِ نومه منامة ، كانت له ولعقبه دليل الملك والأمانة ، رآا في منامه كأنّ قبس نار خرج من قلبه فعلا في الهواء وارتفع ، ثم تفرق واتسع ، حتى احتوا على أقطار المغرب أجمع ،

واستروا على جهاته الأربع ، وأشرق نوره فى نواحيه وسطح ، تم انتبه فزعاً منها مذعوراً ، فقصد إلى بعض الصالحين فقص عليه رؤياه فبشره بخيرها ، ثم شرع له فى تعبيرها ، فقال له لا تخف منها فهي لك عزٌ وتمكين ، وملكٌ لك ولعقبك عن قريب يظهر ويستبين ، هاذي رؤيا جليلة ، يكون لك ولعقبك بها شرفٌ وفضيلة ، دلت على الملك والتعظيم ، والتأييد والتفخيم ، أبشر فانك تلدُ أولاداً ذكوراً يكون لهم عزٌ وشرفٌ مذكور ، وفخر وثناء منشور ، يملك المغرب منهم أربعة ، تكون الأمة على أيديهم مجتمعة ، يكون لهم التقدير والرياسة ، والظهور والسياسة ، فلا يزال الملك فيه وفى بنيه وأعقابيه ، وبهم يستقر الملك فى نصابه ، فكان الأمر كما قص عليه ، ولم يمت حتى رآها ما ذكر له ، قد صار له ملك مرين أجمع ، وتوارث الملك بعده بنوه الأربع .

قال : فأخذ الأمير عبد الحق رحمه الله بعد تعبير رؤياه فى خطبة النساء والتزوج طلباً للولد ، ورجاء أن يترك من ظهره من يذكر الواحد الصمد ، فتزوج أربعاً من النساء ، فتولد له منهن أولاده المذكورون ، فكبر مع بنوه فزاد بهم فى قومه عزة ومكانة ومهابة لحياته وصيانتة .

ولم يزل الأمير عبد الحق بعد هزيمته لأبى علي بن وانودين ومن كان معه من الموحدين ينتقل بجيوش بنى مرين فى أطراف المغرب إلى أن دخل شهر ذى حجة سنة ثلاث عشرة وستمئة المذكورة آنفاً ، فزحف بمن معه من أنجاد مرين إلى أن نزلوا بالقرب من رباط تازة وبعث إلى عاملها يطلب منه أن يُقيم له الاقليم والأسواق بخارجها ليتجهز منها بنو مرين مما يحتاجون إليه من الثياب والجهاز والسلاح وغير ذلك ويرتحلون عنه ، فأُنف من ذلك عامل الرباط ، واغتاط واستشاط ، وجمع من كان عنده من الموحدين والعرب وحشد القبائل المجاورين له ، وخرج لحربه ، فالتقا الجمعان فكانت بينهما حروب شديدة ، قتل فيها عامل الرباط وهُزم جيشه ونهب عسكره بأمر الأمير عبد الحق فجمع السلب والخيل والعدة وأحضر ذلك كله بين يديه ، فأعطى الخيل لمن لم يكن له فرس من قومه ، وقسم المال والسلب والسلاح فى قبائل مرين ، ولم يتملك بشيء منه ، وقال لبنيه أردتم أن تأخذوا من

هذه الغنيمة شيئاً ؟ فيكيفكم فى حظكم الثناء والظهور على أعدائكم فبذلك تسودون قومكم .

وفى سنة أربع عشرة وستمئة وقع الخلاف بين قبائل مريـن كلها إلى عبد الحق إلا طائفة من بنى عسكر فانهم ساروا إلى رياح ودخلوا عليهم دخيلاً أن ينصروهم على حرب بنى مريـن ، فوعدهم بذلك ، وكانت عرب رياح فى ذلك الزمان أقوا قبائل العرب وأعزها جناباً وأشجعها وأكثرها أموالاً وخيلاً ورجالاً ، فاغتروا بكثرتهم ، واعتمدوا على قوتهم وشجاعتهم ، وظنوا أنه لا غالب لهم من الناس ، فلما كان شهر جمادى الآخرة من السنة المذكورة أقبلت عرب رياح ومن سار إليهم من بنى عسكر مسرعين إلى قتال بنى مريـن ، فسمعت مريـن بأقبالهم وكثرة عددهم وقوة جيشهم ، فأخذوا فى التآهب للقائهم وقتالهم ، فاجتمعوا إلى الأمير عبد الحق فقالوا له : أنت أميرنا ورئيسنا وشيخنا وبركتنا فما ترا لنا فى هaulا العرب المقبلين إلينا لحربنا ؟ فقال لهم : يامعشر مريـن إذا كنتم بالسوية والاعتدال وأعطا كل شيخ من أشياخ مريـن على قدر منزلته وقومه وما يستحقته إذا كنتم فى أمركم مجتمعين ، وفى أحوالكم متفقين غير مختلفين ولا متنازعين ، وكنتم جميعاً فى حرب عدوكم أعواناً ، وفى ذات الله إخواناً ، فلا أخشأ أن ألقا بكم جميع أهل الغرب ، وإن اختلفت أهواؤكم وأقوالكم ، وتشتت آراؤكم ، ظفر بكم أعداؤكم ، وظهر عليكم حسادكم وقصادكم ، فقالوا له : أيها الأمير إنا نجدد لك البيعة على السمع والطاعة لك وعلى أن لا نختلف عليك فى قول ولا فعل ولا نفر عنك ولا نسلّمك أو نموت عن آخرنا دونك ، فانفض بنا إلى لقائهم ، وتقدم أمامنا إلى قتالهم ، فسرّ الأمير عبد الحق بقولهم ، وشكرهم ودعا لهم ، وقال : أما الآن فباسم الله نسير إليهم على بركة الله ، فسار بمن معه من جيوش بنى مريـن حتى التقا الجمعان بموضع يعرف بواجرهان ، بمقربة من وادى سبو على أميال من قرية تافرطاست ، فكانت بينهم حروب عظيمة لم يشهد مثلها قتل فيها الأمير عبد الحق وولده إدريس فغضبت بنو مريـن وقامت وقعدت لقتل أميرها وأنفت لمصاب رئيسها وكبيرها ، وأقسم بنو وجاعة من أشياخ مريـن ، منهم حممة بن يزنن العسكرى والأمير ابن

محيو وغيرهم بالإيمان المغلظة الا يدفنوهما حتى يأخذوا بثأرهما ، فزحفوا نحو رياح كالأسود العادية ، والسيول الطامية ، فحملوا على رياح حملة الأسد على الثعالب ، وانقضوا في جيوشهم انقضاض البُزاة في اليعاقب ، وصبروا للقتال صبراً جميلاً ، وراواً ألا محيد عن الموت في حروبهم ولا تحويلا ، فاشتدَّ الحرب بينهم والكفاح ، وكثر القتلا في الفريقين والجراح ، وتقللت السيوف وتقصفت الرماح ، فنصرت بنو مرين وهزمت رياح ، وقتل مرين منهم خلفاً عديداً ، وفرَّ مَنْ بقي منهم مهزوماً خائفاً شريداً ، واحتوت مرين على جميع ما كان في حللهم من الأموال والخيول والعدد والثياب والابل والدواب .

وقام بأمرهم بعد موت أميرهم عبد الحق ولده عثمان ، وكان موت الأمير عبد الحق في المعترك يوم الأحد الثاني والعشرين لجمادى الآخرة من سنة أربع عشرة وستمئة المذكورة ، ودفن عشيَّ يوم الاثنين الثاني ليوم وفاته بظاهر قرية تافرطاست ، فقبره هنالك معروف بسجدة وزاوية يطعم فيها أبناء السبيل على الدوام .

الباب الثالث

فى ذكر الأمير عثمان بن عبد الحق رحمه الله تعالى

قال صاحب التاريخ رحمه الله :

هو الأمير أبو سعيد عثمان بن عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حماسة بن محمد بن وزير بن فجوس بن جرماط بن مرين الزناتى المرىنى .
أمه النوار بنت تاصليت الونجاسنى .
مولده سنة ثلاث وتسعين وخمسمئة .

ولما هُزمت رباح وفرغ بنو مرين من قتالهم ، ورجعوا من اتباعهم اجتمعوا إلى الأمير عثمان بن عبد الحق فعزّوه فى أبيه وأخيه ، وبأيعوه على طوع منهم وتنويه ، فلما بويع وتمت بيعته أخذ فى غسل أبيه وتكفينه ودفنه ، وقلبه يلتهب بالأسا من حزنه ، فلما فرغ من جهاز أبيه وشأنه ، وقف بين قومه وإخوانه ، فأمر بجمع السلب والأموال ، فجمعت بين يديه فقسّمها فى قبائل مرين بالسوية والاعتدال ، وأعطى كلّ شيخ من أشياخ مرين على قدر منزلته وقومه وما يستحقّه حتى رضى الجميع .

ثم سار إلى غزو رباح وتبعهم وأقسم ألا يكفّ عنهم حتى يقتل منهم بأبيه وأخيه مئة شيخ من أشرافهم ، فقتل منهم خلقاً عديداً ، وأذاقهم وبالا شديداً ، فلما رأت عرب رباح ما نالها منه من القتل والسبي والغارات أذعنوا له بالطاعة ، وبعثوا له الصلحاء بالتذلل والضراعة ، فكفّ عنهم على مال جليل يؤدونه له فى كل سنة فهم على ذلك يؤدون تلك الضريبة حتى الآن .

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمئة ، وفيها ضعف ملك الموحدين ، وتبين فيه الوهن والنقص أى تبين ، فصارت ملوكهم ليس لهم حكم فى البوادي إنما لهم أمرهم وسلطانهم فى المدن خاصة .

وفى سنة ست عشرة وستمئة كثر الفتن بين قبائل المغرب واشتد الخوف فى الطرقات ونبذ أكثر القبائل الطاعة ، وفارقوا الجماعة ، وقالوا لا سمع ولا طاعة ، فاكل القوي الضعيف ، واستوا الدنيء والشريف ، فكان كل من قدر على شيء صنعه ، ومن أراد منكراً أظهره وابتدعه ، إذ ليس لهم ملك يحوطهم ، ولا أمير يكفهم ويصدهم ، فكانت قبائل فازاز من جاناة وقبائل غمارة وأوربة وصنهاجة والعرب يقطعون الطرقات ويغيرون على القرا والمجاشر مع الأحيان والساعات ، فانقطع الحرث واشتد الغلاء فى البلاد ، بسبب ذلك الإهمال والفساد ، فلما رأى الأمير عثمان بن عبد الحق ملوك الموحدين قد أهملوا دولتهم ، وسيئوا رعيتهم وضيعوا حرمتهم ، واعتكفوا فى قصورهم ، واحتجبوا عن مهمات أمورهم ، وأنهم قد اشتغلوا بالخمور والغواني ، وتلذذوا باللهو وسمع الأغاني ، رأى أن ضلالهم قد تبين ، وجورهم قد زاد وتحكم وغزوهم على من له قوة واجب تعيين ، وأن خلعهم من أوجب الواجب ، لعجزهم عن القيام فيما تقلدوه من أمر الأمة بالحق الواجب ، فجمع أشياخ بنى مرين ، وندبهم إلى القيام بأمر الدنيا والدين ، والنظر فى صلاح المسلمين ، فوجدهم فى ذلك راغبين ، فأجابوا لما ندبهم اليه مسرعين ، فأمرهم بالتأهب لذلك ثم دعا براءة فعقدها وقربها بين يديه وخرج من حلقته على بركة الله تعالى ، فسار يشق بلاد المغرب بجيوش مرين الوافرة ، وقبائلهم المشهورة المظفرة ، فمر على جميع قبائله وأوديته وجباله ومعاقله ، فمن سارع إلى بيعته وطاعته أمثته ووضع عنه الخراج وأقره ببلده وماله آمناً منيعاً ، ومن حاد عن طاعته ونابذه أباده نهياً وقتلا وغادره صريعاً ، فكان أول من بايعه من قبائل المغرب ودخل فى طاعته هواة ثم تسول ثم مكناسة ثم بطوية ومطلاسة وكزناية وبنو يرتيان وغيانة ومجاصة وصاروية وبنو مكود ، وبنو سيستان ، وبنو يازغة ، وبنو واسليست ، وبنو بحر ، وبنو يوسف ، ثم عطف إلى بلاد بنى كانون ففتحها وفتح جبال زرهون وبلاد أوربة ، وصنهاجة ، وفشتالة ، وسدراتة ، ولطة ، وبنو واريثين وكثير من بلاد غمسارة ، فوضع على كل قبيلة مالا وزرعاً معلوماً يؤدونه فى كل سنة خفارة على بلادهم وأخرج عليهم الحفَاط ، وصالح أشياخ مدينة فأس ومكناسة

ورباط تازة وقصر كتامة على أموال معلومة يؤدونها له فى كل سنة خفارة على بلادهم على أن يؤمن لهم الطرقات ، ويكف عنهم الغارات ، ويدفع عنهم إذا من كان يؤذيهم من القبائل المجاورين لهم .

وفى سنة عشرين وستمئة غزا الأمير عثمان بن عبد الحق بلاد فازاز ومن بها من قبائل جانانة ، فأتخن فيهم وأذعن له منهم بالطاعة قبائل كثيرة ، منهم مكلاتة وغيرهم ، وارتدعوا عن الفساد فى الأرض وكفوا عاديتهم عن الناس .

وفى سنة إحدا وعشرين وستمئة غزا من بفحص ازغار من قبائل العرب والبربر الذين كانوا يقطعون الطرقات ويأكلون الرفاق فإبادهم وخلت البلاد منهم .

وفى سنة خمس وعشرين وستمئة قوري أمره بالمغرب ، فطاع له جميع قبائله وملك جميع بواديه من وادى ملوية الى رباط الفتح ، وفى أيامه كانت المجاعة والوباء الشديد والخوف والفتن فخلا أكثر بلاد المغرب .

الخبر عن سيرته وأحواله رحمه الله تعالى

كان الأمير عثمان بن عبد الحق شديد الحزم قوي العزم ذا نجدة وزعامه ، وقوة وعزيمة ، له رأي سديد ، وعضد شديد ، وكرم وإيثار ، وحماية للذمار ، وحفظ للجوار ، وحياء ودين ، وصدق وفاء ، وصحة مذهب ويقين ، وكان مع ذلك معظماً للعلماء موقراً للصالحين ، يتواضع بين أيديهم ويخضع ، ويستوهب منهم الدعاء ويخشع ، كثير الصوم والصلاة والصدقة ، مستمراً فى أحواله على أحسن طريقة ، سلك نهج أبيه وسيره وشيمه وطريقه ، فلم يزل على السنن القويم ، والهدى المستقيم ، حتى أتاه اليقين ، فاغتاله ليلا علج كان له ربه صغيراً ، فضربه غداً بحربة فى نحره ، فمات منها من حينه ، وذلك بوادى رداد ، فى سنة ثمان وثلاثين وستمئة ، وهو يومئذ ابن خمس وأربعين سنة ، فكانت أيامه وإمارته على قبائل مرين وبوادي المغرب أربعاً

وعشرين سنة وسبعة أشهر من يوم وفاة والده وبيعة بنى مزين إياه لوجه الله تعالى .

ذكر الخبر عن الأحداث التي كانت من أول المئة السابعة

سنة ستمئة

قال المؤلف رحمه الله :

أول حدث حدث بالمغرب في أول عام ستمئة قيام العبيدي بجلال ورعة من أحواز مدينة فاس ، وادعا أنه الفاطمي المهدي الذي ينصر الإسلام ويملا الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، فتابعه كثير من قبائل المغرب وبواديه وجميع جبال غمارة ، فظفر به فقتل وحمل رأسه إلى الناصر ، فأمر أن يرد إلى مدينة فاس ويعلق رأسه على بابها ولا يزال أبداً ، فعلق رأسه على باب الشريعة من أبوابها وأحرق جسده في وسط الباب المذكور بعيد أن صلب عليه خمسة عشر يوماً ، وكان حرقه في اليوم الذي تسم فيه سور المدينة المذكورة بالتجديد والبناء والإصلاح ، وتم الباب المذكور بالبناء وركبت مصارعه فسمي به باب المحروق لأجل حرق العبيدي في وسطه يوم تمامه ، وكان العبيدي رجلاً صالحاً متخشعاً كثير الورع والعبادة .

وفيها توفي الفقيه العالم الزاهد الورع علي بن أحمد بن يحيى الأسدي المعروف بالجواني نزل مدينة فاس ودرس بها ، ثم رحل إلى المشرق برسم أداء فريضة الحج ، وسمع ابن عساكر ، ودخل العراق والشام ، وجعل على نفسه أن يؤذن في منار كل بلد يدخله وأن يروي حديثاً أو حديثين عن الشيخ الذي يلقاه فيه ، وربما قيد له بخطه فاجتمع له أربعون حديثاً عن أربعين شيخاً من أربعين مدينة ، وقال رحمه الله أنشدني حماد بن هبة الله الحرايبي لنفسه في سبع وتسعين وخمسمئة :

قالوا نراك كثير السير مجتهداً في الأرض تنزلها طوراً وترتحل
فقلت لو لم تكن في السير فائدة ما كانت الشمس في الأبراج تنتقل
وقال أيضاً أنشدني ابن عساكر سنة ست وتسعين وخمسمئة في
هذا المعنا :

قالوا : ترحلت عن دار نشأت بها وليس للمرء إلا داره شـرف
قلت : انظروا الدر في التيجان موضعه لما تفتح عن مكنونه الصدف

وفي أول محرم منها توفي الفقيه الحافظ عبد الله بن طاهر بن عبد
الله بن هشام بن ملك بن فهر الأزدي الوادي آشي ، سكن مراکش واستوطن
مدينة فاس ثم رحل منها إلى المشرق فحج وسمع بدمشق من أبي طاهر
الخشوعي مقامات الحريري ، وسمع أبا القاسم بن عساكر ، وأبا القاسم أحمد
بن ملك البغدادي وجماعة .

سنة إحدا وستمئة

وفي سنة إحدا وستمئة بنا يعيش عامل أمير المومنين الناصر
الموحدي على بلاد الريف سور مدينة بادس وسور المزمة وسور مليلة خوفاً
عليهم من فجأة العدو النصراني .

وفيها توفي الفقيه الحاسب عبد الله بن محمد بن حجاج المعروف
بأبن الياسمين من أهل فاس ، بربري الأصل من بني حجاج أهل قلعة فندلاوة ،
أخذ عن أبي عبد الله بن قاسم علم الحساب والعدد وشارك في غير ذلك ،
وكان أحد خدام المنصور ثم ولده الناصر ، وله أرجوزة في الجبر ، قرئت عليه
وسمعت منه بأشبيلية سنة سبع وثمانين وخمسمئة ، وتوفي رحمه الله
ذبيحاً بمراكش سنة إحدا وستمئة المذكورة .

ومن توفي من الفضلاء في سنة إحدا وستمئة أبو العباس السبتي :
أحمد بن جعفر الخزرجي شيخ المريدين الأخذ بمذهب غريب في الدين ،
مولده بسبته عام أربعة وعشرين وخمسمئة ، ونزل مراکش فاستوطنها وبها

توفي يوم الاثنين السادس من شهر جمادى الآخرة من سنة إحدى وستمئة المذكورة ودفن بباب تاغزوت ، وشيخه أبو عبد الله الفخار صاحب عياض بن عياض اليحصبي ، وكان مذهبه رحمه الله أن لا يترك لنفسه ناصباً من المال إلا قدر ما يقرته وعياله في يومه وباقيه يتصدق به ، وكان يرا أن أهل الجمال من النساء الفقيرات تجب الصدقة عليهن مخافة فسادهن ، وأن القبيحات لا يتصدق عليهن بشيء حتى يستغني الملاح ، وكان يرا أن الرجل إذا اعتل في جسده عضو من أعضائه يتصدق بدية العضو ويبرأ ، وكان حافظاً لكتاب الله تعالى يتلوه بالليل والنهار قد اتخذ القرآن نجياً ، وله كرامات كثيرة .

سنة اثنتين وستمئة

وفي سنة اثنتين وستمئة ولي الحفصيون بلاد إفريقية وعمالتها للناصر الموحدى بعد أن فتح المهدية وأخرج عنها الحاج الكافي عامل ابن غانية عليها .

وفيهما توفي الفقيه عبد العزيز بن يوسف بن إبراهيم اللخمي المعروف بابن الدباغ من أهل مرسية ، جاز إلى العدو فسكن مدينة فاس وأقرأ بها ، ثم انتقل إلى تلمسان فاستوطنها وبها توفي سنة اثنتين وستمئة ، وقد نيف على الستين سنة ، روا عن أبيه الحافظ يوسف ، وعن جده لأمه محمد بن وضاح القيسي ، وأبى بكر بن العربي ، فكان رحمه الله هو وأبوه من أئمة المحدثين وحفاظهم المتقدمين في الضبط والاعتقان .

وممن توفي سنة اثنتين وستمئة الفقيه الزاهد أبو عبد الله بن المجاهد نفع الله به ، توفي بأشبيلية في شهر صفر سنة اثنتين وستمئة المذكورة .

سنة ثلاث وستمئة

وفي سنة ثلاث وستمئة رجع الناصر من إفريقية إلى مراکش .

وفيهما ولد الأمير أبو بكر بن عبد الحق .

وممّن توفي في سنة ثلاثة وستمئة الفقيه الفاضل الزاهد موسى بن عمران المرتالي ، كان له تقوا ومعرفة بتفسير القرآن وحفظه وروايته وناسخه ومنسوخه ، وكان راوياً لحديث رسول الله (ص) عالماً بأصول الدين وله ديوان شعر في الزهد ، فمنه قوله :

قنعت من الدنيا بقوت مبلغ فلست أبالي ما أخلف من خلفي
إذا كنت لا أدري أأهمل ساعة كفاني ما يكفي ودون الذي يكفي
وله رحمه الله يخاطب نفسه :

تحفظ بدينك لا تبتذله ولا تلف عرضك عرضاً كليماً
فأنت ابن عمران موسى المسمّى ولست ابن عمران موسى الكلبي
توفي رحمه الله بمدينة فاس ، ودفن بخارج باب الفتوح في الموفى عشرين لشهر صفر عام ثلاثة وستمئة .

وفيها توفي الفقيه الحافظ المشاور عبد الرحيم بن عيسى بن يوسف بن عيسى بن قاسم الملجوم بن محمد ابن فنتروش بن مصعب بن عمير بن خالد بن هرثة بن يزيد بن الملهب بن أبي صفرة الأزدي الزهراني المهلبى من أهل فاس وجلة أعيانها يعرف بابن الملجوم لقّب بذلك للكنة كانت بلسانه ، يكنى أبا زيد ، وأباً القاسم ، كان رحمه الله من أهل العلم والدين والفضل ، روى عن الفقيه القاضي عيسى بن يوسف ، وعن عبد الله بن علي سبط الحافظ أبي عمر بن عبد البر ، استجازه والده ، وعن جعفر حفيد الأعلام أجازه أيضاً ، وعن الفقيه المحدث علي بن أحمد بن عبد الرحمان الزهرى ، والقاضى عياض بن موسى ، وحسن بن علي بن سهل الخشنى ، والفقيه أبى بكر بن زيدان والفقيه الحافظ أبى مروان بن مسرة ، وابن بشكوال الفقيه بقرطبة في رحلته اليها ، ودخل الأندلس مراراً لطلب العلم والجهاد ، ولقي باشبيلية وقرطبة جماعة من الفقهاء والمحدثين وأهل اللغة ، ولقي بالعدوة كذلك ، وكان رحمه الله ضابطاً لما رواه من بيت علم ودين وشرف وفضل وحسب ، مولده في صفر من سنة أربع وعشرين وخمسمئة ، وتوفي رحمه الله في ذى القعدة سنة ثلاث

وستمئة وهو ابن تسع وسبعين سنة ، روا عن الغافقي وابن فرتون وجماعة ، وحدث بفاس ، وجلس للتريس بها والرواية ، فأخذ عنه الناس واستجازوه من أقصا البلاد رغبة في علو روايته وضبطه .

سنة أربع وستمئة

وفى سنة أربع وستمئة جدد سور مدينة وجدة .

وفيهما أمر الناصر ببناء دار الوضوء والسقاية بازاء جامع الأندلس بمدينة فاس وبها توفي ، وفيها فُتِح الباب الكبير المدرج الجوفى بصحن الجامع المذكور ، وفيها بُنِيَ مُصَلَّاءُ القرويين القديمة .

وممَّنْ توفى من العلماء والفضلاء فى سنة أربع وستمئة الفقيه الحافظ المحدث أبو ذر مصعب بن أبى بكر بن مسعود بن عبد الله بن مسعود الحشنى الأستاذ المحدث المقرئ النحوى الجليل القدر ، أصله من جيان ، روا عن أبيه وعن أبى بكر بن عبد الله بن طاهر ، وتجول بالعدوة والأندلس وطلب العلم واعتنا به وقيد ، روا بفاس عن ابن حنين وابن الرمانة وأبى العباس المخزومى ، وروا بقرطبة عن ابن بشكوال وعبد الله بن عمر بن هشام الحضرمى وأخذ ببجاية عن عبد الحق الأزدي الأشبيلي ، وكتب إليه الامام الحافظ أبو الطاهر السلفى ، وأبو محمد الديباجى ، وكان رحمه الله أحد الأئمة المتقدمين ضبطاً وتقييداً وأحد المعتمد عليهم فى علم اللغة والآداب ، اماماً فى العربية ، عالماً بكتاب سيبويه ، ذا سمع ووقار وفضل ودين وورع كثير الحياء قليل التصرف للدنيا ، لا يخرج من منزله إلا لأقاربه والصلاة إذا حضرت ، أقرأ ببلده جيان وبجاية وإشبيلية وفاس ، وبها استقر الى أن توفى بها ضحاً يوم الاثنين الحادى عشر لشوال من سنة أربع وستمئة المذكورة ، ودفن بخارج باب الفتوح ، وولى قضاء جيان أيام المنصور ، ولم يكن فى وقته أتم وقاراً ولا أحسن سمّاً وعقلاً منه رحمه الله ولا اضبط ولا أتنن تقييداً منه فى جميع علومه حفظاً وعلماً وكان نقاداً للشعر ، عالماً به ، مطلق العنان فى معرفة أخبار العرب وأيامها وأشعارها ولغاتها متقدماً فى ذلك كله وفى اقراء كتاب سيبويه ومعرفة أغراضه وغوامضه .

ولقد سئل الفقيه الحافظ الجليل أبو عبد الله الصنفى الفاسى أيهما أعرف بكتاب سيبويه ابن خروف أم أبو ذر ؟ فقال لم يكن أبو ذر يقتصر فى معرفة الكتاب عن ابن خروف ولا غيره مع اتساعه فى المنافع والآداب والحديث والفقه وغير ذلك وإمامته فى الضبط إلا أنه كان لئسدة وقاره فلم يكن يلج عليه فى سؤاله ولا مباحثته ولا يقدم عليه مع أنه كان يستوفى به القاية ويبلغ ما يمكن من الاعتراضات والانفصال عنها ، فكنا نخاف أن يشقَّ عليه القول بعد ذلك الاستيفاء ، وكان ابن خروف شديد الانبساط للطلاب غير مهيب فكنا نسأله فاعتمدت عليه فى الكتاب وفى الآداب واللغات والحديث والرواية عن أبى ذر إذ لم يكن ابن خروف يجاريه فى ذلك .

وحدث الفقيه أبو عبد الله ابن الشيخ أبى الحسن ابن كسبة امام الموثقين فى زمانه وكان قد قرأ على أبى ذر فى كتاب سيبويه مثل شيخه أبى بكر بن طاهر إلا أن ابن طاهر كان ينصه ، وكان الامام الحافظ أبو عبد الله بن يوسف المزدغى يقدمه فى علم العربية وفى علم الحديث وكان يقول كتابان لا يحسن أحد أن يمسكها فى يده مع أبى ذر ، وهما مسلم والسيئر يعنى فى التقييد والضبط ، وكان مع ذلك راوياً لكاتب كثيرة فى فنون شتأ من العلم ، وله املاء حسن على كتاب السير ، وله شعر رائق فى فنون شتأ ، فمن ذلك قوله :

| | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| طال ليلى بالناضرية لما | أرق العيون فيه طيفاً أمّما |
| خطرت فكرة على القلب منه | مثلثة للخط عيني وعما |
| لبس النيل كاتماً لسُـمراه | خوفاً واش وكاشع أن بمّما |
| عطر الجوّ عرفته وشذاه | وأضاء الدجا فما اسطاع كتما |
| حبّ ذاك الخيال من أم عمر | لو أزال الخيال عني همّما |
| ذكرتني معاهدا للتصابى | وروسوماً بقين فى القلب رسما |
| كم لزمنا السرور فيها اغتباقاً | ولثمنا ثغر الأمانى لثما |
| وجرنا بها الذبول اختيالاً | واجتئنا البذور تمّاً فتمّما |
| حين سلّمنا تبّيت بالهجر حرباً | ثم تضحى بوصلها لك سلّما |
| آه مما جنته أيدي الليالى | فرقت شملنا وقد كان ضمّما |

كنت ادعاً اخاً لبعض الغواني
عروض الدهر من صباك وقاراً
فلتدع ذكر زينب وسعداد
كم تشكيت من سهام جفون
وتالمت من لهيب اشتياق
وتنعمت باسم أسماء دهر
رب دمع أجريته خوف صد
وقواف نظمتهن اغتـرارا
رب إن الذنوب قد أثقلتني
لست أرجو سواك رباً رحيماً

وتولا الصبأ وقد ضرت عمماً
ومن الجهل والغواية حلماً
إن ذكر الآلام أقرب رحماً
وقسي المنون أنفذ سهماً
ولهيب الجحيم لا شك أصماً
واسم رب العباد أعلا وأسمى
وبكاء الذنوب كان أهماً
منك أودعتهن حمداً وذمماً
فاعف عني فقد تحملت جرماً
تغفر الذنب لي وإن كان جماً

سنة خمس وستمئة

وفى سنة خمس وستمئة ولد الأمير أبو عياد بن عبد الحق ، وفيها
تزلزلت مدينة تونس سبع مرات فى يوم واحد حتى تهدمت المباني العالية .
وفىها توفي الفقيه الحافظ علي بن حسين الصدفي الفاسي الدار ، كان
من اهل المعرفة بالفقه والحديث والنحو والآداب أخذ عن الحسن بن طاهر
وغيره ، وولاه المنصور قضاء غرناطة ، ثم تأخر عن قضائها فى أيام المنصور
فتوفي بفاس .

وفىها توفي الفقيه المبارك الصالح علي بن محمد بن خيار البلنسى ،
سكن مدينة فاس وبها توفي فى شهر رمضان من السنة المذكورة ، سمع
من أبى عبد الله بن الرمامة ولازمه كثيراً وتفقه عليه وسمع أبى الحسن بن
حنين ، وسمع أبى القاسم بن بشكوال وأخذ عن أبى بكر بن خير صحيح
مسلم وسمع أبى محمد بن عبيد الله بسبته ولقي براكش أبى عبد الله بن
الفخار ، وبتلمسان أبى الحسن بن أبى كنون ، وكان فقيهاً مشاوراً تاركاً
للتقليد مائلاً إلى النظر والاجتهاد مشاركاً فى فنون من العربية والأصول وعلم
الكلام والتصوف ، وهو القائل هاذين البيتين :

نجدد نسياناً كذا كل هالك ونأمن أحياناً ولم يأتنا أمن
فانا ولا كفرانَ لله ربنا لكالبُدن لا تدري متى يومها يدنو

وممَّنْ تُوفي من العلماء فى سنة خمس وستمئة الفقيه الحافظ
المحدث العالم المجتهد عبد الرحمان بن محمد بن يوسف بن عيسا بن يوسف
بن قاسم الملجوم من أعيان فاس وفضلائها ويشهر فى بيته بنى ملجوم بابن
رقية ، وكان له مال جليل ورباع عظيمة كانت غلته فى كل شهر من رباعه
ثلاثة آلاف دينار ، وكان يتصدق فى كل يوم بخمسين درهماً ، روا عن عمه
الفقيه عيسا والد عبد الرحيم ، وعن الفقيه أبى مروان ابن مسرة من أهل فاس ،
ورحل إلى الأندلس مرات لطلب العلم ومجاهداً ، حضر غزوة الأراك مع المنصور
متطوعاً ، ولقى جماعة من العلماء والمحدثين بالعدوة والأندلس ، وأخذ عنهم ،
وكان له اعتناء بالتاريخ والأنساب ومعرفة بالشعر والنحو واللغة والآداب ،
نظر فى كثير من العلوم واعتنا بها وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من أهل
المغرب ، وخزانة كتبه كانت مشهورة فى المغرب ، بيعت خرمها بعد وفاته
بستة آلاف دينار ، مولده سنة ست وثلاثين وخمسمئة ، وتوفي رحمه الله
سحر يوم الخميس سادس صفر عام خمس وستمئة .

وفىها توفي الامام الحافظ ، عالم المشرق ، الفخر ابن الخطيب الرازى
صاحب علم المنطق ، واسمه محمد بن عمر بن الحسن بن أبى المعالى ، صنف
كتاب التفسير فى ثلاثين مجلداً أتى فيه بكل بديع ، وصنف كتاب المحصل ،
والأبعين ، ونهاية العقول ، وغيرها ، وكان معتنياً بكتب ابن سينا فى المنطق
وشرحها ، وكان يعظ الناس ببغداد وينال من الكرامية وينالون منه ويكفرونه
ويقفرونه ، وقيل إنهم دسوا إليه من سقاء السم فمات فى ذى الحجة سنة
ست وستمئة المذكورة ، ولا خلاف فى فضله ، وقد خالف الفلاسفة الذين
أخذوا الفن عنهم واقتبسهم منهم ، فقال فى كتاب له سماه بالمعالم : أطبقت
الفلاسفة على أن النفس جوهر وليست بجسم ، قال : وهذا باطل عندى لأن
الجوهر يمتنع أن يكون له قرب أو بعد من الأجسام ، واتفاقهم على أنها ليست
داخلة فى البدن ولا خارجها عنه يدل على عدم الجسمية ، وما ادعوه أن للجوهر
قرباً أو بعداً عن الأجسام ، وانما ادعوا ذلك فى ذات الجوهر لا فى غيره ،
وليست النفس كذلك ولهذا توقفوا عن الجواب فى معنا الجوهر الفرد ،

وقد حُكي عنه من الدين والفضل وكرم الأخلاق وحسن السيرة والعشرة واعتنائه بنصر الملة الإسلامية وتأييد السنة ما يُبطل قول الكرامية فيه .

سنة ست وستمئة

وفي سنة ست وستمئة ولد أمير المسلمين المجاهد يعقوب بن عبد الحق .

وفيها ولد الفقيه أبو القاسم العزفي صاحب سبته وقيل بل ولد في سنة تسع وستمئة .

سنة سبع وستمئة

فيها توفي الفقيه الصالح سليمان بن مهدي بن النعمان من أهل مدينة فاس ، ويعرف بالسطي ، رواه عن عبد الله بن الرمانة ، وأخذ علم الكلام عن أبي عمر عثمان بن محمد السلاجي وتوفي وهو ابن سبعين سنة ، وكان رحمه الله كثيراً ما ينشد هذه الأبيات وهي لسعيد بن عبد الرحمان بن وهب بن عبد ربه رحمه الله :

| | |
|--------------------------------|---------------------------------|
| أمن بعد غَوْصى فى بحار الحقائق | وطول انبساطى فى مواهب خالقى |
| وفى حين إشرافى على ملكوته | أرا طالباً رزقاً إلى غير رازقى |
| وقد آذنت نفسى بتقويض رحلها | وأسرع فى سوقى إلى الموت سائقى |
| وإنى وإن أوغلت أو سرت هارباً | من الموت فى الآفاق فالموت لاحقى |

سنة ثمان وستمئة

وفي سنة ثمان وستمئة جاز الناصر إلى الأندلس برسم الجهاد وجوز معه قبائل إفريقية والمغرب ، فيقال إن من جاز معه من الخيل والرجال ستمئة ألف مقاتل ، فاغترت بكثرة من جاز معه من الجيوش وأدركه الإعجاب .

وفيها توفي الفقيه الشيخ الصالح الزاهد الورع محمد بن جرير المعروف بابن تاخيمست من أهل فاس ، وبها مات ليلة الثلاثاء السادس والعشرين لذي الحجة من سنة ثمان وستمئة المذكورة ، ودفن بخارج باب

الكيسة ، وكان رحمه الله ونفع به كثير الورع شديد الانقباض عن الناس ، وله خط حسن ، وكان ينسخ المصاحف بيده ويدفعها لمن يراه أهلاً لها ، وكان مولعاً بدرس العلم وطلبه ، وهو القائل :

أخو العلم حيٌّ خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب وميِّم
وذو الجهل ميتٌ وهو ماشٍ على الثرا يُظنُّ من الأحياء وهو عديم

وفيها تُوفي الشريف الصالح الورع الزاهد المعمر أبو العباس الحسنى الجوطى عن سن عالية رحمه الله ونفع به ، ودفن بخارج باب الكيسة قريباً من قبر الفقيه أبى محمد يشكر .

وفيها ولد محمد بن إدريس بن عبد الحق ، وفيها كانت غزاة شربطه وفتحها ، وفيها كانت ملاقة أمير المؤمنين الناصر مع ملك قشتيلة النصراني بالعقاب فهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير لا يحصر ، وفيها فني جيوش المغرب والأندلس .

سنة تسع وستمئة

فيها تُوفي العالم المجتهد علي بن أحمد بن محمد بن يوسف بن مروان بن عمر الغساني الوادى آشى ، مولده سنة سبع وأربعين وخمسمئة ، روا عن ابن طاهر وابن الفرس ، وكان فقيهاً أديباً مشاركاً فى فنون العلم ، وله تواليف ومجموعات مفيدة ، منها كتاب الوسيلة لاصابة المعنا ، فى شرح أسماء الله الحسنى ، وكتاب التصنيع ، فى تأصيل مسائل التفريع ، وكتاب اقتباس السراج ، فى شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، وكتاب نهج المسالك ، للفتحة فى مذهب مالك ، شرح فيه الموطأ فى عشرة أسفار .

وفيها تُوفي الفقيه النحوى القدوة علي بن محمد الحضرمى الاشبيلي المعروف بابن خروف ، أخذ عن أبى بكر بن صافى ، وأبى عبد الله بن المجاهد ، وأبى إسحاق بن ملكون ، وكان إماماً فى صناعة العربية مشاركاً فى علم الكلام وأصول الفقه ، وله شرح على كتاب سيبويه جليل الفائدة ، سماه تنقيح الالباب فى شرح غوامض الكتاب ، . عول فيه على طرر ابن طاهر شيخه ، وله شرح آخر

على كتاب الجمل للزجاجي ، وله كتاب في الفرائض ، وردَّ على أبي القاسم السهيلي وابن ملكون وابن مضا ، وعُني بالردَّ على أبي المعالي الجويني في كثير من تواليفه ، توفي بأشبيلية .

وفيها توفي الشيخ الشريف الفقيه القاضي العالم المتصوف المجاهد محمد بن طاهر الحسيني من ولد الحسين بن علي رضي الله عنه ، ومن أهل مدينة فاس ، وبها عَقِبَه إلى اليوم ، ويعرف بابن الصيقل ، روا عن ابن جبير وابن الرمانة ، وكان أوحد عصره فصاحة ومشاركة في جميع العلوم الدينية والدنيوية ، عالماً بالأصليين : أصول الدين وأصول الفقه ، ومسائل الخلاف ، ولي قضاء الجماعة للمنصور ، وكان عادلاً فاضلاً ورعاً لم يُعرف له في أحكامه ميل ، ولا يقبل هدية من أحد من حين ولي القضاء إلى أن مات ، وكان قبل أن يلي القضاء ينتحل طريقة الوعظ والتصوف والتدريس ، واتصل بالمنصور سنة سبع وثمانين وخمسمئة ، فحظي عنده ، وكانت له عنده منزلة عظيمة ، نُقِلَ عنه أنه قال وصل إليَّ من صلات أمير المؤمنين المنصور منذ عرفته إلى أن مات تسعة عشر ألف دون الخلع والمراكب والاقطاع ، ولي قضاء الجماعة ، ولم يزل قاضياً إلى أن مات بأشبيلية بعد رجوعه من غزاة العقاب ، وكان أحد الأجواد الكرماء ، مدحه جماعة من الفقهاء والأدباء ، فمِثَّن مدحه من فقهاء الأندلس وأعلامها القاضي محمد بن نوح الغافقي قاضي بلنسية امتدحه بقصيدة أولها :

| | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| تخيرت فانهض في رضا الله واصعد | وحل على التوفيق ما شئت واعقد |
| حبانا فأحياناً بماضي عزمه | على الحق منصور عليه مؤيد |
| بأورع من آل الحسين خلاله | متى تتلَّ كانت من سناء وسؤدد |
| فلو لم تكن تلك الأرومة أصله | أتته سجاياه بأفضل محتد |
| هو الفرع في أعلا السماء مظلالا | قاررتُه بيت النبي محمد |
| فيالك من فخرين ذاتي وسالف | إذا لم يكونا لأمري لم يُمجَّد |
| مضا أمسه المحمود واليوم بعده | كريمين لكن يقصران عن الغد |
| مآثر راقته في سماع ومنظمر | ترا أبدأ منه تعود وتبتدى |
| رآه أمير المؤمنين ولم يكن | لينظر إلا عن بصيرة مهتدى |
| فالقا إليه بالتى لا تؤوده | وإن وجدت عباً على كل أيَّد |

السنة العاشرة وستمئة

فيها توفي أمير المؤمنين الناصر الموحد براكش ، وولي الملك بعده ولده يوسف المستنصر ، وفيها دخل بنو مرين المغرب ، أقبلوا إليه من بلادهم في أمم كثيرة ، وفيها كان الوباء بالمغرب والأندلس ، وفيها ملك العدو النصراني مدينة أبدة من بلاد الأندلس عنوة بالسيف فلم ينبج منها أحد من الرجال وسبب النساء والذرية ، وكان الحادث بها عظيماً .

السنة الحادية عشرة وستمئة

فيها ملك العدو دمره الله إفراغه من بلاد شرق الأندلس صلحاً بعد الحصار الشديد حتى أكل أهلها الجيف .

سنة اثنتي عشرة وستمئة

وفي سنة اثنتي عشرة وستمئة ملك العدو مدينة تطيلة من شرق الأندلس ، وفيها ضعف ملك الموحدين فلم يقدرُوا على مدافعة الروم ولا موافقتهم .

وفيها توفي الفقيه القاضي أحمد بن بنى قاضي الناصر ، وفيها توفي القاضي محمد بن مروان .

سنة ثلاث عشرة وستمئة

وفي سنة ثلاث عشرة وستمئة التقى عبد الحق وبنو مرين بجيش الموحدين ، وكانت بينهم حروب شديدة نصر فيها بنو مرين فهزموا الموحدين وقتل منهم خلق كثير بفحص الدار من أحواز رباط تازة وهو عام المشعلة .

وفي سنة ثلاث عشرة وستمئة المتقدم ذكرها توفي الشيخ موسى بن وكادير الدكالي (6) وقد نيّف على المئة سنة .

وفيهما توفي الشيخ الصالح الفاضل الحسين بن أحمد بن يوسف بن فتوح الأنصاري البلي المقرئ الضرير المعروف بابن زلال في آخر المحرم منها .

وفيهما في آخر ربيع منها توفي الفقيه القاضي العالم الأديب عمر بن عبد الله بن عمر البلنسي باشبيلية .

سنة أربع عشرة وستمئة

وفي سنة أربع عشرة وستمئة هزم المسلمون بقصر أبي دانس من بلاد غرب الأندلس ، واستشهد في هاذة الكائنة من المسلمين ما يزيد على ستة عشر ألفاً .

وفيهما كانت الملاقاة بين بني مرين وعرب رياح فقتل الأمير عبد الحق بن محيو وولده إدريس ، وهزمت رياح واستأصلتها مرين بالسيف ، وفيها بايع بنو مرين الأمير عثمان بن عبد الحق وقدموه على أنفسهم للقيام بأمرهم .

وفيهما توفي الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب صاحب مصر ، مولده سنة تسع وثلاثين وخمسمئة ، وكان ملكه من بلاد الكرخ إلى همدان والجزيرة والشام والحجاز ومصر واليمن إلى النوبة إلى حضرموت ، وكان رحمه الله قائماً بملكه حسن التدبير والسياسة حليماً عادلاً مجاهداً دينياً عفيفاً كثير الصدقات آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، طهر جميع بلاده من الفساد والخمر والخواطىء والمخنثين والقمار ، وأزال المكس والمظالم ، وكان الحاصل من هاذة الألقاب بدمشق خاصة مئة ألف دينار في السنة ، فأزال ذلك كله ابتغاء وجه الله تعالى ، وكان رحمه الله إذا مرض أو توشوش عليه بلد من بلاده باع ثيابه وفرسه وتصدق به ، وولي بعده ولده الملك المعظم .

وفيهما توفي القاضي محمد بن نوح الغافقي قاضي بلنسية ، وكان من أهل الفضل والعلم والورع والمعرفة باللغة والآداب ، وله شعر رائق في فنون شتاً .

وفي سنة أربع عشرة وستمئة توفي المولا يحيى بن أبى بكر بن محمد بن مع الله يوم الثلاثاء الثالث عشر من شعبان بمراكش ، ولما حضرته الوفاة مدَّ يديه ورجليه وقرأ (إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) ثم تبسم وقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، ومات رحمه الله .

وفيهما توفي الفقيه الواعظ محمد بن أحمد اللخمي المعروف بابن اللجام ، كان حسن الموعظة دائم العبرة إذا تكلم أثر ، وهو القائل رحمه الله

| | |
|----------------------------|-------------------------|
| غريب الوصف ذو علم غريب | عليل القلب من حب الحبيب |
| إذا ما الليل أظلم قام يبكى | ويشكو ما يكن من الوجيب |
| يقطع ليله ذكراً وفكراً | وينطق فيه بالعجب العجيب |
| به من حب سيده غرام | يحل عن التطيب والطيب |
| ومن يك هاكذا عبداً محبباً | يطيب ترابه من غير طيب |

سنة خمس عشرة وستمئة

وفي سنة خمس عشرة وستمئة دخل الفتنش ملك قشتيلة قصر أبى دانس بالسيف .

وفيهما توفي الفقيه المحدث الصالح الورع محمد ابن الفقيه الحافظ العالم المشاور يحيى ابن علي بن طويل بن أحمد بن طويل بن عبد الله بن محمد بن علي القيسي ، ويعرف بابن بيضاء ، نسب إلى جدته البيضاء بنت عمر بن إدريس الحسنى ، وكان من أهل مدينة فاس ومن جلة أعيانها وأشرف بيتاتها ، من بيت علم وديانة ، وعفاف وصيانة ، يروى عن أبيه وعمه وجماعة من فقهاء فاس وغيرهم .

وفيهما توفي الفقيه العالم المحدث يوسف بن علي بن عبد الرحمان بن محمد بن تميم بن تميم من أهل فاس يكنى أبا الحجاج ، الأصولي الجليل ، أخذ عن القاضي أبى جعفر ابن مضا وجماعة ببلده ، وأجازة ابن بشكوال وأجاز له عبد الحق الأزدي ، وقرأ علم الكلام وأصول الفقه على الأصولي الزاهد محمد بن عبد الكريم الفندلاوى الفاسى المعروف بابن الكتانى وصحبه إلى أن مات ، وقعد بالعدوة للأقراء ، فكان له صيت عظيم بالمغرب وبمراكش وبالأندلس ،

أقرأ باشبيلية ورجع الى فاس سنة ثلاثة عشر وستمئة ، وجلس للأقراء بعد عودته من الأندلس بشرق جامع الأندلس وجامع القرويين إلى أن توفي في الثاني عشر من رجب من سنة خمس عشرة المذكورة ، ومولده عام اربعة وخمسين وخمسمئة ، وكان من الفقهاء الأذكياء النباه مع سرعة الفهم والحفظ والتفطن في العلوم .، أديباً عارفاً بالمغازي والسِّيَر ذاكراً للتاريخ وإمام الناس رحمه الله ونفع به .

وفي سنة خمس عشرة وستمئة توفي الشيخ الصالح عثمان بن منقباد السَّجِلْمَاسِي (7) وكان يواصل صومَ خمسة عشر يوماً وهو القائل :

| | |
|----------------------------|-----------------------------|
| طيبٌ بذكر الله فـاك لأنه | لأجل ما فاهت به الأنـواه |
| طفنت مصابيح العقول فكـثـنا | يُنمسي ويُصبح في ظلام هـواه |
| كم مدعٍ علماً لو استخبرته | لوجدت أكثر علمه دعوـاه |
| ما للفتا لا يرعوى وصباحه | ومساؤه يعظانه بسـواه |
| تلقاه تياهاً على من دونـه | ولسوف يُعطشه السـدى أرواه |

وفي خامس من ربيع الأول منها توفي الشيخ الزاهد أبو العباس أحمد بن محمد اللخمي المعروف بالراس بمدينة الإسكندرية .

وفيها توفي خطيب القرويين وإمامه قاسم بن عمر القضاعي .

وفي تاسع وعشرين من ذي قعدة من السنة المذكورة وُلد الفقيه الصالح محمد بن يوسف بن محمد بن إبراهيم بن محمد الخزرجي المكناسي المعروف بابن الصباغ .

السنة السادسة عشرة وستمئة

فيها استولوا التطار على مدينة بخارا من بلاد خراسان ، وهي كانت قُبَّةَ الاسلام ومجمعَ الأنام ، ودخلت عنوة بالسيف ، فيقال إنه استشهد يوم دخولها أحد عشر ألف مدرس مفت .

وفي أول يوم من المحرم منها شرع الملك المعظم ابن الملك العادل

محمد بن أيوب بن سادى بن مروان صاحب الشام ومصر فى هدم سور بيت المقدس وتخريبه وإخلائه خوفاً عليه من الفرنج أن يملكوه ويقتلوا أهله ويحكموا منه على بلاد الاسلام فوقع فى البلد ضجة عظيمة ، وخرج النساء المخدرات والبنات والشيوخ والعجائز والصبيان إلى المسجد الأقصى والصخرة فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم حتى امتلأت الصخرة 'ومحارب' الأقصى من شعورهم ، وخرج الناس هاربين من المدينة وتركوا أموالهم وما شكتوا أن الفرنج تصفحهم ، فامتلات بهم الطرقات ، فصار بعضهم إلى مصر ، وبعضهم إلى دمشق ، وبعضهم إلى الكرد ، فكان النساء والبنات يمزقن ثيابهن ويلفنن بهن أرجلهن من الحفا ، ومات من الناس خلق كثير من الجوع والعطش ونهبت أموالهم .

وفىها دخل الفرنج دمياط من بلاد مصر بعد الحصار الشديد حتى أكل أهلها الميتة فطلبوا الأمان فأمّنوهم فلما فتحوا لهم الأبواب غدروا بهم فوضعوا بهم السيف قتلاً وأسراً ، وباتوا تلك الليلة يتفرحون بالنساء ويفضحون البنات ، وأخذوا المنبر والمصاحف ورؤوس القتلا وبعثوا بها إلى بلادهم وجعلوا الجامع كنيسة .

وفى رجب منها توفي الامام المالكي الكبير الشهير بالتصانيف البديعة عبد الله بن نجم بن شاس صاحب الجواهر الثمينة ، فى مذهب عالم المدينة ، توفي غازیاً بشعر دمياط ، ولأبى بكر محمد بن جابر السقطى فى كتاب الجواهر .

| | |
|----------------------------|----------------------------|
| أياطالاً تحصيل مذهب مالك | ليسلم من تمويه أهل الظواهر |
| عليك بمجموع ابن شاس تجد به | حقائق تبدو كالنجوم الزواهر |
| يزين نحور المالكيين سلكها | فله من سماء عقد الجواهر |

السنة السابعة عشرة وستمئة

فىها ملك الأمير عثمان بن عبد الحق أكثر بوادى المغرب وأخرج عليها حفاظه .

وفيها ابتدأت المجاعة والغلاء والقحط وكثرت القتل وعم الجراد جميع بلاد المغرب والأندلس .

وفيها بني برج الذهب بوادي إشبيلية خوفاً من العدو لئلا يفجأهم من الوادي .

وفيها فتح البات بجوامع القرويين من فاس ، وهو الباب الذي في وسط الوراقين ، وبُنيت القبة المقربة بالجص أمامه .

وفيها تُوفي الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين أبي سعيد عمر بن نور الدين بن أيوب صاحب حماة .

وفيها غرس شجرة جزيرة سقطرة التي يجلب منها الصَّبِر السقطري .

وفيها عبرت التطر نهر جيحان من بلاد عراق العجم ، فانتشروا في بلاد الاسلام ودخلوا مدينة سمرقند فقتلوا جميع رجالها وسبوا النساء والذرية ثم صاروا إلى مدينة خوارزم وحصروها ، وكان الملك خوارزم شاه قد أخلا البلاد من جهته والجيوش ، فلم يجدوا من يصدُّهم ولا من يقف في وجوهم ، فسار التطر حتى وصلوا إلى مدينة الري وقزوين وهمدان فدخلوا ذلك كله بالسيف وقتلوا أهلها وحرقوا مساجدها وسبوا حرمها وأموالها ، ثم توجهوا إلى بلاد أذربيجان فدخلوها أيضاً بالسيف وفعلوا فيها فعلهم بهمدان وغيرهم .

وفيها تُوفي الفقيه الصالح الأستاذ المقرئ العارف المحقق يعيش بن علي بن مسعود بن يعيش بن القديم الأنصاري ثم الشلبي (8) عن الامام الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد بن أحمد السفلي الأصبهاني في ذي القعدة منها فدفن بباب الجيزيين من فاس .

وفيها تُوفي الشيخ الصالح الزاهد المبارك أبو عثمان الوريّاكلى نفع الله به ، ودفن بخارج باب الفتوح من أبواب فاس .

(8) وقع ولا شك خلط في هذه الترجمة كما يدل على ذلك الاضطراب الحاصل فيها .
تراجع ترجمة يعيش الشلبي في جلوة الاقتباس ص 355 .

وفيهما تُوفي الفقيه العالم الورع أحمد بن بكار القيسي قاضي فاس
ومن أعيانها وبيتاتها .

السنة الثامنة عشرة وستمئة

فيها ولي موسا بن عبد الصمد على فاس ومكناسة والرباط ، وكان
جواداً سائساً ، فصالح بنى مريم على أعماله بعشرة آلاف دينار في السنة
فصلح أمر بلاده .

وفيهما جدد سور إشبيلية وبُني الحرم البراني وصنع حوله الحفير
الدائر به على يد السيد أبي العلاء ابن يوسف ابن عبد المومن الذي بنا
برج الذهب .

وفيهما استرجعت مدينة دمياط من أيدي الروم نزل عليها لاستنقاذها
ثلاثة ملوك من ملوك الاسلام ، وهم الملك الكامل ، والأشرف ، والمعظم ،
وقاتلوها حتى فتحوها صلحاً .

وفي غرة المحرم تُوفي عامل إفريقية عبد الواحد بن أبي حفص .
وفيه سيقنت الزرافة إلى مراكش .

السنة التاسعة عشرة وستمئة

وفي السنة التاسعة عشرة وستمئة نزل النصارا على جزيرة ميورقة
وذلك يوم الخميس الخامس عشر من ذي الحجة من السنة نزلوها بما يزيد
على الثلاثمئة جفن .

وفي نصف رجب منها تُوفي الملك المفضل قطب الدين أحمد ابن
الملك العادل والسلطان الفاضل سيف الدين أبي بكر بن أيوب .

سنة عشرين وستمئة

وفي سنة عشرين وستمئة تُوفي أمير المومنين يوسف المستنصر

بالله الموحد صاحب المغرب فقصده من حضرة مراکش ، وولي بعده عم أبيه عبد الواحد بن يوسف بن عبد المومن ، وهو المخلوع منهم ولي في وفاة المستنصر .

وفيها توفي الفقيه العالم الورع الفاضل علي بن حسن الصديني من أهل فاس (9) كان فقيهاً حافظاً للحديث عالماً بالأصلين (10) أعوام وأجلّ المسلمين في إخلاء البلد عشرين يوماً ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، فأخبرني مَنْ شاهد هذا الحصار أن الذرّة كانت تُباع بها حَبّاً عشر أواق بدرهم ، والشعير ثمان أواق بدرهم ، ولم ينقطع فيها شراء الأملاك الأصول إلا قبل الحادث ببسبر ، ولما أخذه المسلمون في الخروج منها بيع الدقيق فيها أحد عشر رطلا بدرهم .

وفى يوم الجمعة السادس عشر من رمضان دخل الأمير أبو جميل ابن مردنيش مرسية عن رضا من أهلها ، وخطب بها للأمير أبي زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص ، وقبض على عزيز بن خطاب وقتله ليلة الثلاثاء الموفى عشر من رمضان المذكور وانتظمت بلاد شرق الأندلس كلّها في طاعة الأمير أبي زكرياء من شقر إلى يسن .

وفيها توفي الملك الكامل صاحب مصر والشام ، وهو محمد بن أبي بكر بن أيوب ، وهو أكبر أولاد العادل وولي بعده ولده الجواد .

وفيها بايع محمد بن يوسف بن نصر الرشيد وكان يخطب له على منابر طاعته ، ويكتب اسمه في كتبه وسكته ، ففنع منه بذلك وبقي على هاذة الحالة إلى سنة أربعين حين توفي الرشيد .

(9) تنظر ترجمته في جُلوة الالتباس ص 298 .

(10) ورد في النسخة الخطية التونسية بعد كلمة الأصلين ما يل : وهاعنا ايضاً فصحة (كذا) بين الكلام والكلام لفرد الكتب وطول الزمان ، ثم رجع للخبر هنا .

ويلاحظ أن المدة التي شملها هاذو البتر تبلغ 17 سنة لأن الكلام ينتقل من سنة 620 إلى سنة 637 أو التي قبلها .

وفيها ولاء الرشيد على سببة أبا علي بن خلاص فكانت سيرته حسنة ، وكان ابن هود ولاء بغرناطة عتبة بن يحيى المغيلي ، فكان يأمر الخطيب أن يذكر ابن الأحمر بالمساوى ويسبّه ، ونفا منها قطبها العالم العلم سهل بن مالك وأخرجه عنها إلى مرسية أولا فسجنه بها فأغلظ أمره بها أهل غرناطة ، فانتدب جماعة من أشرافها في نحو مئة رجل من أنجادهما وأصبحوا إلى باب القسبة ، وذلك أول يوم من رمضان وسيوفهم مشهورة ، ودخلوا القسبة والقصر وفرّ عاملها البغيل من بنى هود ، وقتل عتبة بن يحيى واليها ، وبعثوا إلى ابن الأحمر وبأيعوه وخلعوا ابن هود ، وبعثوا بيعتهم في آخر رمضان المذكور ، فجاءهم ابن الأحمر ونزل بخارج غرناطة ودخلها غروب الشمس من يوم نزوله ، فدخل البلد والمؤذنون يؤذنون بالمغرب ، فنزل بجامع القسبة ، وكان إمام الجامع أبو المجد المرادى قد غاب تلك الليلة فدفع الأشياخ ابن الأحمر للمحراب فصلا بهم وهو على حياة سفره بشاية مضلعة أكتافها مقطعة فقرا في الأولا بفاتحة الكتاب وإذا جاء نصر الله والفتح ، وفي الثانية بأمر القرآن ، وقل هو الله أحد ، وهو بسيفه متقلد ، فلما فرغ من الصلاة خرج إلى قصر باديس والشمع يتقد بين الأبواب فدخل في خاصته .

وفيها سار ابن الأحمر إلى ألمرية برسم قتل ابن الرميى القاتل لابن هود والقائم بها ، فسار حتى نزل عليه بالمدينة وحاصره بها مدة ، فلما اشتد بها الحصار على ابن الزميى ركب البحر في مركب بأهله وعياله وأمواله ، وسار إلى تونس فأقام بها تحت كنف الأمير أبى يحيى وملك ابن الأحمر ألمرية .

السنة السابعة والثلاثون وستمئة

فيها ملك العدو مدينة اللسينة صلحا .

وفيها في نصف جمادى الأولا منها خرج زيان بن مردنيش من مرسية فارا بنفسه إلى اللش لما استشعر الفدر من أهلها والميل إلى أبناء الدولة ابن هود فلما خرج منها ابن مردنيش أقبل إليها ابن هود فدخلها بمحاولة ابن عاصم صاحب الأريولة .

السنة الثامنة والثلاثون وستمئة

فيها قدم ملك التطر إلى مدينة ميافارقين وكتب إلى ملوك الاسلام يأمرهم بالدخول في طاعته ، وكان عنوان الكتاب : من نائب رب السماوات ماسح وجه الأرض ، ملك المشرق والمغرب ، قاقان إلى ملوك الاسلام ، وبدأ بشهاب الدين ملك ميافارقين ، وقال له : إني آمرك أن تهدأ أسوار مدينتك وجميع بلادك فقال له شهاب الدين : أنا من جملة الملوك وبلادي حقيرة بالنسبة إلى بلاد العراق وبلاد أرمينية والشام ومصر ، فما فعلوا فعلتـه ، وكان القادم بالكتاب شيخاً مسلماً لطيف الشمائل من أهل أصبهان حكاً لشهاب الدين عجائب منها انه قال بالقرب من بلاد قاقان التطرى قريباً من بلاد ياجوج وماجوج على البحر المحيط أقوام ليس لهم رؤوس وأعينهم في مناكبهم وأفواههم في صدورهم ، وإذا رأوا الناس هربوا منهم ، وعيشهم من السمك ، ومنها أن هنالك طائفة تزرع في الأرض بذوراً فيولد منها غنم كما تلد دود الحرير ولا يعيش الحروف منها أكثر من ثلاثة أشهر أو شهرين مثل بقاء النبات في الأرض ، وهاذة الغنم في التناسل ومنها عين من ماء يطلع منها كل سنة ست وثلاثون خشبة غلاظ عظام ، كل خشبة منها مثل المنارة العظيمة ، فتقيم طول النهار فإذا غربت الشمس غاصت في العين ، فلا تـُرا إلا في السنة القابلة في مثل ذلك اليوم ، وقيل إن بعض ملوك العجم جاء بنفسه إليها في يوم ظهورها فربطها بسلاسل وحلق عظام إلى أساطين حولها واستوثق منها ، فلما جاء وقت الغروب قُطعت السلاسل وغاصت في العين فهي الآن تطلع والسلاسل في وسطها .

وفيها لجأ الملك الصالح الجواد إلى الملك الصالح صاحب مصر .
وفي أول محرم منها توفي الأمير عثمان بن عبد الحق أمير بنى مرين ، اغتاله عليـه ليلاً بوادي رداد ، فولى مكانه إمارة بنى مرين أخوه أبو معرف محمد بن عبد الحق رحمهم الله وغفر لنا ولهم بمنـته .

الباب الرابع

فى ذكر الأمير أبى معرف محمد بن عبد الحق وسيره

هو الأمير أبو معرف محمد بن عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة بن محمد بن وزير الزناتى المرىنى الحماى ، أمه حرة إسمها النوار بنت تصليت الونجاسنى وهو شقيق عثمان .

لما توفى أخوه عثمان اجتمع أشياخ مرىن إلى أخيه محمد بن عبد الحق وبايعوه عن القيام بأمرهم والسمع والطاعة له على أن يحاربوا مَنْ حارب ويسالموا مَنْ سالم ، فاستقام له أمرهم وسار فيهم بسيرة أخيه واهتدا بهديّيه وفتح كثيراً من جبال المغرب وقلاعه المنيعه ، وكان بطلاً شجاعاً شهماً كثير الفارات على أعدائه حسن السياسة والتدبير والمدارة ، ولم يفتر فى أيامه عن قتال ، ولم يزل طولها مرتكباً للحروب والأهوال ، وكان مع ذلك عارفاً بمكائيد الحروب وخدعها ، سائساً للرعية قاهراً لبِدْعها ، صاحب حزم وحذر كما قال فى أرجوزته صاحب نظم الدرر :

| | |
|-----------------------|------------------------|
| ثم تولاّ بعده محمد | وكان فى أموره مُسدّد |
| وكان لا يفتر عن قتال | مواظباً للحرب والنزال |
| كم عسكر لاقا وكم حشود | ومن جوع جئة الجنود |
| وكل جيش جاء من مراكش | أفناه بالحروب والتناوش |
| نهاره وليله طعان | لكنّه مؤيد معان |

وكان الأمير محمد بن عبد الحق مبارك الامارة ميمون النقيية ذا عقل وفهم وصدق ووفاء وكرم عجيب ورأى سديد ، إذا وعد وفا ، وإذا قال فعل ، وإذا أعطأ أغنا ، وإذا صال أفنا ، وإذا وجد الفرصة انتهزها ، وإذا رأى القوة حاد عنها ودار عنها حيطة على قومه ، ولم يزل يحارب جيوش الموحدين فيرجعوا عنه خاسرين .

وفي سنة ثمان وثلاثين وستمئة المذكورة وفدَ على الأمير محمد بن عبد الحق جرمون بن رياح العربي السُفْيَانِي فِي جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ مُخَالِفًا عَلَى الرَّشِيدِ، فَمُتْلَقًا الْأَمِيرَ مُحَمَّدَ بِالْبَيْرِ وَأَقَامَ عِنْدَهُ إِلَى أَنْ تُوُفِيَ فِي ذِي الْحِجَّةِ مِنَ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ .

وفيها وُلِدَ الْأَمِيرَ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ يَعْقُوبَ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ .

وفيها نَزَلَ الْأَمِيرُ أَبُو مَعْرُوفٍ مَدِينَةَ مَكْنَسَةَ فَأَقَامَ عَلَيْهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَارْتَحَلَ عَنْهَا إِلَى سَلْفَاتٍ ، فَاتَّصَلَ الْخَبِيرُ بِالرَّشِيدِ فَبَعَثَ إِلَى حِمَايَتِهَا أَبَا مُحَمَّدٍ بْنِ وَانُودِينَ وَأَخَاهُ يَوْسُفَ وَالْقَائِدَ أَبَا ضَرْبَةَ النَّصْرَانِي فِي جَيْشٍ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ وَالرُّومِ ، فَوَصَلُوا إِلَى مَكْنَسَةَ فَأَفْنَوْهَا بِالْمَغَارِمِ الثَّقِيلَةِ ، وَأَفْقَرُوا أَهْلَهَا ، ثُمَّ خَرَجَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ وَانُودِينَ بِعَسْكَرِهِ ، فَالْتَقَا بِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْحَقِّ وَهُوَ فِي نَحْوِ خَمْسِينَ فَارَسًا مِنْ قَوْمِهِ وَإِخْوَتِهِ وَعَشِيرَتِهِ ، فَهَزَمَ ابْنُ وَانُودِينَ وَقَتِلَ أَبُو ضَرْبَةَ النَّصْرَانِي ، قَتَلَهُ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ بَعْدَ أَنْ ضَرَبَهُ الْقَائِدُ ضَرْبَةً شَقًّا بِهَا مَقْدَمَ رَأْسِهِ وَجَبْهَتَهُ ، وَقَتِلَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ وَالرُّومِ مَا يُزِيدُ عَلَى مِثْلِ رَجُلٍ ، فَرَجَعَ ابْنُ وَانُودِينَ إِلَى مَكْنَسَةَ مَهْزُومًا ، فَأَخْرَجَهُ أَهْلُهَا مِنْهَا وَرَجَعَ إِلَى مَرَكَشَ فَقَتَلَهُ الرَّشِيدُ .

السنة التاسعة والثلاثون وستمئة

فيها بعث الرشيد جيشًا من الموحدين والعرب والروم إلى قتال بني مرين فالتقا بهم الأمير محمد بن عبد الحق ببلد كرت فهزمهم هزيمة شنعاء واحتوت مرين على ما كان في عسكرهم من الأموال والخيول والرجال والسلاح .

وفيها سار أشياخ مرسية إلى الفتنش فثَقَّفَهُمْ .

وفيها انفسد جميع الرئيس أبي إسحاق بن اشقيلولة ومات أخوه

الطريجل .

السنة الموفية أربعين وستمئة

فيها في يوم الخميس التاسع لجمادا الآخرة منها توفي أمير المؤمنين عبد الواحد الرشيد وولي مكانه أخوه أبو الحسن السعيد .

وفيها نزل الأمير يحيى بن أبى حفص صاحب إفريقية مدينة تلمسان على يغمراسن بن زيان ، وكان في عسكر الأمير يحيى المذكور أربعة وعشرون بن زيان ، وكان في عسكر الأمير يحيى بن أبى حفص المذكور أربعة وعشرون ألفاً من الرماة فدخلها عليه عنوة على باب ايلان يوم نزوله عليها وذلك فسى شهر صفر من السنة المذكورة ، وفرّ يغمراسن ومن كان معه من قومه عنها إلى المدينة ، فأقام القتل والنهب فيها يوماً وليلة ، ثم نادا منادى الأمير يحيى بالأمان ، وأقام الأمير يحيى أياماً حتى هدنها وسكنها ، فلما أراد الرجوع إلى إفريقية عرض ولايتها على من في عسكره من أشياخ الموحدين فكلهم رغب عنها وامتنع منها ، فلما رآ ذلك قال لهم إنما امتنعتم من ولايتها خوفاً من شيطانها وليس لها غيره ، فبعث إلى يغمراسن فأمنه فأثاء فبايعه فسجل له على تلمسان وأحوازها .

وفيها ملك العدو النصراني مدينة دانية وثقنت الكبرا وشتنبور واللس والاريولة وقرطاجنة من بلاد شرق الأندلس .

وفيها قام ابن خلاص بسببة بعد موت الرشيد الذي كان ولاء عليها واستبد بها لنفسه ثم خطب بها بنفسه للأمير يحيى الحفصى صاحب إفريقية .

وفيها ملك العدو حصن مرينة ومنتملين وقرناس والحنس وشتنبول من الأندلس .

وفيها توفي الامام الخليفة أبو جعفر منصور المستنصر بالله بسن محمد الظاهر بالله العباسى ببغداد ، وكان رحمه الله سمحاً جواداً عادلاً قريباً من الناس رحيم القلب كثير الصدقة سراً وجهراً ، وهو الذى بنا المدرسة الشاطبية ببغداد ، ووقفها على المذاهب الأربعة ووقف عليها الأرواف الكثيرة

ورتب فيها للفقهاء جميع ما يحتاجون إليه من الأغطية والأشربة والفواكه والحلاوات ، وجعل لهم فيها الحمامات والمرستبان ، ولم يكن عنده تعصب على مذهب وليس في الدنيا مثل هذه المدرسة ولا ينسب مثلها في الاسلام ، وبنا مع ذلك المشاهد والمساجد ، وعمر الخانات في الطرقات ، وكان يزور الصالحين ويזור المشاهد : مشهد علي رضي الله عنه ، ومشهد ولده الحسين ويحسن إلى العلويين .

وفيها ولي ولده عبد الله أمير المؤمنين المستعظم بالله .

السنة الحادية والأربعون وستمئة

فيها تقض أمير المؤمنين السعيد جامع حسان الذي يرباط الفتح وصنع بخشبه الأبقان الغزوانية فكانت مباركة فأحرقت بوادي ازموار .

وفيها توفي الفقيه القاضي الورع علي بن محمد بن أبي عشرة من أهل فاس ، ولي قضاء بلنسية سنة سبع عشرة وستمئة ، ثم نقل منها إلى قضاء جيان ثم جاز إلى العدو فاستوطن فاس إلى أن مات فدفن بخارج باب الشريعة .

السنة الثانية والأربعون وستمئة

فيها قوي أمر الأمير أبي معروف محمد بن عبد الحق وثمكن ملكه بالمغرب ، فأخبر أمير المؤمنين السعيد بقوة سلطانه ، وأعلم أنه قد استحوذ على جميع بوادي المغرب ، وأنه زحف إلى المدن ، وإن جميع القبائل دخلت تحت طاعته خوفاً من شدة بأسه ، فبعث إليه بجيش كبير جرار يزيد على عشر آلاف فارس من أنجاد الموحدين والعرب والغز والروم ، فسار الجيش قاصداً لقتاله ، فسمع الأمير محمد بأقبال الجيش ، فاستعد للقائه ، فالتقا الجمعان بموضع من أخواز فاس يعرف باغلاق فكانت بينهما حروب عظيمة لم يسمع مثلها من أول النهار إلى آخره ، فلما كان عشي النهار دفع القائد ابن القمط النصراني بجميع من معه من الروم على جيش بنى مرين فحمل فيهم

الأمير محمد طالباً للظفر أو للشهادة ، فضربه نصراني من زعماء الروم اسمه جوان غيطان بحربة كانت بيده فمات في المعترك رحمه الله ، وانهزمت مرين واشتد الظلام فاتخذوا الليل جملاً فأسروا طول ليلتهم بأموالهم ورجالهم وعبائهم فأصبحوا بجمال غنيمة فتمنّوا بها أياماً ، وانصرف جيش الموحدين إلى مراکش ، وكان موت الأمير محمد عشية يوم الخميس التاسع من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، فولي بعده أخوه أبو بكر بن عبد الحق .

وفي هذه السنة ولد أمير المسلمين يوسف ابن أمير المسلمين المجاهد يعقوب بن عبد الحق .

وفيهما توفي الشيخ الولي الصالح المبارك أبو عمران الجنيارى من أهل فاس وأحد رجال المغرب ، وأيوب بن يكنول والد الفقيه الخطيب محمد بن أبي الصبر ، وتوفي كلا هاذين الشيخين وهما ابنا مئة سنة وثلاث سنين ، وكلاهما أدرك الشيخ أبا مدين وسمع منه وأخذ عنه .

وفيهما تحرك ، قاقان ملك التطر نحو العراق فملك مدينة الباب والأبواب وقتل فيها خلقاً لا يحصا لهم عدد .

الباب الخامس

في ذكر الأمير أبي بكر بن عبد الحق رحمه الله تعالى

هو الأمير أبو بكر بن عبد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة بن محمد بن وزير بن بجوس بن جرماط بن مرين الزناتي ثم المريني الحمامي ، كنيته أبو يحيى ، أمه حرة اسمها عزونث بنت أبي بكر بن حفص التنافتي .

مولده في سنة ثلاث وستمئة .

صفته رحمه الله : أبيض اللون مُشرب حمرة تام القد بسيط الجسم حسن الوجه والعينين أجلح الرأس مطلق اليدين أيسر أعسر يقاتل بكلتا يديه ويطعن بحربتين في حالة واحدة ، فارس زناتة في وقته وزمانه ، كان بطلا شجاعاً مؤيداً منصوراً ذا عزم وحزم وإقدام ، يقوم في الحرب مقام جنده . وكانت الأبطال تهاب مبارزته والزعماء يخافون محاربتة ومناجزته . وكان مع ذلك كريم الأخلاق ، جواداً كالغمام ، عطاياء تعجز عنها الملوك العظام ، وافيّاً بالعهود صادقاً في الأقوال والوعود ، كريم العفو شديد الصفح ، ذا أناة وحلم وحسن أخلاق وكرم طباع وهو كما قيل فيه :

| | |
|---------------------------|-------------------------|
| فاق ملوك الأرض في الزعامه | وبالوفا والصدق والكرامه |
| يستوهب الدعا من العباد | ويكرم الصلحا والزهاد |
| ويسرد الصوم على الدوام | مبتهلا للواحد السلام |

قال صاحب التاريخ :

لما قتل الأمير محمد بن عبد الحق اجتمعت قبائل مرين وأشياخها إلى أخيه الأمير أبي بكر بن عبد الحق وبايعوه على السمع والطاعة وقتال من خالفهم من قبائل العرب ، فلما تمت بيعته واستقرت في الملك طلعت له ، كان أول شيء فعله أنه جمع أشياخ بني مرين ورؤساء قبائلهم وقسم عليهم

بلاد المغرب ، فانزل كل قبيلة فى ناحية منه ، وجعل لها ما نزلت فيه من الأرض وغلبت عليه من البلاد طئعة لا يشاركهم فيها غيرهم ، وأمر كل واحد من أشياخ القبائل أن يُركب مَن فى قبيلته من الرجال ويستكثر من الفرسان ، ثم سار هو وقرايته وإخوته وحشمه وعبيده وأعوانه فنزل بين بلد سلفات وجبل زرهون ، وكان يُغير أحياناً على مدينة مكناسة ، فاتصل خبره بالسعيد فعمِل على الحركة للمغرب لينظر فى أمره ، فسار من حضرة مراكش حتى دخل مدينة فاس فوسعت بنو مرين أمامه إلى جبال ورغة ، وحين وصل السعيد إلى مدينة فاس أتاه جملة من قبائل بنى عسكر فبايعوه ، فأمنهم وأعطوه أربعين شخصاً من أبنائهم رهناً ، فجعلهم بدار الجوزة من مدينة فاس .

ثم أتاه يغمراسن بن زيان أمير بنى عبد الوادى من تلمسان فى ألف فارس من قومه ، فبايعه بفاس وخلع عليه السعيد وأعطاه أموالاً كثيرة وسلاحاً وخيلاً وأمره أن يخرج بقومه إلى قتال أبى بكر وقومه وأمره أن يستأصلهم ويقطع شأفتهم وأعطاهم ألف فارس من الموحدين وألفاً من الجند ، فخرج يغمراسن بن زيان بالجميع حتى وصل إلى وادى ورغة فلقى وادى ورغة حاملاً ، فأقاموا عليه حتى تقص ، فجازوه وساروا فى تبع الأمير أبى بكر حتى وصلوا إلى كرت ، ثم رجعوا ورجع يغمراسن لفاس ، فقيل له إنك مقدور ، فخرج هو وقومه على باب الفتوح وتبعه بنو عسكر حتى وصل إلى خولان ، فوقف هناك ولحق به بنو عسكر ، فقالوا له يا يغمراسن مراييننا الأربعون عند هذا الرجل ، فما رأيك فى هذا الشأن ؟ فقال لهم إن هذا الرجل عزم على غدرنا وغدركم ، ولكننا ننظر فى خلاص مرايينكم ، فساروا وجازوا وادى سبو ، فلقوا الأمير أبا بكر واقفاً مع قبائل مرين على ضفة الوادى عند صخرة أبى يياشر ، فأراد يغمراسن وبنو عسكر أن يقاتلوه ، ثم إنهم تفاوضوا فى ذلك وقالوا والله ما نضرب فيهم حتى يقتل واحد منهم عشرة منا ، فانصرف يغمراسن وبنو عسكر إلى جهة المقرمة ، فنزلوا قريباً منها ، فأخبر السعيد بذلك ، فقال لوزرائه : ابعثوا إلى يغمراسن يصل إلينا وهو آمن ، فقيل ليغمراسن إن وصلت إليه ثقك فامتنع من الرجوع إليه ، فبعث إليه السعيد القائد أبا المسك بالأجناد والروم ، فوصل إلى يغمراسن وهو بظاهر المقرمة ، فوقع

الكلام' بينه وبين أبي المسك في شأن تسريح مراهين بنى عسكر ، فامتنع من ذلك ، فردّ بنو عسكر أيديهم على السيوف فتقاتلوا معهم فقتل جميع الروم الذين كانوا مع القائد أبي المسك وأخذوا جميع ما القوه بالمحلة ، فلم يزل القوم مثقّفين عند بنى عسكر حتى أطلقوا لهم مراهينهم ، فأطلقوا أبا المسك ومن معه ، وذلك كله في شهر ذي الحجة من سنة اثنتين وأربعين وستمئة .

وفيهما دخلت مدينة قادس بالسيف فنهبوها وبقيت خالية فبناها القائد أبو عبد الله الرنداجي .

السنة الثالثة والأربعون وستمئة

في أول محرم سار السعيد من فاس إلى مراكش .

وفيهما انتقل الأمير أبو بكر بن عبد الحق حتى نزل بالقرب من مكناسة ، فكان يباكرها بالقتال والغارات ويرأوحها حتى ملكها بمحاولة شيخها علي بن أبي العافية ، فدخلها في شوال من السنة المذكورة ، فهو أول ملك من بنى مرين ملك البلاد ، واقتنا الطارف والتلاد ، وضرب الطبول ونشر البنود ، وجمع العساكر وجند الأجناد ، وأعطى على كل من حاد عن طاعته النصر والتمكين ، وكانت سنوه عنوان سعد مرين .

وقيل إن السعيد لما طالت إقامته بفاس اتصل به أن أهل مدينة أزموور أشاعوا عليه أنه قد مات فأحرقوا أجفانه التي كان صنعها من خشب جامع حسان ، فحلف أن يدخل أزموور بالسيف ، فارتحل نحوهم فكلّمه العلماء والصلحاء فيها فعفا عنهم وقالوا : كفر يمينك بأن تدخلها من باب والسيف في يدك مصلتاً ، وتخرج على باب آخر فدخلها ليلاً كذلك ، فلقى في طريقه سخان حمام فقتله ، وأخذ أهل أزموور بالمقارم الثقيلة حتى لم يُبقَ لهم شيئاً ، وارتحل إلى مراكش وساءت أحوال المغرب وانقطعت الطرقات .

فلما اشتد الأمر على أهل مكناسة خلعوا طاعة الموحدين وبايعوا بنى مرين ، فبعث علي بن أبي العافية وثلاثة من أشياخها إلى الأمير يعقوب بن عبد

الحق أخى الأمير أبى بكر فأدخلوه البلاد ومكنوه منها ، فبعث إلى أخيه أبى بكر من مجباها الثلث ، فقدم عليه ودخلها فانه كان كبيره وهو الأمير فى الوقت ، فقدم على ثلثه خديمه عبد الحق بن تاغلا وبقي الثلثان لأبى بكر .

وفى هاذه السنة فى شهر صفر منها سافرت الحرة الصالحة المباركة أم البمن بنت محلى فحجت بيت الله الحرام وجاورت بمكة والمدينة وقعدت ببلاد المشرق أربعة أعوام ورجعت إلى المغرب ، فوصلت إلى مدينة فاس فى شهر ربيع الآخر من سنة سبع وأربعين وستمئة ، فاقامت بالمغرب إلى أن توجهت ثانية للحج ، فخرجت فى محرم عام اثنين وخمسين وستمئة ، فدخلت إلى مكة وحجت ثانية ورجعت إلى مصر فتوفيت بها فى ربيع الآخر من سنة ثلاث وخمسين وستمئة ، وحضر وفاتها الحاج موسى اللماثى المعروف بأبى القاسم ، وهو الذى أخبر بموتها وكانت امرأة صالحة مقتصرة على أكل الحلال ولباسه وكانت مجابة الدعوة .

وفى آخر سنة ثلاث وأربعين وستمئة حين نازل ألفنش إشبيلية حدثت للأمير يعقوب بن عبد الحق عزيمة على الجواز إلى الجهاد ونصر الاسلام ، فشرع فيها قواه ، فلما سمع أخوه بذلك كتب إلى الوزير أبى علي بن خلاص صاحب سبته ألا يمكنه من الجواز ورغبه فى ثقافه معه ، فوصل الأمير يعقوب بن عبد الحق إلى قصر المجاز ، وهو على عزمه ، فاجتمع هنالك بالشيخ الولي الصالح يعقوب بن هارون فجلس معه على صخرة هنالك فمنعه من الجواز وقال له ما لك من هاذه العدوة زوال فى هاذا الوقت حتى تملك جميع بلاد المغرب وتفتح حضرة مراكش وتقطع ملك بنى عبد المومن ، وحينئذ تجوز إن شاء الله تعالا كما تحب ، وعلمك منشور ، وجيشك منصور ، فرجع عن عزمه .
وفىها كسفت الشمس كسوفاً شنيعاً .

وفىها قتل الأمير أبو بكر بن عبد الحق كثيراً من عرب رياح .

وفى رجب ركب الوزير أبو علي بن خلاص البحر من سبته فى مركب معد بعد أن جمع المنجمة ، فاخترأوا له طالعاً سعيداً يركب فيه البحر ،

فاعتمد على قولهم وركب البحر حين أمروه بالركوب ، فلم يصل به الغراب الميمون في البحر أميالا حتى غرق ومات جميع من كان فيه .

وفيها أعطا الأمير ابن الأحمر مدينة جيان وأرجونة وبركونة وبيغ والحجار وقلعة جابر وصالحه بذلك على ما بيده من البلاد لعشرين سنة ، وقيل كان ذلك في سنة أربع وأربعين .

وفيها توفي الشيخ الصالح الامام الحافظ العالم تقي الدين ابن الصلاح ، والشيخ عثمان بن عبد الرحمان ابن عثمان ، كان إماماً في الحديث والفقه ، واستوطن بيت المقدس ، ثم قدم دمشق لما خرب بيت المقدس ، فأم بدمشق ودرس بها وحدث ، وولاه الملك الأشرف دار الحديث ، وتوفي ليلة الأربعاء الخامس والعشرين لربيع الآخر من سنة ثلاث وأربعين وستمئة ، وصلي عليه بجامع دمشق ، ودفن بمقابر الصوفية ، سافر إلى البلاد ، فسمع بنيسابور من منصور بن عبد المنعم .

قال صاحب التاريخ :

وحين ملك الأمير أبو بكر مدينة مكناسة اتصل الخبر بالسعيد وقال :
ما أرا أمر بني مرين إلا في اعتلاء مزيد .

السنة الرابعة والأربعون وستمئة

فيها خرج أمير المؤمنين السعيد من مراكش إلى سجلماسة لما سمع أن عامله عليها عبد الله بن أبي زكرياء قام عليه بها فوصلها فهرب أمامه فاتبعه حتى ظفر به فقتله ورجع إلى مراكش .

وفيها أعطا ابن الأحمر قلعة جابر للروم .

وفيها توفي الفارس الأجل أبو عياد بن عبد الحق قتلته السبع بوادي بهت .

السنة الخامسة والأربعون وستمئة

فيها اشتدَّ الحصارُ على أهل إشبيلية ، فصنع إبراهيم بن سهل الاسرائيلي قصيدة يستنفر بها الغزاة من العدو ويستنصرُ بأمراء العرب ، وذلك إذ كان العدوُّ عليها ، وهي هاذة القصيدة :

| | |
|-------------------------------|------------------------------|
| ورداً فمضمونٌ نجاحُ المصدر | هي عزّةُ الدنيا وفوزُ المحشر |
| نادا الجهادُ بكم بنصر مضمـر | يبدو لكم بين القنا والضُمـر |
| خلوا الديار لدار عز واركبوا | غبز العجاج إلى النعيم الأخضر |
| وتسوّفوا كدر المناهل في الشرا | ترووا بماء الحوض غير مكدّر |
| وتجسموا البحر الأجاج فأنه | سببٌ به تَرِدُون نهرَ الكوثر |
| وتحملوا حرَّ الهجير فأنه | ظلُّ لكم يومَ المقام الأكبر |
| يامعشر العرب الذين توارثوا | شيمَ الحمية كابرأ عن أكبر |
| إن الإلاه قد اشترا أرواحكم | يبعوا ويهنتكم وفاء المشتري |
| أنتم أحقُّ بنصر دين نبيكم | وبكم تمهّد في قديم الأعصر |
| أنتم بنيتُم ركنه فلتدعموا | ذاك البناء بكل لدن أسمـر |
| لكم عزائم لو ركبتم بعضها | اغنتكم عن كل طرف مضمـر |
| لو أنكم جهّزتم عزما تكم | لهزمتم منها العدوَّ بعسكـر |
| ولو أنكم سدّدتم هِمّاتكم | طعنتمهم قبل القنا المتأطـر |
| أضحا الهدا يشكو الظماء وأنتم | ظلُّ وريُّ كالربيع المخضر |
| وعلا الجزيرة غيب وغمودكم | مطوية فوق الصباح المسفر |
| الدين ناداكم وفوق سروجكم | غوثُ الصريخ وبغيةُ المستنصر |
| لم يبقَ للإسلام غير بقيةٍ | قد وطنت للحادث المتنكـر |
| والكفر ممتدّ المطامع والهدا | متمسك بذناب عيش أغبـر |
| البيضُ تقلق في الغنود مضاضة | للحق إذ يُلقِي يدَ المستنصر |
| والخيل تضجر في المرائب غيرة | ألا تجوس حريم رهط الأصفر |
| كم نكثوا من معلم كم دمروا | من معشركم غيّرُوا من مشعر |
| كم أبطلوا سننَ النبي وعطلوا | من حلية التوحيد صهوة منبر |

اين الحفاظ ما لها لم تنبعث ؟ اين العزائم ما لها لا تنبىرى ؟
 ايهز منكم فارس فى كفه سيفاً ودين محمد لم ينصر ؟
 ام كيف تفتخر الجياد بأعوج فيكم وتنسب الرماح لسهر ؟
 جدوا وتموا بالجهاد أجوركم ما خاب قصد مشمر ومسر
 هزوا معاطفكم لسعي تكتسبها فيه ثياب مثوبة أو مفخر
 عند الخطوب النكر يبدو فضلكم والنار تخبر عن ذكاه العنبر
 لو صور الاسلام شخصاً جاءكم عمداً بنفس الواثق المتحير
 ولو انه نادا النصير لخصكم ودعاكم يا سرتى يامعشرى !

وفىها ملك الروم شرق إشبيلية بالسيف : قطينانة ، وحرمى ،
 وغلانة ، والرسين ، وشعفس ، والقلعة ، والقلعة ، وحسن القصر .

وفىها اعطا ابن محفوظ للروم مدينة طلبيرة ، والعلى ، وشلب ،
 والجز ، والخزانة ، ومرشوشة ، وبطرنه ، والحره .

وفىها خرج امير المومنين السعيد من مراکش برسم تمهيد بلاده
 فى جيوش عظيمة ، وعساكر جمه جسيمة ، وجنود وافرة ، وعدة ساقفة ،
 وأمم لا تحصى من الموحدين وقبائل المصامدة والعرب والأندلس والأغزاز
 والروم ، فسار بهاذه الجنود حتى نزل وادي بهت ، وقد اهتزت بلاد المغرب
 بقدومه خوفاً من سطوته لكون أكثرهم كان قد بايع لبنى مرين ودخل فى
 طاعتهم ، فلما تحقق الأمير أبو بكر بن عبد الحق نزوله بوادى بهت وعلم
 قربه منه خرج وحده ليلا من مكناسة متحسناً له ومتجسساً ومتطلعاً على
 عسكر السعيد فسار حتى وصل المحلة فشققها ودار بها وشاهد أحوالها وعاین
 كثرة جيوشها وأقيالها ورماتها وما فيها من العدد والأموال وآلات الحرب ،
 فراً من ذلك شيئاً ما لأحد بلقائه من قبيل ، فعلم أنه لا طاقة له بحربه وأن
 الحزم التوسع أمامه والتخلي له عن البلاد حتى يرا ما يفعل الدهر ، فبعث
 من فوره إلى قبائل مرين المتفرقة فى النجود والوهاد وأقطار المغرب فاجتمعوا
 إليه فى أقرب حين ، وأقبلوا نحوه مسرعين ، فارتحل بهم من فوره إلى تازة
 وقلاع الريف ، واسلم له مكناسة وجميع الغرب ، وهرب أشياخ مكناسة

وأعيانها لقلعة بنى سعيد من جبل زرهون ، فأقبل السعيد حتى نزل بظهر مكناسة فتلقاء جميع أهلها بأولادهم وعيالاتهم ، وصبيانهم قد رفعوا المصاحف والالواح على رؤوسهم ، والشيخ الفقيه الخطيب الصالح أبو علي منصور بن حرزوز في مقدمتهم ، فطلبوا منه العفو واعتذروا له فقبل عذرهم وعفا عنهم وأمنهم ، وارتحل عنها إلى مدينة فاس ، فنزل بظاهرها من ناحية القبلة ، فخرج إليه فقهاؤها وأشياخها وفي مقدمتهم الشيخ الصالح عبد الله بن موسى الفشتالي ، فسلموا عليه فرحب بهم وتكلم لهم خيراً وقضا حاجاتهم ، وسألوه تشريفهم بدخوله مدينتهم فأبأ عليهم وذلك في آخر سنة خمس وأربعين وستمئة .

السنة السادسة والأربعون وستمئة

فأقام السعيد بظاهر مدينة فاس إلى الثالث عشر من المحرم ، وعزم على الرحيل إلى تلمسان ، فخسف بالقمر كله تلك الليلة ، فلما أصبح يوم الأربعاء الرابع عشر ارتحل السعيد فصار خطوات فانكسر لواؤه المنصور الذي يحمل أمامه فتطير به فرجع ونزل ولم يرتحل ذلك اليوم حتى إلى الغد ، فلما كان يوم الخميس الخامس عشر من محرم ارتحل ، فصار حتى وصل إلى رأس عقبة البقر فرد رأسه ونظر إلى المدينة فقال لمن حوله من خاصته لئن رجعتني الله إلى هاذي القرية الظالم أهلها لأقتلن نبيها ، يعني الفقيه الصالح الشيخ عبد الله الفشتالي ، فعُرف بذلك الفشتالي رحمه الله ، فقال إنه لا يرجع ، فكان كذلك ، فصار السعيد حتى وصل إلى رباط تازة فنزل بظاهره ، فبعث إليه الأمير أبو بكر بن عبد الحق ببيعته مع يحيى بن الوزير الوطاسي وبعث إليه هدية من الخيل العراب والدرق اللطية وطلب منه أمانه له ولجميع قبائل مرين فقبل منه بيعته ، وكتب إليه بأمانه على أن يبعث معه حصّة من قبائل مرين برسم الخدمة ، فبعث إليه الأمير أبو بكر وقال يا أمير المؤمنين لا تتعب نفسك في أمر يغمراسن أنا أكفيك أمره ، فارجع إلى حضرتك وقرني بالمال والعدة وأنا أأيّد جميع عبد الوادي وغيرهم ممن ناز بتلك البلاد من قبائل زناتة وأفتح لك البلاد وأمهدها ، فعزم السعيد على ذلك ، ثم استشار

أشياخ الموحدين فأشاروا عليه أن لا يفعل وقالوا له ياأمير المؤمنين : إن الزناتى أخ الزناتى لا يخذله ولا يسلمه ، فتخاف أن يصطلحا ويجتمعا على حربك ، فتكون المشقة بهم أعظم ، والمقاساة فى حربهم أشد ، فرجع عن ذلك وكتب إلى الأمير أبى بكر يشكر قوله ويأمره أن يقعد بموضعه من قلاع الريف ويبعث إليه بالحصنة التى طلب منه ، فبعث إليه الأمير أبو بكر بخمسة فارس من قبائل مريـن مع ابن عمه عياد بن يحيى ، فسار السعيد إلى تلمسان ، فلما قرب منها خرج يغمراسن عنها وأسلمها إليه وفر أمامه هو وأخوانه وجميع قبائل عبد الوادى إلى تامزجـدت ، فتحصنوا بها ، فأقبل السعيد بجميع جيوشه حتى نزل عليه بها ، فكان من قدر الله تعالى أن مات عليها مقتولا ، قتله بنو عبد الوادى ونهبوا محلته وأمواله ، وتفرقت جيوشه فى كل ناحية ، واحتوا يغمراسن بن زيان على جميع ما كان بالمحلة وعاد به إلى تلمسان .

فاتصل خبر موته بالأمير أبى بكر بن عبد الحق ، وقدمت الحصنة التى توجهت مع السعيد للخدمة فأعلموه بموت السعيد وأفتراق جيوشه ونهب أمواله وحرقه ، فجد السير إلى مكناسة فدخلها وملكها ، فأقام بها أياماً وخرج إلى رباط تازة فبادرها خوفاً أن يسبقه بنو عبد الوادى إليها ، فملكها الأمير أبو بكر وذلك فى منسلخ شهر صفر من سنة ست وأربعين المذكورة ، وبعد موت السعيد بشمانية أيام ، فأقام برباط تازة عشرة أيام فخرج منها ففتح كرسيف وجميع حصون ملوية ، ثم سار إلى مدينة فاس يحاول أمرها مع أشياخها ، فراسلهم فخرجوا إليه فبايعوه بالرابطة التى بخارج باب الشريعة من أبواب فاس ، خرج إليه الفقهاء والأشياخ ، فدخل المدينة واستقر بقصبتها وأخرج الموحد الذى كان عاملا عليها للسعيد بعياله وأولاده وحشمه بعد أن أمّنه الأمير أبو بكر وبعث معه خمسين فارساً يبلغونه إلى وادى أم الربيع ، وكان دخول الأمير أبى بكر بن عبد الحق مدينة فاس وانقطاع ملك الموحدين منها يوم الخميس وقت الظهر ، وهو اليوم السادس والعشرون من ربيع الآخر من سنة ست وأربعين وستمئة وذلك بعد موت السعيد بشهرين ، فاستقامت له الأمور بالمغرب وتمهد له الملك ، وقدمت عليه الوفود من البلدان للتهنئة بالملك ، وتهذنت البلاد وصلحت الأموال ، وسكنت الفتون ، وتأمنت الطرقات ،

وكثر الخيرات ، وتحرك التجار ، وانطلقت الأسفار ، وأمر القبائل بسكن الأوطية ، وعمارة القرى والمجاشر الخالية ، والاستكثار من الحرث ، فصلح أمر الناس ورخصت أسعارهم ، وأعطوا حصون تازة وجميع حصون ملوية لأخيه يعقوب ، وأقام هو بمدينة فاس بقية سنة ست وأربعين وصدرأ من سنة سبع وأربعين وألفود تأتيه من كل ناحية فيصلهم بالخيول والخلع والمال .
سوفى ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان من سنة ست وأربعين دخل النصارا مدينة إشبيلية .

وفيه ولي المرتضا بمراكش وأحوازاها ، وهو عمر ابن السيد إسحاق بن يوسف بن عبد المومن .

وفيه أراد بنو وطاس أن يغدروا أولاد عبد الحق ، فعرف مهيب الوطاسي بذلك الأمير أبا بكر فأخذ حذره منهم ، وأمر من كان عندهم من بنى مرين بالرحيل عنهم فارتحلوا إلى عين الصفائم إلى غرسييف .

وفيه احترقت أسواق فاس من قنطرة الصباغين بقرب باب السلسلة فأحرقت سوق السقاطين والغمادين والسيطريين والصباغين والصوابنيين ووصلت إلى باب الجنائز من جامع القرويين ، فوقف هنالك الشيخ الصالح عبد الله الفشتالي بعد أن أحرقت مصاريع باب الجنائز فقال أيتها النار إلى أين ؟ هاذا حذك فارجمي بأذن الله ! فوقفت النار بقدرة الله تعالا هنالك ولم تتعد ذلك الموضع .

وفى يوم السبت الحادى والعشرين من جمادى الأولى توفي أبو علي بن خلاص بمرسا وهران إثر صلاة العصر من اليوم المذكور وحمل ميتاً إلى بجاية فدفن بها .

وفيه توفي الشيخ الامام المجتهد جمال الدين عثمان بن عمر بن أبى بكر المالكي المعروف بابن الحاجب وكان مولده سنة إحدا وسبعين وخمسمئة ، وتوفي رحمه الله تعالا سنة ست وأربعين وستمئة ، وقد بلغ من السن خمسا وسبعين سنة وثلاثة أشهر ، وكان فى وقته فارس المالكية

وفقيها ، جمع بين الأصول والفروع والعربية والقرائات والفرائض والعروض ، وصنف في أكثر ذلك ، فمن تصانيفه كتابه المسما بآبْنِ الْحَاجِبِ ، ومنها مِنْتَهَا السُّوْلُ وَالْأَمَلُ فِي عِلْمِ الْأَصُولِ وَالْجَدَلِ ، وشرح مفصل الزمخشري ، وله مقدمة مفيدة في النحو سماها كافيّة ذُو الْأَرْبِ فِي مَعْرِفَةِ كَلَامِ الْعَرَبِ ، وقد رَجَّزَهَا وسماها الوافية ، بنظم الكافية ، وله نظم في العروض والقوافي سماه المقصد الجليل في علم الخليل ، ومن شعره رحمه الله ما أنشدنيه الشيخ الصالح المتصوف أبو مدين الجنيارى ، قال آتَيْتُ الشَّيْخَ الْعَالِمَ جَمَالَ الدِّينِ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ أُرِيدُ أَنْ يَدْعُوَنِي لِإِسْتِشِيرَةٍ فِي أَمْرٍ أُرَدَّتْ أَنْ أَصْنَعَهُ فَدَعَانِي ثُمَّ أَنْشَدَنِي لِنَفْسِهِ :

فَوْضُ الْأَمْرِ إِلَى مَنْ دَبَّرَهُ فَسِوَاهُ مَا لَهُ مِنْ مَقْصَدِهِ
لَا تُؤْمَلُ غَيْرَ مَوْلَاكَ وَسِوَالٍ مِنْهُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ الْخَيْرُ

السنة السابعة والأربعون وستمئة

فيها وصلت الحاجّة المباركة أم اليمن من الحجاز .

وفيها تحرك الأمير أبو بكر من مدينة فاس إلى بلاد فازاز ومعدن عوام وذلك في شهر رجب منها ، واستخلف على مدينة فاس مولاة السعود بن خرباش الحشمى ، وسار حتى وصل معدن عوام ، فنزل بظاهره وشرع في مغرم مَنْ هُنَاكَ مِنْ قِبَائِلِ جَانَاتَةِ ، فاجتمع في غيبته نفر من مشيخة فاس إلى ناضيتها أبي عبد الرحمن المغيل فكلّموه في خلع الأمير أبى بكر وقتل مولاة السعود الذى تركه عليهم وطرد رجاله عن المدينة ، وقالوا له : إن الأمر قد استقام للموحدين ، وقد تمّت البيعة للمرّتضاً وهو أحق بالأم ، فنهاهم عن ذلك وحذّروهم سوء عاقبته ، فقالوا : لابد منه ، فقال لهم : إن عزمتُم فافعلوا ما أردتم وأنا تابع لكم ، فتراموا على خلع الأمير أبى بكر وقتل مولاة السعود الذى تركه خليفة عليهم وأن يكتبوا بيعتهم إلى المرّتضاً ، فاجتمع رأيهم على ذلك وبعثوا إلى قائد الروم زنار الذى بالقصبة فتواطأوا معه على ذلك ومع القائد شديد الرومى الذين كان الرشيد ولاهما قيادة فاس وكانا

ساكنين في مثنى فارس من الروم ، فلم يزالا بها إلى أن ملكها الأمير أبو بكر وتركهما على حالهما وخدمتهما وكانا مائلين بهواهما إلى الموحدين بسبب ذلك ، فلما عزم أشياخ فاس على قتل السعود وافقهم القائدان المذكوران على ذلك وسارعا إليهم وضمنا لهم قتل السعود ، فلما كان يوم الثلاثاء الموفى عشرين من شعبان من سنة سبع وأربعين طلع أشياخ فاس إلى القصبة برسم الصباح على السعود على ما جرت به العادة فسلموا وقعدوا ، فجرا بين السعود وبين المشرف ابن جشار كلام في الرباع المخزنية ، فأغلط له ابن جشار في القول فناط ذلك السعود فلطمه في وجهه وأراد تشقيفه ، فقام المشرف ابن جشار مضطرباً فصاح بالأشياخ وقواد الروم وناداهم بشعاره الذي جعلوه أمانة بينهم في قتل السعود ، وكان القائدان واقفين بجميع جيوشهما أمام القبة فتبادرت الروم إلى السعود وكانوا بسيوفهم فقتلوه هو وأربعة من رجاله ، فلما قتل السعود وقطعوا رأسه جعلوه على عصّار (II) وطاقوا به جميع المدينة ، ودخل الأشياخ القصبة فأخذوا ما وجدوا فيها من المال والأثاث والخول فاقتسموه بينهم وخرجوا منها وأنفقوا على جيش الروم وسدوا أبواب المدينة وبعثوا ببيعتهم إلى المرتضا وأن يبعث إليهم عاملاً ليقبض المدينة فاتصل الخبر بالأمير أبي بكر وهو بمعدن عوام فجند السير نحوهم فوجد المدينة مغلقة في وجهه وأشياخها مستعدين لقتاله ، فحاصروهم بها أياماً فلم يقدر على شيء ، ولما سمع يغمراسن بقيام أهل فاس على الأمير أبي بكر طمع في رباط تازة وخرج من تلمسان نحوها ، فاتصلت الأخبار بأبي بكر أن يغمراسن خرج برسم ذلك فترك على حصار فاس حصّة من بنى مرين تقاتلها وارتحل عنها لمحاربة يغمراسن .

(II) عود غليل كعصا الفاس تمصر عليه الثياب بعد غسلها لازالة الماء منها تسهيلا لتبيسها ، ومازالت الكلمة مستعملة في العامية الفاسية الى اليوم .

الخبر عن حركة أبي بكر لقتال يغمراسن

قال الراوى :

فارتحل الأمير أبو بكر عن فاس بعد أن ترك عليها ورياس المرينى فى خمسمئة فارس يباركها بالحرب ويرأوها ، فوصل يغمراسن إلى قرب تازة ومعه عبد القوي التجينى ، فوصل الأمير أبو بكر إلى تازة وأقام بظاهرها ثلاثة أيام ، ثم ارتحل عنها إلى لقاء يغمراسن ، فلما علم يغمراسن بقدم ابنى بكر إليه كرم راجعاً فتبعه أبو بكر حتى إلى أحواز وجدة ، فكانت بينهما هناك حروب عظيمة هزم فيها يغمراسن هزيمة شنعاء وقتل حامية وفر وترك أمواله وأقبيته فاحتوا الأمير وبنو مرين على ذلك كله ، وقتل فيها من بنى عبد الوادى جماعة من خيارم وأنجادهم ، ومات فيها من بنى مرين عبد الحق بن محمد بن عبد الحق قتله إبراهيم بن هشام ، وهي أول حرب كانت بين أولاد عبد الحق وأولاد زيان العبد الوادى ، ثم رجع الأمير أبو بكر إلى فاس فوصلها فى آخر يوم من ذى الحجة سنة سبع وأربعين وستمئة المذكورة فشرع فى قتالها :

وفى سنة سبع وأربعين وستمئة توفى الأمير أبو زكرياء يحيى صاحب افريقية وولي مكانه ولده عبد الله المستنصر ، وكانت وفاته ببونة من بلاد العناب وولي بعده ولده المذكور .

وفىها قتل القائد الرنداجى ثمانين من زعماء الروم بجزيرة قادس .

وفىها ملك الفقيه أبو القاسم العزفى سبئة فقتل قائدها شفاف والوزير أبا عثمان بن خلاص وثلاثة من أشياخ البلد ، وذلك ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان .

وفىها توفى عبد القوي التجينى بعد رجوعه من حركة إيسلى ، وقتل ابنه محمد وأخوه يوسف على قبر أبيهما المتوفى فى سابع موته ، وصار بنو محق ؟ تحت حكم القاتل محمد .

وفيهما ملك محمد بن عبد القوي ونشريس وجبالها وبرشك وشرشال.
وفيهما ملك محمد بن منديل المغراوى مدينة مليانة وكثيراً من
أعمال الشرق .

وفيهما أعطا ابن الأحمر للفنش حصن السريق .

وفيهما أعطا ابن محفوظ للفنش حصن اللقوة وجبل العيون ووادي
آنه وشنتل والحصين وشلطيش أعطاه هذه البلاد كلها صلحاً على لبله
وأحازها .

وفيهما نزلت الأفرنج مدينة دمياط من بلاد مصر فى ربيع الأول ،
وكان فيها فخر الدين فى جيوش كثيرة . فلما طال عليه الحصار والرمي
بالمجانيق خرج منها وخرج معه أهل المدينة فدخلها الأفرنج ، وكان الملك
الصالح على المنصورة ، فلما وصل إليه أهلها شنتق منهم ستين رجلاً من
أعيانهم ثم زحف إلى لقاء الأفرنج وملكهم الفرنسيس فلما تقارب الجمعان
توفي الملك الصالح أيوب بن محمد الكامل صاحب مصر وكان ولده المعظم
بدمشق ، فكتمت جاريته أم الخليل المسماة بشجرة الدر موته والبسته
ثيابه وجعلته فى هودج وجعلته خلفه من يمسكه وأمرت الجيش بقتال
العدو ولقائه ، فنصر الله المسلمين وهزم الأفرنج وأخذ ملكهم أسيراً وقتل
من الأفرنج ما يزيد على مئة ألف واسترجع دمياط .

السنة الثامنة والأربعون وستمئة

ففيهما شد الأمير أبو بكر فى حصار فاس وقتالها وقطع عنها الوادي
الدخل إليها وجلب أهل مكناسة والقبائل إلى قتالها ، فضاقت حال العامة
فأقبلوا على أشياخهم بالملامة وراودوهم على فتح المدينة للأمير أبى بكر فلما
رأوا الأشياخ ذلك سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا فى فعلهم ونكثهم ،
إذ لم يأتهم ناصر من قبل الموحدين ، ورأوا أنهم لابد لهم من بنى مريس ،
فبعثوا إلى الأمير أبى بكر يطلبون منه العفو والأمان ، والصفيح والامتنان .

فأجابهم الى ذلك وفتحوا أبواب المدينة ، فدخلها ونزل بالقصر من قصبتها ، وذلك فى اليوم الموفى عشرين من جمادى الآخرة من سنة ثمان وأربعين المذكورة ، فأقام بها أياماً الى الخامس من رجب التالى لجمادا المذكورة ، وجعل المشرف والأشياخ يسوفونه بالمال الذى أخذوه من القصر ويلوذون له بالأعذار ، فلما رآا ذلك منهم قبض على أشياخ المدينة وأشرفها وأمنائها وثقفهم بدار الجوزة وطالبهم بماله وأثائه والسلاح التى انتهبوها من خزائن قصره ، فقام اليه شيخ منهم يعرف بابن الحنا فقال له يامولاي : إنما فعل ذلك منا ستة من الأشياخ فلا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، وإن فعلت ما أقول لك وقبلت رأيى لكان حزمياً وصواباً وأدباً لرعيتك ، قال : وما تراه أن أصنع أيها الشيخ ؟ قال : تخرج هاؤلاء الأشياخ الستة الذين سعوا فى الفتنة وشقوا عصا المسلمين وكانوا أس الحلاف ورؤساء الضلال وتحزبوا على النفاق إلى السيف فتضرب أعناقهم وتأخذ بثأر من قتلوه من رجالك وتشعب بهم من سواهم وتأخذنا نحن بغرم مالك عقوبة لمتابعتنا إياهم ، قال : صدقت والله وأبصرت الراي ووافقت الغرض ، فأخرج الأشياخ الستة إلى خارج باب الشريعة من أبواب فاس فضربت أعناقهم ، وهم : القاضى أبو عبد الرحمن المغيل ، وولده ، والمشرف ابن جشار ، وولده ، وابن أبى طاطو ، وأخوه ، ونهب دورهم واستخربت رباعهم وأملاكهم ، وكان قتل الأشياخ المذكورين يوم الأحد الثانى من شهر رجب من سنة ثمانية وأربعين وستمئة ، وأخذ سائر الأمناء والأشياخ بغرم المال ، فذكروا ، ولم يكن بعدها منهم من يرفع رأسه الى فوقه ولا يتكلم بين اثنين إلى الآن .

وفى أول سنة ثمانية وأربعين أدخلت أم الخليل جارية الملك الصالح الفرنسيس ملك الافرنج إلى القاهرة أسيراً فى قفص من حديد على جمل ليراه الناس ومعه ستة آلاف من قواد الافرنج ورؤسائهم يقادون فى السلاسل . وفيها مات الملك المعظم ابن الملك الصالح ، وكان أميراً على الشام ، فلما وصله موت أبيه بويع وفرق الأموال وخرج من دمشق يريد

مصر فمات فى الطريق قبل أن يصلها مسموماً ، وبقيت الجارية أم الخليل تقوم بملك مصر والشام بقية سنة ثمان وأربعين وثلاثة أشهر من سنة تسع وأربعين والأوامر تخرج باسمها عن أمر الحجاب الرفيع والستر المنيع شجرة الدر ، فلما كان فى شهر ربيع الثانى من سنة تسع وأربعين اجتمع فقهاء مصر والشام وأمرأؤها فدخلوا عليها وقالوا لها أيتها السيدة إن الاسلام لا يصلح أن تملك أمره امرأة فاختارى مَنْ شئت من الأمراء وتزوجيه ونبايعه نحن ويكون الملك فى أيديكم لا يخرج عنكم ، فأتت معهم فاختارت عز الدين الصالحى مملوك الصالح فدعا ورثة الصالح فأعتقوه وبويع وتزوج أم الخليل ، وذلك فى سنة تسع وأربعين وستمئة .

وفىها أعطا الوزير أبو خالد صاحب شريش للفنش مدينة أركوش وحصن فريس ، وحصن تنكر والأقواس .

وفىها دخل الروم مدينة تنس من بلاد مصر بالسيف ، واستشهد فيها من المسلمين خلق كثير ، وذلك يوم الأربعاء الرابع من شهر محرم . وفىها ملك العدو قرمونة ، والقلعة ، والقلية ، وشلوقة ، وغليانة ، وروطة وجميع حصون الوادى ، وحصن الفرج .

وفىها توفى نور الدين ملك اليمن قتله مماليكه .

وفىها توفى الملك الفاضل صاحب الموصل والجزيرة .

السنة التاسعة والأربعون وستمئة

فىها ملك الأمير أبو بكر جميع بلاد فازاز الى رباط الفتح ، وطلب من أهل سلا أن يمكنوه من البلد ، فاتصل الخير بالمرتضا فبعث له جيشاً من الموحدين والعرب والروم فالتقوا بالأمير أبى بكر بمقربة من مكناسة الزيتون فهزمهم الأمير أبو بكر وسبوا محلتهم .

وفىها كسفت الشمس كسوفاً لم تجر به العادة .

وفيها ملك الروم مدينة الأريولة وأحوازاها .

وفيها توفي الشيخ الصالح أبو عمران الجنيارى .

وفيها ملك يوسف بن محمد طنجة .

وفيها بنا العزفى بسببة سوراً بجانب المنارة ، وقيل بل كان ذلك
فى سنة ثمان وأربعين وهو أصح .

وفى سنة تسع وأربعين المذكورة حاصر الأمير أبو بكر لعلي بن
زيان الونجاسنى بتابركشت من بلاد بنى يازغة من أحواز فاس .

السنة الموفية خمسين وستمئة

فيها وصل التطر إلى الجزيرة ونهبوا ديار بكر ومدينة رأس العين
وبروج وقتلوا منهم خلقاً كثيراً .

وفى أول محرم منها كانت وقعة مان ملولين .

السنة الحادية والخمسون وستمئة

فيها خرج الأمير أبو بكر يغير على بلاد يغمراسن ، فوصل إلى وجدة
ففرّ يغمراسن أمامه ولم يلقه فرجع عنه دون قتال .

وفى آخرها توفي علي بن عثمان بن عبد الحق أمر عليه عمه أبو
الحسن وولده مفتاحاً المكنى بابى حديد فقتله بأمان ملولين .

السنة الثانية والخمسون وستمئة

فيها توفي الشيخ الصالح أبو محمد الفشتالى ليلة الخميس الثالث
من ذى الحجة منها .

وفيها أراد الروم الذين كانوا يركبون مع يغمراسن الغدر به فقتلوا

أخاه محمد بن زيان بخارج باب كشوط من أبواب تلمسان فأجال يغمراسن
فيهم السيف فقتلوا عن آخرهم .

وفيها ظهرت نار باليمن فى بعض جبال عدن يطير منها شرارها إلى
البحر فى الليل ويصعد منها دخان عظيم بالنهار ، فما شك الناس أنب النار
التي أخبر النبي صلا الله عليه وسلم أن ناراً باليمن تظهر فى آخر الزمان
فتاب الناس وأقلعوا عن المعاصى وصلاح حالهم .

وفيها توفي الأمير أبو سعيد فرج بن محمد بن يوسف بن نصر
وكان ولي عهد أبيه .

السنة الثالثة والخمسون وستمئة

فى يوم السبت الحادى والعشرين من شهر محرم منها توفي خطيب
الامام بجامع القرويين أبو الحسن بن الحاج ، وخلفه فى الامامة محمد بن
يوسف المزدغى ، وفى الخطبة عبد الرحمن بن محمد المزدغى المذكور .

وفيها تحرك أمير المؤمنين المرتضا بن السيد إسحاق من
مراكش برسم مدينة فاس ولقاء الأمير أبى بكر فاتا حتى نزل بجبل بنى
بهليل من أحواز فاس ، فخرج إليه الأمير أبو بكر من فاس فهزمه واحتوا
على جميع ما كان فى محلته من الأموال والأخبية والقباب والخيول والابل والعدد
والحول ، وأصاب مرين فى هاذة الصفقة أموالاً جليلة وذلك فى سادس جمادى
الآخرة منها .

وفيها قتل القائد محمد الرنداجى بوادى إشبيلية .

وفيها بايعت سبجلماسة الأمير أبا بكر بن عبد الحق فملكها وولاً
عليها عبد السلام الأوزى وداود بن يوسف ، وولاً قائداً بها يوسف بن
يرجاسن ، فبقى الأمر كذلك سنة ونصفاً ثم وليها الوزير يحيى بن أبى منديل
شهرين ثم وليها أبو طالب بن الحسين فقتل وقام بها أهلها .

السنة الرابعة والخمسون وستمئة

فيها ذكر للأمير أبي بكر أن ابن عطوش تحرك من مراکش لسجلماسة وكان قد بعث إليها ولده أبا حديد حين قتل عامله أبو طالب فأسرأ لها ودخلها وهرب ابن عطوش القادم لها ، وفي هاذة الحركة مات سعيد بن عثمان الفودودي .
وفي هاذة السنة بنا الفقيه العزفي الجنب بأسفل المينا من سبتة .
وفيها توفي الرئيس إسماعيل بن يوسف بن نصر أخو ابن الأحمر .
وفيها ولي الرئيس أبو محمد ابن اشقيلولة مالقة .

السنة الخامسة والخمسون وستمئة

فيها توفي الشيخ الصالح الورع المبارك محمد بن يوسف بن عمران المزدغى الخطيب بجامع الترويين وسيد علماء زمانه ، يكنى أبا عبد الله ، أخذ ببلده عن أبي ذر الحشنى ، وعبد العزيز بن زيدان ، ولقي بتلمسان الفقيه أبا عبد الله بن عبد الرحمن التجيبى فأخذ عنه وأجاز له ، ورحل إلى الأندلس فقرأ بقرطبة وإشبيلية على جملة من أشياخها ، وكان عالماً بالنحو واللغة والبديع ، ذاكراً للتاريخ والآداب ، كان ينص كتاب زهر الآداب وكتاب الأملى ومقامات الحريري والسير ينص ذالك نصاً ، واقتصر على إقراء الحديث والتفسير ، فكان إماماً فى تفسير القرآن ، وله تفسير جليل وصل به الى سورة تبارك الذى بيده الملك ، ومات رحمه الله ولم يتمه ، وهو من أبدع التفاسير وأجلها ، وله تواليف مفيدة فى فنون شتى منها كتاب ما يجور للفقراء المضطرين فى أموال الأغنياء المفتقرين ، وما يجب فى ذالك على الولاة الأمرين وعلى جميع المسلمين ، ومنها تأليف فى قوله عليه السلام : إذا نزل الوباء بأرض فلا تخرجوا منه فراراً ، ومنها أرجوزة فى علم الأصول مفيدة قريبة المرام أولها .

| | |
|------------------------|---------------------------|
| الحمد لله العلي الأعلا | رب العوالى والعلا والسفلا |
| وملك الدنيا ويوم الدين | ومبدع الخلق بلا معين |
| أحمد حداً يُوازى فضلَه | فليس شيء فى الوجود مثله |

توفي رحمه الله في الرابع من ربيع الأول من سنة خمس وخمسين
المذكورة وقد بلغ من السن اثنتين وثمانين سنة .

وفيها ولي الفقيه الصالح الزاهد الورع علي بن أحمد الامامة بجامع
القرويين وبقي الفقيه الصالح الزاهد الورع عبد الرحمان ابن الفقيه محمد
المزدغى خطيباً من تقديم والده رحمهم الله تعالى .

وفيها توفي خطيب مكناسة وإمام جامعها الحاج الصالح المجاهد أبو
علي منصور بن حرزوز .

وفيها ولائ الأمير أبو بكر بن عبد الحق مولاه فرتون .

وفيها تحرك الأمير أبو بكر إلى يغمراسن ، فهزمه أبو بكر بموضع
يعرف بأبي سليط ، ثم رجع عنه فوصل الى المقرمدة ، فذكر له أن يغمراسن
مضا إلى سجلماسة فطلع أبو بكر إلى سجلماسة فدخلها قبله وخرج من الغد
فتقاتل معه بخارجها أياماً ورجع يغمراسن إلى تلمشان .

وفيها ملك الأمير أبو بكر بلاد درعة ، وكانت للمرتضا ، وأقام الأمير
أبو بكر بسجلماسة ودرعة حتى هذينها وسكنهما وأصلح أحوالهما ، وقدم
عليها عامله أبا يحيى القطراني وأوصاه بما أراد وارتحل الى مدينة فاس فدخلها
وقد عظم ملكه وارتفع سلطانه وكثر حشمه وجنده وخافته الملوك وانقمع أهل
العناد والفساد ، وتأمنت الطرقات والبلاد ، وكثرت العمارات ، وفني أهل
الدعارات .

وفيها توفي سليمان بن عثمان بن عبد الحق .

وفيها رجع الأمير أبو بكر من سجلماسة الى فاس ، فأقام بها أياماً
ثم خرج الى جهة رباط الفتح فوصل الى خيس فنزارة (12) ثم رجع الى فاس
فأقام بها أياماً ، ورجع الى سجلماسة برسم غزو العرب ، فرجع منها مريضاً
ولم يزل به مرضه ذلك الى أن مات .

(12) قرية الخيسات الحالية .

وفيها ولد الأمير محمد بن محمد بن يوسف بن نصر المخلوع عن ملك غرناطة .

السنة السادسة والخمسون وستمئة

فيها توفي الأمير أبو بكر بن عبد الحق حنف أنفه بقصره من قسبة فاس ، مرض بها ثمانية عشر يوماً ، وتوفي يوم الخميس منسلخ جمادا الآخر منها ، وصلي على جنازته صبح يوم الجمعة مهل رجب بجامع الأندلس ، ودفن بباب الجيزيين من أبواب عدوة الأندلس بإزاء قبر الشيخ الفقيه الصالح أبي محمد الفشتالي تبركاً بجواره رحمه الله تعالى ، كان أوصا بذلك في حياته ، فكانت أيام ملكه بالمغرب من يوم بويغ بعد وفاة أخيه محمد ثلاث عشرة سنة ، ومن يوم ملك فاس بعد وفاة السعيد إلى أن توفي تسعة أعوام وتسعة أشهر .

وفيها قام أبو يحيى القطراني بسجل ماسة بالدعوة لنفسه حين سمع بموت أبي بكر بن عبد الحق ، فأقام والياً عليها سنتين ثم قُتل .

وفى سنة ست وخمسين المذكورة ، وفى يوم السبت منسلخ ربيع الأول دخل التطر بغداد ومليء بهم جميع العراق ، وكان به الحادث الأعظم ، وقتل أمير المؤمنين عبد الله المعتصم بالله العباسي وبموته ختمت الدولة العباسية بعد أن كان لها خمسمئة سنة وثمان وعشرون سنة والبقاء لله وحده .

وفى يوم السبت آخر يوم من السنة المذكورة توفي الشيخ الصالح أبو موسى بن أبي الربيع .

وفيها بويغ عمر بن أبي بكر بفاس ، وبقي أربعة أشهر أولها رجب وأمره مضطرب فأقبل إليه عمه من رباط تازة فهزمه على وادى مكس .

وفيها بويغ أمين المسلمين يعقوب بن عبد الحق وملك مدينة فاس ورباط تازة وأعطى مكناطلة لابن أخيه عمر بن أبي بكر .

وفيها توفي الفقيه الورع أبو محمد صالح الهسكوري رحمه الله تعالى ونفع به أمين .

الباب السادس

فى ذكر دولة أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق

هو أمير المسلمين ، وناصر الدين ، عبد الله ، يعقوب ابن الأمير الصالح المبارك عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمّامة بن محمد بن وزير بن فجوس بن جرماط بن مرين الزناتى المرىنى الحمامى ، أمه حرة زاكية مباركة أم اليمن بنت محلى البطوئى الزناتى ، كانت من عقلاء النساء ، رأت فى منامها وهي بكر كان القمر خرج من قبلها فعلا وصعد حتى استوا فى السماء وأشرق نوره على الأرض ، فقصت رؤياها على والدها فسار إلى الشيخ الصالح أبى عثمان الوريّاكى فقصّ عليه رؤياها ، فقال له إن صدقت رؤيا هاذة الجارية فانها تلد ملكاً عظيماً مباركاً فاضلاً يعم المسلمين خيرة وتشمليهم بركته فكان كذا لك .

ولما تزوجها الأمير عبد الحق قال له والدها محلى بارك الله لك فيها ، أما والله إنها ناصية" مسعودة" مباركة" لم تزل الخيرات والنعم تتوالا علينا منذ نشأت فى بيتنا ، وإنك لتعرف بركتها ، وستلد لك ملكاً عظيماً يكون عزاً وفخراً لك ولقومك إلى آخر الدهر كما قيل فيه :

هو الملك المنصور أمّا زمانه فروح وأما بطشه فسموم
يطارد جيش النصر قبل طراده ويسكن جيش الدهر حين يقوم
وتعزى له الأملاك شرقاً ومغرباً وكلّ على جدوا يدينه يحوم

مولده رحمه الله فى سنة سبع وستمئة قاله أبو العباس بن الجبر عما أخبرته به الحاجة أم اليمن والدته ، وقيل مولده فى سنة تسع وستمئة .

لقبّه القائم بالحق والمنصور .

صفته رحمه الله أبيض اللون ، تامّ القد ، معتدل الجسم ، حسن الوجه والصورة ، واسع المنكبين ، أشيب كأن لحيته قطعة نلج من بياضها

ونورها وإشراقها ، سمح الوجه ، كريم اللقاء ، شديد الصفح ، موثر للفقر ،
حليم شفيق متواضع لأهل الفضل والدين . كريم جواد ذوحزم وعزم ودين متين ،
وسياسة للرعية وسعد مصاحب له مظفر منصور الراية ميمون النقية لم
تنهزم له قط راية ولم ينكسر له جيش ، لم يفز قط عدواً إلا قهره ، ولا لاقا
جيشاً إلا هزمه ودثره ، ولا قصد بلداً إلا فتحه ، ولا حاول أمراً إلا منحه ،
كما قيل فيه :

هو الامام العدل والمُقتبداً بفعله مسترشداً مرشداً
وسادة الدهر يعدون له أجودهم أصدقهم موعداً
أقدرهم أحرسهم ذممة أحمدهم أسعدهم مولداً

وكان رحمه الله مع ذلك صواماً قواماً دائم الذكر كثير البر لا يزال
فى اكثر نهاره ذاكراً وفى ليله قائماً سبحته فى يده لا تزال مادام فى أوقاته
مكرماً للصالحاء والمساكين ، متواضعاً فى ذات الله تعالا لأهل الدين ، قاهراً
للطغاة المفسدين ، متوقفاً فى سفك الدماء .

قضاته :

بحضرة فاس الفقيه الحافظ القاضى الفاضل المبارك أبو الحسن بن
أحمد المعروف فى بيته بابن عذار من أعيان فاس وأشرفها ، ثم الفقيه العالم
المحدث أبو جعفر المزدغى ، ثم الفقيه العالم المحدث أبو الحسن بن القاضى
أبى عبد الرحمان المغيلى ، ثم الفقيه الصالح الورع أبو عبد الله بن عمران ،
ثم الفقيه القاضى أبو أمية الدلائى ، ثم الفقيه يوسف بن حكم البلنسى .

وقضاته بحضرة مراکش الفقيه العالم المجتهد أبو عبد الله الشريف ،
وكان أحد حفاظ المغرب فى زمانه ، وكان مشاركاً فى جميع العلوم الدينية ،
ثم الفقيه عبد العزيز العمرانى .

حاجبه :

عتيق مولاه .

وزراؤه :

الشيخ المبارك الوزير المرحوم يحيى بن حازم العلوى ، والشيخ الأجل
أبو علي يحيى بن أبى منديل العسكرى ، والشيخ الوزير المجاهد المرحوم
أبو سالم فتح الله السدراتى .

كتابه :

الفقيه الكاتب أبو عبد الله بن الربيب ، والفقيه أبو عبد الله العمرانى ،
وكتب له فى آخر عمره حين وفاته أبو عبد الله بن الربيب ، والفقيه الفاضل
المبارك أبو محمد عبد الله بن أبى بكر .

عماله على بلاده :

محمد بن علي بمراكش وأعمالها وجميع بلاد السوس ، وعلى أغمات
وتينمل وجبالها الفقيه أبو علي المليانى ، وعلى مدينة سلا وأحوازها ومراسيها
علي بن عمران البرينانى المعروف بابن عيلة ، وعلى مدينة مكناسة وأحوازها
علي بن الأزرق ، وعلى مدينة فاس أبو عبد الله الحدودى ، وعلى رباط تازة وجميع
أحوازها أبو سالم بن الأشقر التسولى ، وعلى مدينة سجلماسة عبد الرحمن
بن مردنيس ، وعلى بلاد درعة وأحوازها يوسف بن علي اليابانى ، وعلى بلاد
الأندلس علي بن يوسف بن يزجاسن .

بويج له بالخلافة رحمه الله بحضرة فاس بعد وفاة أخيه أبى بكر
بثمانية أيام ، وذلك فى اليوم السابع والعشرين من شهر رجب سنة ست
وخمسين وستمئة وسنه يومئذ ست وأربعون سنة .

| | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| خلافته أوزت بكل خلافة | كذلك بطلان الخلاف مع النقص |
| لديه استقرت فى نصاب ونصبه | وللشرف المحض ابتغاء على المحص |
| تناها اليه الحلم والدين فانتشت | تسير بعلياه ثناء ولا تحصى |
| إمام يطيع الله من قد أطاعه | ويعصى حدود الله من أمره يعصى |

وكان حين مات أخوه أبو بكر غائبا عن مدينة فاس برباط تازة
فاتصل الخبر به فاقبل الى مدينة فاس ليعزى ابن أخيه عمر ، وينظر فى أمر

بايع عمر عمه وتخلّا له عن الملك على أن أعطاه عمه مدينة مكناسة وأحوازها ، فسار عمر إليها واستبد أمير المسلمين بالملك ، وجددت له البيعة بمدينة فاس فبويع فيها وذلك في شوال من سنة ست وخمسين المذكورة .

سنة سبع وخمسين وستمئة

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وستمئة ، فيها قتل عمر بن أبي بكر ثلاثة عشر شيخاً من أشياخ مكناسة على يد عمر بن عائشة وذلك في شهر رمضان من السنة المذكورة .

وفيهما أقبل يغمراسن بن زيان إلى رباط تازة فوصل إلى جلد أمان ومعه قبائل مغراوة ، وتجن ، فخرج إليه أمير المسلمين يعقوب من فاس فهزمه وفرّ يغمراسن أمامه إلى تلمسان وأحرق تاغرسيت .

وفيهما بنا عمر بن أبي بكر قسبة مكناسة وبنا لها السنارة الدائرة بالسور .

وفيهما توفي السيد أبو إسحاق أخو المرتضى .

وفيهما أسس يوسف بن علي العرائش .

وفيهما كان الرخاء العظيم في المغرب فلم يزل كذلك مدة خمس عشرة سنة ، ستة دراهم للصفحة (١٣) الواحدة من القمح .

سنة ثمان وخمسين وستمئة

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وستمئة في أول محرم منها قتل عمر بن أبي بكر على ساقية غبولة ، قتله بنو عمه عمر بن عثمان وإبراهيم بن عثمان والعباس بن محمد بن عبد الحق غدرًا في دم كان بينهم ، فكانت مدة حياته بعد أخيه سنة ونصف .

وفيهما رجعت مكناسة إلى أمير المسلمين يعقوب واجتمع عليه جميع مريّن وانتظمت بلاد المغرب في طاعته وجددت له البيعة بعد وفاة عمر

(١٣) الصفحة ستون مدّ في الإصلاح المغربي القديم الذي مازال منارفاً عند الفلاحين إلى الآن .

ففتح البلاد من بلاد نول من السوس الأقصا إلى تلمسان ، وفتح حضرة مراکش دار مملكة المرتضا وقرار سلطانه ، وقطع مملكة بنى عبد المومن ومحا آثارهم ولم يبق منها رسماً على ضخامتها بعد ان كان لها بالمغرب مئة سنة واثنان وخمسون سنة من سنة خمس عشرة وخمسمئة الى سنة ثمان وستين وستمئة وفتح مدينة طنجة ، ومدينة سجلماسة ، وبلاد درعة ، وبلاد سوس الأقصا ، وبلاد الريف ، وصالح أهل سبتة على أن بايعوه على مال معلوم يؤدونه له فى كل سنة .

فلما تم له ملك بلاد المغرب سمت همته العلية إلى الجهاد فجاز إلى الأندلس فغزا بلاد الروم ودوخها وملك بالأندلس ثلاثة وخمسين مسوراً ما بين مدن وحصون ، وأما القرا والبروج فما يزيد على ثلاثمئة قرية ، فمن المدن التى ملكها : الجزيرة الخضراء ، وطريفة ، ومالقة ، وقمارش ، ورندة ، والمنكب ، ومربالة ، ومرتانة ، وجبل الفتح ، وما بين ذلك من الحصون والقرا والبروج ، وخطب له على جميع بلاد المغرب من بلاد السوس إلى بحر الريف وعلى أكثر منابر الأندلس ، وهو أول من تسمّى بأمير المسلمين من ملوك بنى مرين ، تسمّى به حين ملك حضرة مراکش وقطع دولة الموحدين .

وبنا فى أيام ملكه مدينتين حصينتين إحداهما المدينة السعيدة فاس الجديدة ، واتخذها دار ملكه وهي الآن دار ملك ولده من بعده ، والمدينة الثانية بناها أيضاً لسكناء بخارج الجزيرة الخضراء من بلاد الأندلس على ساحل بحر الزقاق ، فكان يسكنها هو وقرابته ووزراؤه وحشمه إذا جاز إلى الجهاد لأن لا يضيّق على أهل الجزيرة فى سكنائهم ، وبنا فى المدينتين الجوامع والصوامع والقصور والحمامات والأسواق ، وبنا القناطر بالطرقات مثل قنطرة وادى النجا وقنطرة مارين وغيرها .

وهو أول ملك من بنى مرين حما حمّا الاسلام وكسر الأصنام ، وغزا أهل الكفر والطغيان وشتت عبدة الأصنام ، وملك العدوتين ، واحتوا على ملك الحضرتين ، وجاهد الروم فدوخ بلادهم ، وقهر ملوكهم ، فاعز الله تعالا به الدين ورفع ببركة خلافته منار المسلمين ، وكانت الروم قبل جوازه إلى

الأندلس تستطيل على المسلمين وملكوا قواعد الأندلس وأكثر مدنها وحصونها مثل قرطبة وإشبيلية وجيان وشاطبة ودانية ومرسية وغير ذلك من بلاد الاسلام ، ولم تنشر بها للمسلمين راية من وقعة العقاب التي كانت في سنة تسع وستمئة إلى أن جازت رايته المنصورة حين جاز إلى الجهاد في سنة أربع وسبعين وستمئة فكانت له الغزوات المشهورة ، والمآثر الماثورة ، والفضائل المذكورة ، والسيّر المحمودة ، والمواقف المشهودة . مع ما اتّصف به رحمه الله ورضي عنه من الفضل والدين ، والعدل والرفق بالمسلمين ، وكان رحمه الله منصوراً على من ناواه ، مؤيداً على من عاده ، لم ينهزم له قط راية ولم يزل مواظباً على الجهاد والسنن القويم حتى أتاه اليقين ، كما قيل فيه رحمه الله :

| | |
|--------------------------------|-------------------------------|
| أقام على الأيام سنة جـود | فجادات وكانت لا يدر لها خلف |
| وألزم هاذا الدهر سيرة عدله | فليس له خطب يجوز ولا صرف |
| ضجوك إذا الأبطال طال عبوسهم | وقور إذا الأبطال من وجل خفتوا |
| يحوط جناب الثغر حوطة حازم | تجمع في تديبره الرفق والعنف |
| ويرصد للخطب المليم سياسة | ينزل بها عز ويقوا بها ضعف |
| له المكرمات اللاء عن حصر بعضها | تقاصرت الأتلام والجبر والصحف |

وهو الذي صنع المارستانات في بلاد المرتضا للغرباء والمجانين وأجرأ عليهم النفقات وجميع ما يحتاجون اليه من الأغذية وما يشتتونه من الفواكه والطرف وأمر الأطباء بتفقد أحوالهم في أمورهم ومداواتهم وما يصلح أحوالهم وأجرأ على الكل الانفاق من جزية اليهود لعنهم الله وأجرأ للخدماء والفقراء مالا معلوماً يأخذونه في كل شهر من جزية اليهود وبنا المدارس بفاس ومراكش ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن والعلم وأجرأ لهم المرتبات في كل شهر وأقام الدين وأمر بتطهير الأيتام وكسوتهم والاحسان إليهم بالدراهم والطعام في كل عاشوراء ، وبنا الزوايا في الغلوات وأوقف لها الأوقاف الكثيرة لاطعام عابري سبيل وذى الحاجات ، وأخرج أجناد الروم الذين كانوا يسكنون مدينة فاس عنها وبنا لهم حظيرة بخارج المدينة وأسكنهم فيها ورفع أذاهم عن الناس ، كل ذلك ابتغاء ثواب الله عز وجل ورجاء مغفرته نفعه الله بذلك .

الخبر عن سيره الجميلة ومآثره الجليلة

أذكرها مختصرة وجيزة من نظم صاحب الأرجوزة :

| | |
|-----------------------------|---------------------------|
| سيره يعقوب بن عبد الحق | قد حاز فيها قصبات السبق |
| سيرته أن يقرأ الكتاب | ويذكر العلوم والآداب |
| يقوم للصلاة ثلث الليال | وماله عن ورده من ميسال |
| حتى إذا ما الصبح لاح وانصدع | قام وصلاته للاله وركع |
| وضج بالتسبيح والتقديس | حتى يتم الحزب في التغليس |
| يقرأ أولا كتاب السير | والقصص اللاتى بكل خبر |
| ثم فتوح الشام باجتهاد | وبعده المعروف بالأنجاد |
| سؤاله يعجز عنه الطلبة | ومن لديه من أجل الكتبه |
| يقعد للكتب إلى وقت الضحى | ثم يُصلّيها كفعل الصلحا |
| ويأمر الكتاب بالأوامر | فى باطن من أمره وظاهر |
| ويدخل الأشياخ من مريـن | للرأى والتدبير والتبيين |
| مجلسه ليس به فجور | ولا فتا عن قوله يجور |
| كانهم مثل النجوم الزهر | وبينهم يعقوب مثل البدر |
| قد أليس الوقار والسكينة | وحلّ فى مكانة مكينة |
| حتى إذا ما جاء وقت الظهر | قام إلى بيت النداء والفخر |
| يبقى إلى وقت صلاة العصر | يأتى لتقييد النهي والأمر |
| فينصف المظلوم ممن ظلمه | ولم يزل إلى صلاة العتمه |
| ثم يؤمّ بيته الكريم | ويترك الوزير والخديم |
| ثم ينام تارة وتـاره | يدبر الأمور والإداره |
| ولن ينام الليل إلا ساهرا | ينوى الجهاد باطناً وظاهرا |
| ورأيه يصحبه التمكين | مبارك طالعه ميمون |
| فأمن الغرب من الفساد | ونشر العدل على البلاد |
| ولم يدع فى الغرب من يجور | وزالت الأهوال والفجور |

وخضعت مريـن تحت قهــــره وأذعنوا لنهْيِهِ وأمــــره
ورفع الظلم عن الرعيــــه وقع الطفلة في البريــــه
فما سمعتم مثل هاذي السيــــره وعذه المآثر الأثيــــره
فذاك كان فعله قديــــم بذئ نال الملك والتعظيم

وفي سنة ثمان وخمسين المذكورة خرج أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق من فاس الى رباط تازة ليشتشرف منها على أخبار يغمراسن بن زيان .
وفيها قتل السبع الفارس بن زيان أخا يغمراسن .

وفيها قتل أبو يحيى القطراني بسجاسة وزحف منها الى المرتضا .
وفيها سار أولاد أبي بكر بن عبد الحق : إبراهيم وأبو مظهر وإخوتهم الى بلاد غمارة غاضبين على أمير المسلمين يعقوب ومنافرين له ، فصالحوا يوسف بن الأمير صاحب طنجة على أن له المدينة الحاضرة ولهم البادية من أحوازها فأقاموا هنالك في بني لحيم .

فيها سار يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق عن عمه أمير المسلمين منافراً الى بلاد تامسنا ليستوطنها برسم الرعي والصيد بزعمه ، فتحاول إلى غبولة، نزل بدواره بها وأقام يريد الحيلة في دخول سلا وملكها، وكان والى سلا للمرتضا في تلك السنة أبو عبد الله بن أبي يعلا الموحد ، فدخل عليه يعقوب ابن عبد الله المذكور رباط الفتح بالحيلة أنه يدخل فيه الحمام فلما حصل بقصبة رباط الفتح قام بها وأخرج عنها ابن أبي يعلا فاراً بالليل وترك ماله وحرمة وسار في البحر حتى وصل الى أزموور ثم سار الى مراکش، ولما بلغ يعقوب ابن عبد الله مدينة سلا ضبطها لنفسه مضاعياً بها لعمه أمير المسلمين وحدث نفسه بأمور غير ناجحة .

وفي ثانی شوال من سنة ثمان المذكورة غدر الروم مدينة سلا وكان بها الحدث العظيم ، فبينما أمير المسلمين يعقوب رحمه الله برباط تازة كيف انصرف من صلاة العصر من اليوم الرابع من شوال المذكور اذ اتصل به الخبر أن التصاري دمرهم الله تعالا دخلوا مدينة سلا غدرأ فقتلوا رجالها وسبوا

حريمها وأموالها وتمنعوا بها وأخذوا في تحصينها ، فركب أمير المسلمين من فوره ذلك وخرج من رباط تازة مبادراً ومسرعاً لاغايتها واستنفاذها مشمراً على ساعده في أمرها ، وكان خروجه من رباط تازة لاغايتها بعد أن صلا العصر من اليوم الرابع من شوال في الوقت الذي اتصل به الخبر فيه فسار في نحو خمسين فارساً من أعيان مرين بقية يومه وأسئرا ليلته تلك ، ومن الغد صلاً العصر بظاهرها ، فكان مسيره من رباط تازة إلى سلا في يوم وليلة ، فنزلها على مَن بها من الروم وتداركت الجيوش وتلاحقت العساكر والجنود المطوعة والحشود ، وأتت القبائل من جميع المغرب ، فحاصر الروم بها وضيق عليهم بالقتال ليلاً ونهاراً حتى فتحها وفر الروم عنها قهراً بعد أربعة وعشرين يوماً من دخولهم إياها ، فلما خرج النصارا عنها وملكها بنا عليها السور الغربي الذي يقابل الوادي من الناحية التي دخلها النصارا منها ، فانها كانت لا سور عليها من تلك الجهة الغربية فبناه رحمه الله من أول دار الصناعة إلى البحر ، وكان يقف ويمكن الصخر إلى الصنَّاع كل ذلك بيده ابتغاء ثواب الله عز وجل وحيطة على المسلمين ، فلم يزل مقيماً بمدينة سلا حتى تم السور بالبناء والتحصين ، ثم خرج إلى مدينة أنفا فملكها وملك جميع بلاد تامسنا وبابج له جميع قبائلها .

وفي هذه السنة وصلت هدية المرتضا صاحب مراکش الى أمير المسلمين يعقوب صاحب المغرب ومعها رسالة من الصلحاء وسائر الموحدين يطلبون صلحه وموادعته ، فصالحه أمير المسلمين على أن جعل الحد بينه وبينه وادي أم الربيع .

قال صاحب التاريخ عفا الله عنه :

لما ولي أمير المسلمين يعقوب رحمه الله ملك المغرب ظهرت سعادته وبركته على البلاد ، فأنزل الله تعالى بها من البركات وأفاض عليهم بيمن أيامه وإقبال دولته الخيرات ، وأدرَّ عليهم أصناف الأرزاق وضروب النعم ، فإرا الناس فيها من الأمن والرخاء والدعة ووفور النعم وتوالي الخصب والاقبال والبركات ما لا يوصف ولا يقوم أحد بشكره ، فكان القمح يُباع في بلاد

المغرب بسبعة دراهم للصحفة الواحدة والشعير ثلاثة دراهم للصحفة ، والفول وجميع القطاني ما لها سوم ولا يوجد من يشتريها ، والدقيق الطيب بمدينة فاس وغيرها من بلاد المغرب ربع (14) بدرهم ، والعسل ثلاثة أرتال بدرهم والزيت أربعة أرتال بدرهم ، والسمن رطل ونصف بدرهم ، ولحم البقر مئة أوقيه بدرهم ، والكبش ستة دراهم ، والشابل الطري بغيراط وثلاثة بدرهم ، وكذلك المالح (15) ، والملح حمل بدرهم ، والزبيب درهم ونصف للربع ، والتمر ستة أرتال بدرهم (16) وذلك بفضل الله ورحمته وبركة دولة أمير المسلمين وبنين خلفته وحسن سيرته في رعيته وجميع المسلمين وصفاء نيته وقلبه لهم .

وفي سنة ثمان وخمسين المذكورة قام علي بن عمر بسجلماسة بدعوة المرتضا وقتل أبا يحيى القطرائى الناصر بها بعد موت الأمير أبى بكر بن عبد الحق فكانت إمارته بها سنتين .

وفيهما توفي بفاس الشيخ الصالح أبو العباس بن الصباغ وذلك يوم الثلاثاء السادس من شوال منها .

سنة تسع وخمسين وستمئة

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وستمئة فيها فسد ما بين أمير المسلمين يعقوب والمرتضا ، فصرح أمير المسلمين بجيوشه في أطراف بلاده .

وفيهما كانت وقعة أم الرجلين بين أمير المسلمين يعقوب وجيوش المرتضا من الموحدين والعرب والأغزاز والروم وكان المرتضا قد استنخب هاذا الجيش وقدم عليه يحيى بن عبد الله بن وانودين وأعطاه الطبول والبنود وبعثهم إلى حرب أمير المسلمين ، فالتقوا في وادى أم الربيع فهزمهم أمير

(14) أى ربع قنطار ، وكان من عادة الأغنياء أن يهدوا إلى بعضه البعض فى الولائم الكبش والربع أى ربع قنطار من الدقيق .

(15) أى الجاف الملح الذى يبيس بعد صيده ليرسل إلى داخلية البلاد فيما بعد ، وقد استمرت صناعة تببيس الشابل إلى أن ظهرت وسائل النقل السريع ووسائل التبريد الحديثة فبطلت .

(16) قارن بين هاذا النص والنص الوارد فى القرطاس ص 216 .

المسلمين يعقوب وأفنا جموعهم وأبطالهم فى الوادى وبه جزيرات مرتفعات
ينقسم الوادى بينها فسميت الوقعة وقعة أم الرجلين وفر الباقون وتركوها على
وأموالهم فاحتوا بنو مريـن على ذلك كله ، وكان المرتضا قد استعد لهاذه
الغزوة غاية الاستعداد وبعث فيها وجوه الموحدين وأشياخهم من سفيان والخلط
والأنـبـج وبنـى جابر وبنـى عاصم وقواد الروم والأغزاز والمصامدة ولم يترك من
جيشه إلا نفرأ .

وفىها نزل محمد المستنصر صاحب تونس ومغبدون بن فرنده النصراني
فى مدينة مليانة على الفقيه أبى علي المليانى القائم بها فأذاقوها شراً ونصبوا
عليها الجانيق حتى دخلوها بالنقب يوم عيد الفطر .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشر من ذى القعدة منها ملك النصارا قسبة
شريس .

وفىها أمر أمير المسلمين يعقوب باخراج النصارا من فاس وبنا لهم
المرس القديم بخارج باب الشريعة على يد عامله عليها أبى العلاء بن أبى طلحة .

وفىها تنصر السويد أبو زيد أخو أبى دبوس باشبيلية ، فخلق الفتنش
لحينه بيده وكساه حلة ووقفه على رأسه فلما كساه الحلة صعد على كرسي عال
يشرف منه على الناس ثم قال أشهدكم يامـن حـضر من المسلمين والنصارا
واليهود أنى قدمت على دين النصرانية منذ أربعين سنة ، وكنت أكتنه وأنا
الآن قد أبجته وأظهرته ، وأن دين المسيح بن مريم هو الدين القديم الأزل
فتلكم له الفتنش حين غبـطه النصارا بدينهم .

وفىها ملك أمير المسلمين يعقوب حصن فاروط وبقي الثلج ينزل
فى هاذة السنة أربعين يوماً متوالية .

وفىها ضرب المستنصر صاحب إفريقية الخندوس بتونس .

وفىها توفي بمكناسة الفقيه الأستاذ المقرئ الكاتب البارع محمد بن
عبدون بن قاسم الخزرجى أديب وقته وشاعر عصره فى العشر الأول من
ذى القعدة منها .

سنة ستين وستمئة

ثم دخلت سنة ستين وستمئة فيها طلع أمير المسلمين يعقوب إلى سجلماسة فحاصرها ونصب عليها الأكبش ثم ارتحل عنها إلى المغرب .

وفيهما نافق يعقوب بن محمد بن عبد الحق بجبل علودان فنزل عليه الأمير أبو مالك وعلي بن زيان حتى نزل بالآمان .

وفيهما نافق محمد بن إدريس بقصر كتامة .

وفيهما مات السويد أبو زيد المُنْتَصِر باشبيلية بعد أربعة أشهر من تنصره .

وفيهما مات عواج العربي بمراكش .

وفيهما سار أمير المسلمين يعقوب إلى مراكش فنزل بجبل كلبز وأقام به ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع من نزوله ركب في جميع جيوشه المنصورة ثم أقبل حتى نزل على باب المدينة ، واصطفت جيوشه أمامها وبرز عليها في أحسن تبريز فانحصر المرتضا بداخلها وغلّق على نفسه أبوابها ، وفي ذلك يقول شاعره عبد العزيز في رجزه الوجيز :

| | |
|-------------------------|--------------------------|
| في عام ستمئة وستين | سار لمراكش سلطان مرين |
| فوقف المنصور في كليبز | مُبرزاً في أحسن التبريز |
| وعاد بها المرتضا محصورا | ذا أرق في قصره مقصورا |
| ودارت الأعراب بالأسوار | واعتمدوا فيها على الحصار |

فأخرج له ابن عمه السيد إدريس الملقب بأبي دبوس فكان يقاتله على باب مراكش إلى أن دخلت سنة إحدا وستين والحرب قائمة بينهما مدة شيرين .

السنة الحادية والستون وستمئة

ففيهما توفي الأمير عبد الله الملقب بالعجب ابن أمير المومنين يعقوب على مراكش ، وكان أفرس من ركب السروج في زمانه ، فلقب بالمعجب

لجماله وكرمه وشجاعته ونجدته وعلو همته ، فارتحل أمير المؤمنين عن مراكش بسبب قتل ولده ، فدخل مدينة فاس في آخر شهر رجب من سنة إحدى وستين المذكورة .

وفيها كان طلوع النجم أبي الذوائب ، وكان أول ظهوره يوم الثلاثاء الثالث عشر لشعبان المكرم من السنة المذكورة ، بقي يطلع في كل ليلة وقت السحر نحواً من شهرين .

السنة الثانية والستون وستمة

فيها جاز المجاهدون من بنى مرين والمتطوعة من أهل المغرب إلى الأندلس برسم الجهاد وقادهم الأنجد محمد بن إدريس بن عبد الحق ، وأخوه الفارس المجاهد عامر ابن إدريس والحاج المجاهد التاهرتي فجازوا في جيش عظيم من بنى مرين وقبائل المغرب خيلاً ورجالاً يزيدون على ثلاثة آلاف بين فارس وراجل ، فعقد لهم أمير المسلمين يعقوب رايته المنصورة ، وجهزهم بالخيـل والعدد ابتغاء ثواب الله عز وجل ، وكتب إلى الفقيه أبي القاسم العزفي صاحب سبحة في تجويزهم ، وودعهم ودعا لهم وانصرفوا من حضرته ، فجازوا إلى الأندلس ، وهو أول جيش جاز إلى الأندلس من بنى مرين ، والسبب في جوازهم أن النصارا دمرهم الله تعالى كانوا قد تكالبوا على بلاد المسلمين بالفارات والسبي فأبادوا أكثرها وأهلكوا قواعدها ففتجج أهل العدو لحالهم ، فصنع الفقيه الأديب مالك بن المرحل رحمه الله قصيدة يحرض فيها بنى مرين وسائر المسلمين على جهاد الكافرين ونصرة من في بلاد الأندلس من المسلمين المستضعفين ، فانه رحمه الله كان في تلك السنة بمدينة فاس يكتب للأمير أبي مالك بن أمير المسلمين يعقوب ، فقرئت القصيدة بصحن جامع القرويين من فاس يوم الجمعة بعد الصلاة فبكوا الناس عند سماعها وانتدب كثير منهم للجهاد والقصيدة :

| | |
|-------------------------------|--------------------------|
| استنصر الدين بكم فاندماوا | فانه إن تسلموه يُسَلِّمُ |
| لا تسلموا الاسلامَ يا إخواننا | وأسرجوا لنصره والجموا |
| لاذت بكم أندلس ناشدة | برحم الدين ونعم الرحيم |

لا يرحم' الرحمان' مَنْ لا يرحم'
وأهلها منكم وأنتم منهم'
فالبحر' من حدودها والعجم'
دارت بيا من العدا جهنم'
لكل ذى دين' عليها ندم
مكة' حزناً والصفاء وزمزم
أيامها إلا الصبا والجلوم
واقتردوا واحتكموا وانتقموا
وأنكلوا ويتيموا وأيموا
والجوع' والفتنة' وهي أعظم
إلا ذماء تدعيه الذمم
بأنها بحيلكم تعتصم
أن ليس لله جنود تقصم
يفضب للإسلام حين' ينظلم
يحفظها شبابكم والهـرم
عدوا' على جيرانهم واحترموا
أن قد رمتهم بالشعاع الأنجم
من نحوكم أخطاهم التقصم
واقترعوا عليهم' واقتسموا
وأحبستهم نغم' ونغمهم
عنهم ؟ وأنتم فى الأمور أحزم
الأجر' فيها وافر' والمفهم
وعزموا أن يهزموا فهزموا
ومن رماح فى ذرا تحطم
زلت لأهل الصدق منهم قدم
كريمة ففاض منها الحكيم
فاجتمعوا ببابه وازدحموا

واسترحمتكم فارحموها إنه
ما هي إلا قطعة من أرضكم
لكنها حدثت' بكل' كافر
لهفاً على أندلس من جنسة
استخلص الكفار منها مدناً
قرطبة' هي التى تبكى لها
وحمص' وهي أخت' بغداد وما
إستخلصوها موضعاً فموضعاً
وقتلوا ومثلوا وأسروا
أيام كان الخوف من أعوانهم
حتى إذا لم يبق من حياتها
دعوا العهود واعتدوا وما دروا
ظنوا وكان الظن' منهم كاذباً
ما صدقوا إن وراء البحر مكن
ولا دروا أن لديكم حرمة
لو عرفوا قبائل العذرة ما
اليوم يدرى كل شيطان بها
تقدمت نجومهم طليعة
فانتصفوا للدين من أعدائهم
وامتلأت أيديهم من السبى
يا أهل هاذى الأرض ما أخركم
تسابق الناس' إلى مواطن
فغزوا الكفار فى ديارهم
فمن سيوف فى رؤوس تنحنى
وقامت الحرب' على ساق فما
باعوا من الله الكريم أنفسهم
دعاهم الله إلى رجعتهم

مَيْتُهُمْ قَدْ قَرَّ فِي رَحْمَتِهِ
يُضْرَبُ بِالسَّيْفِ فَيُرْضَى رَبُّنَا
أَخْرَجَهُ مِنْ بَيْتِهِ إِيْمَانُـهُ
مَا مَمْنُهُ إِلَّا قَتَالُ أُمَّةٍ
تَشْرِكُ بِاللَّهِ وَتَدْعُو مَعَهُ
وَتَدْعِي أَنْ لَهُ صَاحِبِيَّةٌ
لَمْ يَشْنِ عَنْ عِزِّهِ أَهْلٌ وَلَا
كَيْفَ وَعَدَنْ تَحْتَ ظِلِّ سَيْفِنَا
وَاللَّهُ رَاضٍ عَنْهُ وَالْخَلْقُ لِسُنَّةِ
إِخْوَانِنَا مَاذَا الْقَعُودُ بَعْدَهُمْ
هَلْ هِيَ إِلَّا جَنَّةٌ مَضْمُونَةٌ
حَدُّوا السِّلَاحَ وَانْفِرُوا وَسَارِعُوا
إِنْ أَمَامَ الْبَحْرِ مِنْ إِخْوَانِكُمْ
وَنَجُوكُمْ عِيُونُهُمْ نَاطِقَةٌ
وَالرُّومُ قَدْ هَمَّتْ بِهِمْ وَمَالُهُمْ
كَلِمُهُ يَنْظُرُ فِي أَطْفَالِنَا
أَيْنَ الْمَفْزُ لَا مَفْزَ إِلَّا مَنَا
يَارِبُ وَفَقْنَا وَأَلْهَمْنَا لَمَنَا
يَارِبُ أَصْلَحْ حَالَنَا وَبَالِنَا
يَارِبُ وَانْصَرْنَا عَلَى أَعْدَائِنَا
يَارِبْنَا مَا دَاوْنَا شَيْءَ سَوَى

وَحَيْثُهم بَيْنَ يَدَيْهِ يَخْـدَم
وَفِي رِضَا الرَّبِّ النَّعِيمِ الْآدَمِ
وَحَيْثُ فِي فِعْلٍ مَا يُقْـدَم
يَكْبِرُ عِيسَى قَوْلُهُمْ وَمَرِيَمُ
خَلْقًا يَصْبِحُ جِسْمُهُ وَيَسْقَمُ
وَابْنًا وَلَا صَاحِبَةً وَلَا ابْنَمُ
مَالٍ وَلَا خَوْفَ نَعِيمٍ يَعْدَمُ
وَالْحَوْرُ عَنْ يَمِينِهِ تَسْلَمُ
يَدْعُونَ مَهْمَا كَبُرُوا وَأَحْرَمُوا
أَفَى ضَمَانُ اللَّهِ مَا يَتَهَمُ
أَوْعُودَةُ صَاحِبِهَا مَكْرَمُ
إِلَى الَّذِي مِنْ رَبِّكُمْ وَعِدْتُهُمْ
خَلْقًا لَهُمْ تَلَفَّتْ إِلَيْكُمُ
لَا تَطْعَمُ النَّوْمُ وَكَيْفَ تَطْعَمُ
سِوَاكُمْ رَدًّا فَأَيْنَ الْهَيْمُ
وَدَمْعُهُ مِنَ الْحَذَارِ يَسْجُمُ
هُوَ الْغِيَاثُ أَوْ إِسْـسَارُ أَوْ دَمُ
فِيهِ لَنَا الْخَيْرُ فَانْتَ الْمَلْهُمُ
أَنْتَ بِمَا فِيهِ الصَّلَاحُ أَعْلَمُ
يَارِبُ وَاعْصِمْنَا فَانْتَ تَعْصَمُ
ذُنُوبِنَا فَارْحَمْ فَانْتَ تَرْحَمُ

وفى هذه السنة نزل الفتنش لعنه الله على مدينة غرناطة فأقام عليها أياماً وأقلع عنها خائباً خاسراً .

وفىها نازل عامر بن إدريس بن عبد الحق مدينة شريش فدخل ربضها بالسيف هو ومن كان معه من المطوعين من قبائل المغرب .

وفى ذى الحجة منها توفي إدريس بن أبى طلحة عامل أمير المسلمين على مدينة فاس ورباط تازة .

وفيهما توفي علي بن عمر عامل سجلماسة للمرتضا ، فقام بها عرف
الحياني بدعوة يغمراسن بن زيان وبعثوا إليه فبعث إليها عاملا من بني عبد
الوادي ، وملكها يغمراسن ولم تزل بيده إلى أن دخلها أمير المسلمين يعقوب
في سنة ثلاث وسبعين وستمئة .

وفى يوم الجمعة الثالث عشر من شوال منها أخرج عامر بن إدريس
النصارا من قسبة شريش ، وكانت مدة ملكهم لها ثلاث سنين تنقص اثنان
وعشرون يوماً .

وفيهما قتل ثابت وعائد ابنا هرقل المغراوي أخاهما محمد بن منديل
وجعل البازي يأكل من لحمه ، وكانت مدة إمارته على مغراوة خمسة عشرة عاماً
 وخمسة عشر يوماً .

وفيهما قام المسلمون الدجن بالأريولة على الروم فغلبهم الروم فقتلوا
من الروم خلقاً كثيراً ؟ .

وفيهما ثقف عامر ابن ادريس ابن محفوظ صاحب لبلة .

وفيهما أخذ المسلمون حصن برقي .

وفيهما أعطا ابن يونس مدينة اسجة الى دون جيل الرومي وأدخله
المدينة ، فأخرج عنها المسلمين ثم قتلهم وسبوا حريمهم وأموالهم إلا قليلا
منهم تداركهم دون نونه فأطلقهم من يده ونفاهم لاسنه وقائدها يومئذ ابن
ربيبه وعذل دون جيل على غدره بالمسلمين ولامه على ذلك ، وكان بين الاخراج
الاول والثاني ستة أشهر .

السنة الثالثة والستون وستمئة

فيها بعث العزفي صاحب سبته أجفانه إلى هدم مدينة أصيلة وتخريبها
وهدم قصبته لأنها كانت قد خلت من الناس ، فخاف عليها بسبب خلائها أن
يملكها العدو فيؤذي المسلمين .

وفيها عزم الفتنى لعنه الله على استئصال بلاد المسلمين التى بالأندلس وعزم أن يبعث الى كل بلدة منها جيشاً من الروم يحاصرها ، فخاف الناس من ذلك وضجّوا لله بالدعاء فى صرف ذلك عنهم .

وفى شهر محرم منها كتب الفقيه أبو القاسم العزفى رسالة الى قبائل المغرب وصلحائهم يستنفرهم بها إلى الجهاد ، كتب منها نسخاً وبعثها إلى سائر بلاد المغرب وبلاد المصامدة فقرئت على الناس ، ونص الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم صلاً الله على سيدنا محمد وآله

إلى أولياء الله الصالحين ، وعصابة حزبه المفلحين ، وأعلام الاسلام المكرمين ، وكافة من دنا وبعُد من عباد الله المسلمين ، وصل الله بالذكر انتفاعهم ، وحسن لأحسن القول استماعهم ، وجعل على البر والتقوا تألفهم واجتماعهم . ويسرّ لجهاد أعدائه وإظهار الدين وإعلانه مبادرتهم وإسراعيهم ، من وليّهم فى الله حيث حلوا من نواحى البلاد ، ومعتمد كبيرهم وصغيرهم متوسلين بالاكابر ولايثار والوداد ، ومعتمد النصيح لهم ملاً الجوانح والفؤاد ، ومرغيبهم فيما فيه عز الدنيا وفوز المعاد ، ومستنهضهم لما يلحق إليه ويقل هجر الكرا ووصل السهاد ، وقطع متون الديار وبطون الوهاد ، من أبى القاسم محمد بن أحمد العزفى وفقه الله ، سلام كريم عميم يخص معشر إخواننا المسلمين ورحمة الله وبركاته ، أما بعد حمد الله مفترض فرض الجهاد ، وجاعل الجنة تحت ظل السيوف الحداد ، والصلاة على سيدنا محمد نبيه الهادى إلى سبيل الرشاد ، والمؤيد باللائكة المسومين أكرم الامداد ، ومظهر دينه بين حسن الجدال وصدق الجلال ، وعلى آله وصحبه الذين فانت فضائلهم التعداد ، وانفردوا بشرف الايثار ومزية الهجرة والنصرة أشرف الانفراد ، والرضا عن الخلفاء الراشدين القاصدين فى كل أقوالهم وأفعالهم قصد السداد ، والدعاء لأهل الاسلام بالنصر الذى له مزيد الازدياد ، والظفر الذى تنقاد فيه الفتوح سهلة القياد ، والنصر الذى أيام الاسلام به ميسم الاعياد ، فكتب كتب الله

لكم في حماية حماه أحسن الايثار ، وأمدكم في إعلاء دينه وإظهاره بمزيد الاعلاء والاظهار ، وجعلنا وإياكم ممن يبادر الى الخير أشد البدار ، من سبته كلاها الله تعالى ، وصنع الله بها جميل ، وفضله اعتاد لا يتعذر معه تأميل ، ونعمه التي خولها عباده لا يستوفون حسن انسيابها الجميل ، عن نية يعلم خلوصها عالم النجوا ، وجد في التماس التعاون على البر والتقوا ، وتذكير تنبث به الحفاظ في ذات الله وتقوا ، واحتساب بمقتضا الشفاق ، صير كلماتي هاذة زاد الرفاق لجميع الآفاق ، تخاطب ذوى الأحلام ، وتستصرخ حماة أهل الاسلام ، ويجعل كتابي هاذا مثير كئابهم ، ومقتضيا بصولة توافر عزائمهم ، وقد قال تعالى وهو أصدق القائلين : (وذكر فإن الذكر تنفع المؤمنين) ، والحكمة لصدى القلوب جلاء ، والنفوس ما لم تذكر للفلقات عليها استيلاء ، والله ينفعنا بالذكر ، ويجعلنا وإياكم ممن رغب عن الدنيا رغبة في الأخرى ، وقد كان في هاذة السنة والتي قبلها من تحرك الناس للجهاد ، وانبعثت عباد الله لنصر دين رب العباد ، ما اشتهر خبره ، وظير للعيان أثره ، وتجل به النصر ولينصرن الله من ينصره ، وجلا عن وجه الصنع الغريب ، في الزمان القريب ، فسارت به البشائر ، وتجاوزت به أطراف طرف الحديث في مجالسهم العشائر ، ونثرت في كافور الصحف مسكيا الأقلام ، وسفرت عن رونق محاسنها وجوه الأيام ، ولكن جموعاً من المجاهدين شق عليها اغترابها ، وبساقها الحنين إلى أرض مس الجلد ترابها ، وتذكرت خيلها مرابطها ، وكأنها شاققت دون الأندلس فانتجعت من أرضها مساقطها ، فكروا راجعين ، وصدروا على أعقاب الورود مسارعين ، والكلم في العدا لم يرقأ دمه ، وتآلفهم على أهل الاسلام لم يعلم عدمه ، والكفر يقرع بابه ، والغيط في صدور أهله قد تمكن انيابه ، وانزعاج الكفر لطلب النار قد قويت أسبابه ، والآن اتصلت الأنباء أنهم أهلهم الله قد شمروا لطلب النار ، ورفعوا شعارهم الشعار ، وبس الشعار ، يطوفون به في بلادهم ، ويطلبون منه النصر على أضدادهم ، ويسألون مغفرة الذنوب قسيسهم وعبادهم ، ومن يغفر الذنوب الا الله ، تباً لرأي الكفرة ، وبس ما أشركوا مع الله في المغفرة ، واعجبا لنصر طلبوه ، من مرفوع زعموا أن اليهود صلبوه ، تباً لما أجمعوا عليه ، وما قتلوا يقيناً

بل رفعه الله إليه ، ومع جهالتهم وضلالتهم قد لجوا في طغيانهم ، وأطاعوا أمر غواتهم في عصيانهم ، وبذلوا في الاستنفار من أقاصي الأقطار أقصا وسعهم وجعلوا شهر هاذأ الآتي قريباً موعداً قالوا لا نخلفه ، وتأهبوا لتلافى أمرهم المخنل والله سبحانه بحوله وقوته متلفه ، ونحن عباد الله لا نشرك بعبادته أحداً ، ولا ندعى له صاحبة ولا ولداً ، ولا نمدُّ لغيره في سؤال المغفرة يداً ، ولا نستوهب النصر لأحد سواء ، ولا نتوسل إلا بأكرم الخلق عليه محمد بن عبد الله ، رسولہ وعبدہ ، وفيما كتابه الكريم يتلا ، وآياته التي هي على مرّ الأيام لا تبلا ، وأحاديث النبي (ص) تكتب التجارة الربحية ، والحياة الدائمة الصالحة ، فانه من قنيل في سبيل الله فهو حي يرزق ، بذلك شهيد الكتاب ونطق ، فقال تعالا : (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات ، بل أحياء ، ولكن لا تشعرون) ، أفى الحق عباد الله أن تزهّدوا في الجهاد ، وتناموا عن الكفرة وأعينهم منكم في سهاد ، وتسلموا من المسلمين بالأندلس إخواناً في الله توالونهم ويوالونكم ، من تتواقوا عن الأعداء بتقدّم الأبهة يستعجلونكم ، وقد قال تعالا : (وقاتلوا في سبيل الله الذين بقاتلونكم) ، يابا الله إلا قتالا في سبيله ، وامثالا لما نزل به الروح الأمين على قلب رسولہ ، وطعنأ في نحور العدا يشفى به الاسلام من غليله ، فانهضوا رحمكم الله إليهم متقدمين ، (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) ، ولا يثبط بعيدا طول مسافة المعاد ، ولا يؤلم منقفا إنفاذ بعض المستفاد ، فما أنفقتموه في ذات الله هو الذي لم تدركه يد النفاذ ، (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) ، والتهلكة عند أبى أيوب ترك الجهاد والجهاد باب فرض لجنة العروض ، وفرض على أمة محمد (ص) مفروض، من تركه رغبة عنه ألبسه الله الذل والصغار ، والرغبة عنه وان اجلبت ذل وهوان ، ولكن لا جهاد الا بنية ، وعقيدة على إعلاء كلمة الله مبنية ، فقد آن عباد الله إخلاص النية ، والتماس ما عنده من الدرجات السنية ، ولا تخلدوا بركون ، الى سكون ، والدين يدعوكم لنصره ، وصارخ الاسلام اسمع أهل عصره ، والصليب قد أوعب في حشده ، فالبدار البدار بارهاب الجدد ، واعمال الجهاد في ليل الجدد ، ولم لا نرسل في الجهاد الأعنة ، ونعمل

فيه النيات والصوارم والأسنة ، ونستوهب من الله النصر بالتضرع والمسكنة ، ونستصلح بسؤال توفيقه خبال الصدور المستكنة ، أما أنا مَنْ كان قبلنا خطاب (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) ؟ أما أنذركم باعث الاشفاق ، بقوله (ص) (مَنْ مات ولم يغز ولم يحدث نفسه به مات على شعبة من النفاق) ؟ أما سمعتم حديث أبى أمامة أن رسول الله (ص) قال : مَنْ لم يغز أو يُجَهزْ غازیاً أو يخلف غازیاً فى أهله بخير أصابه الله بقارعة يوم القيامة ، ففيم ضعف المزبلة ؟ والشح ببذل النفس الكريمة ؟ إمساك خشية إنفاق ؟ أو الجبن هو من مساوى الأخلاق ، ربّ ناكل عن قرنه لم ينجح منه بنكول ، ومخاطر بين ثناء الخطار متع من أيامه بطول ، وقد تعاضدت فى الجهاد الآيات والأخبار ، فقال (ص) ما اغبرّت قدم عبد فتمسه النار ، فحذار أيها الملتزم حذار ، وخف أن تكون مقيماً ، وتوق وعيد (إلا تُنْفِرُوا يَعْذِبْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ، (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فى سَبِيلِ اللَّهِ ، ذَالِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ، فما للتأخر سبيل ، ولا فى ظل التوانى للمجد من مقيّل ، وكتاب الله تعالى أوضح بيان وأهدأ سبيل ، فقد قال تعالى : (فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، وَمَنْ يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) ، وقال جل وعلا : (فقاتل فى سبيل الله ، لا تكلف إلا نفسك ، وحرض المؤمنين ، عسا الله أن يكفّ بأس الذين كفروا ، والله أشدّ بأساً وأشدّ تنكيلاً) ، وقال تعالى : (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فأنهم يَأْلُمُونَ كما تَأْلُمُونَ وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليماً حكيماً) ، وقال تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ورباط الحبل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم) ، وقال تعالى : (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مومنين ويذهب غيظ قلوبكم ، ويتوب الله على من يشاء ، والله عليكم حكيم) ، وقال تعالى : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين) ، وقال تعالى : (إِنْ الله اشترى من المومنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والانجيل والقرآن) ، وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إِنْ تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ، وقال تعالى : (يا أيها

الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذالكم خير" لكم إن كنتم تعلمون يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذالك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) ، وقال رسول الله (ص) فيما يروى عن ربه عز وجل يقول الله تعالى : (ضمنت لمن خرج من بيته لا يخرج إلا الجهاد في سبيل وإيماناً بى وتصديقاً برسلى أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة) ، وقال رسول الله (ص) (مثل المجاهد في سبيل الله كمثل القائم القانت بآيات الله لا يفتر عن صيام ولا صلاة حتى يرجع الى أهله) ، وقال عليه السلام : (لغزوة في سبيل الله أو راحة خير من الدنيا وما فيها) ، وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال رسول الله (ص) من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا) ، وعن أبى هريرة عن النبي (ص) قال : (لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبداً) ، وقال عليه السلام : (من طلب الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه) ، وقال عليه السلام : (إن في الجنة مئة درجة أعداها الله للمجاهدين في سبيله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض) ، وقال عليه السلام : (الجنة تحت ظلال السيوف) ، وقال عليه السلام : (من خرج مجاهداً في سبيل الله فمات أو قتل أو وقصه فرسه أو لدغته هامة أو مات على فراشه أو بأي الحتف شاء الله فإن له الجنة وهو شهيد) ، وقال عليه السلام : (يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته ومن جرح في سبيل الله فإنه يحيى يوم القيامة وجرحه يدا ، اللون لون دم ، والرائحة رائحة المسك ، وإن الشهيد لا يجد من مس القتل المأ ، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم) ، وقال عليه السلام : (رباط يوم في سبيل الله أفضل من صيام ألف يوم وقيام ألف ليلة) ، وقال عليه السلام : (من كبر تكبيرة في سبيل الله كانت له في ميزانه يوم القيامة أثقل من السماوات والأرض وما فيهن) .

وهأذه أعزكم الله تعالا بطاعته ، وجعلنا وإياكم ممن أسرع إلى الخير بأشد استطاعته ، آيات الكتاب العزيز واضحة الدلالة ، وأحاديث رسول الله

(ص) لائحة عليها أنوار الرسالة ، أما فيها غنية ليليب ؟ ألم تجمع بين الترغيب والترهيب ؟ وأنتم معشر العلماء والصلحاء تلزمكم دون من دونكم عهدة التذكير والتبصير ، فقوموا لله مقاماً محموداً ، واتقوا الله وقولوا قولا سديداً ، وحرضوا على الجهاد عن أركانكم ، وقوموا إلى الله تعالا صدق التجانك ، تظفروا بذلك مناكم ، ولستم لا تحرضون بأمكنتكم ، وتجاهدون قبل الجهاد بالسنتكم ؟ وأنتم بفضل الله متيقظون ، ولما أمر الله به ونها عنه متحفظون ، والناس بما استيقظتموهم أيقاظ ، وإذا استثرتهم حقائقهم فعندهم بحول الله حفاظ ، فانما هم لكم أتباع ، وهاذه الجنة فهل لها من مبتاع ؟ وهاذا أوان صدق العزيمة ، والقيام لله بهاذه الوظيفة العظيمة ، وأولا من خص بالتذكرة ، للعب. بالموعظة المذكرة ، رؤساء هاذه العدو وأمرأها ، وأشياخ القبائل وكبرأؤها ، فقد أوسع الله لهم في العطايا ، وبسط في الرعايا ، ومكن لهم في أرضه خير التمكين ، ووفرهم من الحماة بأمثال آساد عرين ، وأرجو أن الله تعالا ينصر هاذا الدين ، بسيف العصاة المباركة بنى مرين ، إذ هم الليوث الظافرة ، ولهم الأعداد الوافرة ، والجموع المتكاثرة ، والعساكر التي تسيل بالقضاء منها البحور الزاخرة ، من كل أسد هائج للكفاح ، ومنضى غضب بيده في ظلام القتام غرة الصباح ، وممتطى صهوة جواد كمنحظ الصخرة ومنقض الطير وعاصف الرياح .

قوم إلى بر بن. قيس نماهم نسب على أوج النجوم مخيم
بالبيض البيضات والحلق اكتسوا فتوشحوا وتوجوا وتختموا

فكيف يتنعمون بنعماء ، ولا يمنعون حماه ؟ ويؤمرهم الله على أوليائه ، ولا يأمرهم له في أعدائه ، بأي دينهم الذي به إلى الله توسلهم وتوصلهم إلى جهاد في سبيله ، وابتغاء لما عنده من جسيم الثواب وجزيله ، وتلبية لصارخ الاسلام ، وخفة لنصرة تحتها راحة الأحلام ، ورجاء لما غشي النفوس من الخطوب العظام ، وتعظيماً لما رجاه إخوانهم المسلمون لشملهم من الانتظام ، وأخوة الدين تنشدهم برحمها ، وتدعوهم لحفظ ذمها ، وتطالبهم برعي عهودها التي لا يشك في كرمها ، والملة الحنيئة تنادى بلسان حالها أيها المؤمن هل من عزم في الله

تمضيه ؟ وعضب لجهاد أعدائه تَنْضِيهِ ؟ وموطن يغيظ الكفار يتقبله الله ويرتضيه ؟ فقد جزا مقعد مقيم وسهرت أعينهم أسحبا الله في طلب ثأرهم ، أفيرومون الحركة ونحن ساكنون ؟ تالله ما أنصفناهم ، وإذا لم نزع المخافة عن إخواننا فنحن خوفناهم ، فما يسوغ عنهم قرار ، ولا عذر إلا لمن أقعده مرض أو إقتار ، وإن كان الكفرة قد رفعوا شعارهم الضليب ، واستنفروا له البعيد والقريب ، ونادوا والله يهلك مناديتهم والمُجِيب ، فها كتاب الله لنا شعار مرفوع ، وحديث رسوله في فضل الجهاد ووجوبه في هذا الكتاب مجموع ، فنحن أوْلا بالأسراع ، وأحقُّ عن دين الله بالدفاع ، والنصر بحمد الله قد هب ريحه ، واستوت على الكفار تباريحه ، والحزمُ ألا تُضاع فرصة عند إمكانها ، ومساعدتها السعد يدنو زمانها ، فمن صدق إسلامه ، فليصدق إقدامه والمسلم — كما قال عليه السلام — أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه ، والله يعلم أنى بالغت في النصيحة ، وقطعت بمبلغ النية النصيحة والعقيدة الصحيحة ، وامتعضت للدين أشد الامتعاض ، وتأملت من بجزيرة الأندلس من أهل الايمان وعباد الرحمن ، من الرجال والنساء والولدان ، فطويت الضلوع على حرقه الارتماض ، فمن وصل إليه هذا الكتاب فهو في دُعوتنا إلى الله وعهدته لازمة لديانته. حتى يبعث بنسخه في البلاد ، وتعم به الدعوة للجهاد ، من بالجهال والوهاد ، فيغوز من الأجر بأوفا نصيب ، ويجمع في نكاية العدوتين الرمي الأبعد والمرام القريب ، ونسأل الله العظيم أن يمدنا معشر عباده المسلمين ، بتأييده وعضده على أعدائه الكافرين ، اللهم إنا ندعوك بما دعاك به نبيك تاسياً بدعواته ، وتيمناً بكلماته ، حينما قال : اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، إهزمهم وزلزلهم وانصرنا عليهم آمين آسين . والسلام الكريم يخص من قرأه وقرىء عليه من إخواننا المسلمين ، ورحمة الله وبركاته ، كتب في العشر الأواخر لمحرم سنة ثلاث وستين وستمئة .

وفي سنة ثلاث وستين المذكورة تحرك أمير المؤمنين يعقوب بن عبد الحق إلى مراکش يرسم حصارها على أهلها فوصل إلى أحوازها فبايعه أكثر قبائل العرب والمصامدة الذين بأنحائها ، ودخلوا في طاعته فكف عنهم وأمنهم ورجع إلى مدينة فاس .

وفيهما ورد أبو دبوس الموحد على أمير المؤمنين يعقوب لفاس مستنصراً به على المرتضا ، فانه لما رجع أمير المسلمين يعقوب عن مراكش إلى فاس وشيئاً للمرتضا بأبى دبوس قائد جيوشه ، وقيل له إنه يكتب بنى مرين ويصانعهم وهو يريد القيام عليك والناس يميلون إليه لشجاعته ، فانظر فى أمره ، فأراد أن يقبض عليه فشعر أبو دبوس بذلك ففر منه ولحق يعقوب أمير المسلمين بمدينة فاس فأقبل عليه وبالف فى إكرامه وبره ، ثم قال له ما هاذة الزيارة ؟ قال لست بزائر ، ولكنى دخيل مستجير بك ، إني فرت من القتل وقصدت حماك لتنصرنى وتعيننى على عدوى وعدوك ، قال وما تريد أن نصرك به وبماذا ؟ قال : تعطينى جيشاً من بنى مرين وطبولا وبنوداً وتعيننى بما أنفق على ذلك فى طريقى وأنا أضمن لك فتح مراكش وأحوازها ، فان أكثر من بها من الجيوش والقواد والأشياخ شيعة لى ، وإذا ملكتها يكون بيننا ملكها مشتركاً نصفها لك ونصفها لى ، فأسعهف أمير المسلمين بطلبه وعاهده على ما شرط له وتوثق منه بالعهود والأيمان المغلظة . فأعطاه جيشاً من ألف فارس من بنى مرين وأعطاه طبولا وبنوداً وخيلاً وسلاحاً ومضارب ومالا ناضجاً برسم النفقة فى طريقه ، وكتب له كتاباً إلى قبائل العرب وقبائل هسكورة أن يؤازروه على مطلبه ويتقدموا بين يديه إلى قتال عدوه ، ثم ودَّعه وارتحل أبو دبوس إلى مراكش وذلك فى شهر ذى القعدة من سنة ثلاث وستين المذكورة . فنزل بمكناسة فبات بها ليلة ، ثم توجه إلى المعدن ثم إلى تادلة وعيَّد بها عيد الأضحا ثم سار إلى هسكورة فبقي بها عند مسعود بن جلداسن نحو سنة يحاول أمر مراكش .

وفيهما نزل الأمير أبو مالك على محمد بن إدريس بقصر عبد الكريم فحاصره أياماً ثم طلب الأمان فأمنه وخرج إليه وذلك ليلة الموفى عشرين من شهر رمضان منها .

وفيهما توفي أبو عياد بن يحيى بمالقة فى آخر شوال منها .

وفيهما توفيت فاطمة بنت علي بن زيان زوجة الأمير أبى بكر .

وفيهما هزم دوننه النصرانى جيش غرناطة ومرء على مالقة فيها مرتين

بالربيع والخريف .

وفيها توفي الفقيه الشريف الصالح عبد الواحد بن أحمد الحسنى الجوطى .

السنة الرابعة والستون وستمئة

فيها بايع ابن الأحمر المستنصر صاحب تونس فبعث له المستنصر هدية ومالا فى البحر .

وفيها نزل الفونش لعنه الله غرناطة .

وفى شعبان منها جاز أولاد يحيى من الأندلس ونزلوا بطنجة ، فقتلوا العباس بن محمد بن عبد الحق وعمر بن عثمان .

وفيها توفي الشيخ الصالح المبارك السواح أبو العرب الغرناطى بفاس ودفن بخارج باب الفتوح بازاء قبر الشيخ الوريائلى ، وكانت وفاته رحمه الله يوم الجمعة عند الزوال .

وفيها زوج ابن الأحمر ابنته إلى ابن عمه الرئيس سعيد بن إسماعيل ابن يوسف بن نصر ووعد بولاية مالقة فسمعها ابن اشقيلولة واليها فقام فيها وضبطها لنفسه .

السنة الخامسة والستون وستمئة

فيها سار أبو دبوس من هسكورة إلى مراكش وراية أمير المسلمين يعقوب بين يديه وجيوشه المظفرة من بنى مزين سامعة مطيعة له بعد أن كتب إلى من بمراكش من خاصته يخبرهم بقدومه ويسألهم عن حال البلد والمملكة فرجع إليه جوابهم أن اقدم فإن الناس فى غفلة والجيوش مفترقة فى أطراف البلاد وليس تجد وقت فرصة مثل هذا ، فأسرع أبو دبوس نحوها وجد السير بجيشه حتى دخلها من باب الصالحة فى ضحا يوم السبت الثانى والعشرين من شهر محرم من سنة خمس وستين المذكورة ، فتملك أبو دبوس حضرة مراكش واستقر بقصرها وفر عنها المرتضا إلى أزموور فقبض عليه والى أزموور يحيى بن عطوش وأكبلة وبعث به إلى أبى دبوس فى شهر صفر التالى لمحزم

المذكور ، فاتصل الخبر بأمير المسلمين يعقوب فبعث إليه رسوله وكتب يهنئه بالفتح وطلب منه الوفاء بالعهد الذي كان بينهما ، فلما وصل الرسول قرأ ما في الكتاب قال للرسول ما بيني وبينه عهد الا السيف ، إرجع إليه وأمره أن يبعث بيعته وأقره على ما بيده من البلاد ، فان بادر بالبيعة وسارع إلى الخدمة فهو خير له في الدنيا والآخرة ، وإن امتنع من ذلك غزوته بجنود لا قبيل له بها ، وكتب له بذلك كتاباً يخاطبه فيه مخاطبة الخلفاء إلى عمالهم والرؤساء إلى خدامهم ، فلما وصل الرسول والكتاب إلى أمير المسلمين يعقوب وتحقق عنده غدر أبي دبوس ونكت عهده وما كان شرط له وعاهده عليه عزم على غزوه .

الخبر عن خروج أمير المسلمين يعقوب من حضرة فاس الى مراكش لغزو أبي دبوس

قال صاحب التاريخ عفا الله عنه :

خرج أمير المسلمين يعقوب من حضرة فاس برسم غزو أبي دبوس الناكث لعهد في غرة ربيع الثاني سنة خمس وستين المذكورة ، فسار حتى أنزل ببلاد دكالة من أحواز مراكش جيوشه وهتكها وأكل زرعها وسبأ أموالها ، فبعث إليه أبو دبوس الشيخ الصالح المبارك أحمد بن مخلوف الهسكوري بهدية سنية يقول له : يوفى لك بما يجب وما كنت اشتترطت عليه ، فرجع أمير المسلمين يعقوب وجميع بني مرين إلى المغرب ، فلما رجع إلى فاس خرج أبو دبوس من مراكش إلى السوس ، فأتاه عرب الخلط فبايعوه وشيخهم يومئذ علي بن أبي علي .

وفيها قدمت عرب المعقل بأولادهم وأموالهم وعيالاتهم على أبي دبوس بتمازاورت وشيخهم عبد المومن بن أبي الطيب وكان قد بلغ السن العالية فبايعوه وعاد إلى نكته بأبي يوسف يعقوب .

وفى ذى القعدة منها بعث يغمراسن بن زيان ببيعته الى أبى دبوس وهو يقول له : إياك أن تطمع بنى مرين فيما لديك فانا أكفيك شرهم ، وأنا وأنت يد واحدة فى حربهم ، فسر أبو دبوس بذلك ، وقال الآن أظهر على بنى مرين ، فجمع أشياخ الموحدين والعرب فقرأ عليهم بيعة يغمراسن وكتابه فوافقوه وضربت الطبول على ذلك .

وفىها صالح ابن الأحمر الفونش على أن أعطاه ابن الأحمر نحو أربعين مسوراً من بلاد المسلمين من جعلتها شريش والمدينة والقلعة ، وقيل إن جملة ما أعطاه ابن الأحمر للفونش من بلاد المسلمين من المدن والحصون المسورة مئة مسور وخمس مسورات من بلاد شرق الأندلس .

وفىها استعان ابن الأحمر بالفونش على قتال ابن اشقيلولة الناصر عليه بمالقة ، فنزلوا عليه بها ثلاثة أشهر ولم يقدروا منها على شيء فانصرفوا عنه خائبين .

ولما أعطاه ابن الأحمر البلاد المذكورة للفونش قال الفقيه أبو محمد صالح بن شريف الرندى يرثى بلاد الأندلس ويستنصر بأهل العدو من مرين وغيرهم بهذه القصيدة :

| | |
|-------------------------------|------------------------------|
| لכל شيء إذا ما تم نقصان | فلا يغر بطيب العيش إنسان |
| هي الأمور كما شاهدتها دول | من سره زمن ساءت له أزمان |
| وهذه الدار لا تبقى على أحد | ولا يدوم على حال لها شأن |
| يمزق الدهر حتماً كل سابغة | إذا نبت مشرفيات وخرسان |
| وينتضى كل سيف للفناء ولو | كان ابن ذى يزن والغمد غمدان |
| أين الملوك ذوو التيجان من يمن | وأين منهم أكاليل وتيجان |
| وأين ما شاده شداد فى إرم | وأين ما ساسه فى الفرس ساسان |
| وأين ما حازه قارون من ذهب | وأين عاد وشداد وقحطان |
| أنا على الكل أمر لا مرد له | حتى قضوا فكان القوم ما كانوا |
| تخلفوا عبداً وأصبحوا خيراً | كما حكى عن خيال النوم وسان |

وأمّ كسرا فما آواه إيوان
يوماً ولا ملك الدنيا سليمان
وبعضها فوق بعض وهي ألوان
وما لما حل بالاسلام سلوان
هوا له أحد وانهدّ ثهلان
حتى خلت منه أوطان وبلدان
واين شاطبة أم اين جيان
من عالم قد سما فيها له شان
ونهرها العذب فياض وملآن
عسا البقاء إذا لم تبق أركان
كما بكت لرسول الله أجفان
كانها لم تكن بالذكر تزدان
فليس إلا نواقيس وصلبان
حتى المنابر ترثي وهي عيبدان
إن كنت في سنة فالدهر يقظان
أبعد حمص تغر القوم أوطان
ومالها مع طول الدهر نسيان
كانها في مجال السبق عقبان
كانها في ظلام النقع نيران
لهم باوطانهم عز وسلطان
فقد سرا بحديث القوم ركبان
أسرى وقتلا فلا يهتم انسان
وانتم ياعباد الله إخوان
كانهم وهم الأحرار عيبدان
أما على الخير أنصار وأعوان
واليوم هم في بلاد الكفر عيبدان
عليهم من ثياب الذل ألوان

دار الزمان على داراً وقتلته
كانما الصعب لم يسهل له سبب
فجائع الدهر أنواع متنوعة
وللحوادث سلوان يسهلها
دما الجزيرة خطب لا عزاء له
أصابها العين في الاسلام فامتحن
فسلّ بالنسيّة ما شان مرسية
واين قرطبة دار العلوم فكّم
واين حمص وما تحويه من نزه
قواعدكن أركان البلاد وما
تبكى الحنيفة البيضاء من أسف
على بيوت من الاسلام عاطلة
صارت كنائس قد طال الضلال بها
حتى المحاريب تبكى وهي جامدة
ياغافلا وله في العيش موعظة
وماشياً مرحاً يليه موطنه
تلك المصيبة أنست ما تقدمها
ياراكبين عتاق الخيل ضامرة
وحاملين سيوف الهند مرهفة
وراعمين وراء البحر في دعة
أعندكم خبر من أهل اندلس
كم يستغيث بها المستضعفون وهم
ماذا التقاطع في الاسلام بينكم
يامنّ لذلة قوم بعد عزّهم
ألا نفوس أبيات لها هيّهم
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم
فلو تراهم حياراً لا دليل لهم

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان
كم من أسير بحبل الذل معتقل كأنه ميت والذل أكفــــــــــــــــان
يارب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبــــــــــــدان
وطفلة ما رأتها الشمس قد برزت كأنما هي ياقوت ومرجــــــــــــان
يقودها العليج للمكروه مكرهه والعين' باكية' والقلب' حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

وفي السادس والعشرين من شهر رمضان منها قتل أولاد أبي بكر
يوسف بن محمد الأمير صاحب طنجة بقصبتها وقتل أولاد أبي بكر ورجالهم
تلك الليلة فوصل خبرهم إلى أمير المسلمين يعقوب يوم عيد الفطر .

وفيها ملك النصارا مرسية .

وفيها بعث أمير المسلمين يعقوب رسله إلى المستنصر صاحب تونس
وهم عبد المومن بن إدريس بن عبد الحق ، وعبد الله بن كندوز العبد الوادي ،
والفقيه الكاتب أبو عبد الله الكناني ، فأقام الشيخان بتونس ثلاثة أشهر ورجعا
وأقام الكناني بتونس إلى أن أتاه مع رسول المستنصر وهديته وهو أبو زكرياء
ابن صالح بعثه المستنصر بهدية سنية .

وفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من سنة خمس
وستين المذكورة توفي الفقيه الأستاذ المقرئ أبو القاسم المزياتي وله شرح
مفيد على كتاب الجمل .

وفيها في ذي الحجة منها خرج أمير المسلمين يعقوب برسم طنجة
ثم بدا له وسار إلى سلا وبعث ولده الأمير أبا مالك إلى طنجة فنزلها وأقام عليها
عشرين يوماً وارتحل عنها وبقيت طنجة بيد أولاد ابن الأمير خمسة أشهر
وأخذها أمير المسلمين يعقوب سنة اثنتين وسبعين وستمئة .

وفي هذه السنة قتل أبو دبوس عبد العزيز بن السعيد .

السنة السادسة والستون وستمئة

فيها سار أمير المسلمين يعقوب من رباط الفتح إلى مراكش لحصار

أبى دبوس ، فسار حتى نزل بظاهر مراکش فحاصرها أياماً وهتك أحوازها فلما رآ أبو دبوس ما ناله من شدة القتال والحصار وفساد الزروع ونسف الآثار وانتشار المجاعة ببلاده وغلاء الأسعار بعث إلى يغمراسن بن زيان أمير تلمسان يستنصر به على أمير المسلمين يعقوب ويقول له : كن معي يداً واحدة على حربه وبعث إليه بهدية سنينة ، فاتفقا على حرب أمير المسلمين يعقوب فشنَّ يغمراسن الغارات فى أطراف المغرب وبلاذ ملوية ، فاتصل الخبر بأمير المسلمين يعقوب وهو بأحواز مراکش فانه بسبب ذلك كر راجعاً الى حرب يغمراسن ورأا أن مبادرته وتقديم حربه من أوجب الواجب إذ هو فارس زمانه البطل الشجاع المحارب فسار حتى وصل مدينة فاس فأقام فيها أياماً وخرج إلى لقاء يغمراسن بن زيان .

الخبر عن خروج أمير المسلمين يعقوب الى يغمراسن وملاقاتهم بوادى تلاغ

خرج إليه من حضرة فاس فى النصف من ربيع الأول من سنة ست وستين المذكورة فى احتفال عظيم وزى عجيب بالعيال والمواكب والقباب والجيوش الوافرة ، والعدد والسلاح والسيوف الباترة ، وسمع يغمراسن بإقباله ، فاستعد وتأهب للقاءه ، فالتقا الجمعان بوادى تلاغ بالقرب من وادى ملوية ، فعبا كل واحد منهما جيوشه وميز كتائبه واصطفقت عيالات الفريقين خلف الجيوش فى الهوداج والمراكب والقباب المزينات باديات الوجوه عليهم الحلل وثياب الوشي يحرضن الأبطال على الأبطال ، واختلط الأمثال بالأمثال وتمازجت الركاب ، وبرزت الغانيات من القباب ، وزحف الجيش إلى الجيش وقصد القرين إلى القرين ، فكانت بينهما حروب عظيمة لن ير مثلها فلا ترا إلا الخيول ترمع، وبفرسانها إلى اللقاء تطمح، والسيوف بالدماء ترعف، والرؤوس عن الأجسام تقطع وتقطف :

والجو يرمل فى سماء فساطل وبنا بها ظللا على الفرســان
والسيف دائى المضربين كجدول فى ضفتيه شقائق النعمان
أو كما قال من شاهد الحال وعاین ذلك الموقف من الحروب
وشدة الاموال :

سل عن مواقف حربهم لما التقت يوم الصياح كتائب بكتائب
والنبل فى ظلم الغجاج كأنه وبل تتابع فى خلال سحائب

فدام القتال بين الفريقين من وقت الضحا الى وقت الظهر ، وصبرت
مرين لقتال عدوها صبر الكرام الى أن منحهم الله تعالى النصر على بنى عبد
الوادى ، فهزموهم وأذاقوهم الحمام فى ذلك الوادى ، وفر أميرهم يغمراسن
على وجهه مهزوماً ، وقتل قرّة عينه عمر وهو أكبر ولده ووليّ عهده ، وقتل
عبد الملك بن حنينة وأبو يحيى بن يحيى وعمر بن إبراهيم بن هشام وجماعة
من أشراف بنى عبد الوادى ، ولدت بنتو عبد الوادى الأدبار ، وخلفوا النواهد
والأبكار ، وسار أمير المسلمين يعقوب برايته المنصورة وكتائبه المؤيدة
المظفرة فى أعقابهم ، وسيوفهم فى رقابهم ، فدخل يغمراسن حضرة تلمسان
مهزوماً ، وتفرقت جيوش بنى عبد الوادى فلا ترا منهم إلا قتيلاً أو جريحاً أو
خائفاً شريداً ، وانتهبت مرين جميع ما كان فى معسكرهم من الأموال ، والخيول
والسلاح والأثقال ، وكانت هاذة الغزوة المذكورة يوم الاثنين الثانى عشر من
جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، فانصرف أمير المسلمين من هاذة الغزاة
(مظفراً منصوراً ، مؤيداً مسروراً ، فاقام بمدينة فاس إلى أن ظهر هلال شعبان
من السنة المذكورة فخرج إلى مراکش لغزو أبى دبوس الناكث لعهوده ، فلم
يزل يوالى المسير ، والسعد يقدمه والتيسير ، حتى وصل إلى وادى أم الربيع ،
فنزّل هناك وبث جنوده فى بلاد أبى دبوس ياكلون زروعها وينسفون ربوعها ،
فاقام هناك إلى أن دخلت سنة سبع وستين فى غرة المحرم منها ارتحل عن
وادى أم الربيع إلى ناحية تادلة فغزا بها عرب الخلط فاكلهم وسبا حريمهم
واموالهم ورجع من تادلة فنزل بوادى العبيد ، فاقام هنالك أياماً ، ثم غزا بلاد
صنهاجة وسبهاها وأقبل ينور فى أحواز مراکش إلى آخر ذى القعدة من سنة

سبع وستين وستمئة فاجتمع أشياخ القبائل من العرب والمصامدة فساروا إلى أبي دبوس وقالوا له : كم تقعد عن حرب بني مرين وتجن عن لقائهم ؟ أما ترا بلادنا قد خربت ؟ وأموالنا قد نهبت ؟ وحريمتنا قد سبني ؟ فاخرج لجهادهم عسا أن يكون السبب لبعادهم ، فانهم فى شزيمة قليلة وعصابة يسيرة ، وأكثرهم قد بقي برباط تازة يحرس ذلك الشجر خوفاً عليه من بني عبد الوادى فاغتر أبو دبوس بقولهم وسارع إلى نصرهم ، وخرج فى جيوش عظيمة وجنود وافرة من الموحدين والعرب (17) والروم والأغزاز ، فلما سمع أمير المسلمين يعقوب بخروجه من مراكش كرّ راجعاً نحو المغرب حيلة منه أن يتبعه فيبعده عم مراكش فيتمكن من قتاله ، فسمع أبو دبوس برجوعه فطمع فيه وظنّ أن رجوعه إنما هو خوفاً منه ، فاتبعه وكان إذا ارتحل أمير المسلمين يعقوب من موضع نزل هو فيه ، فلم يزل لأثره يقفو إلى أن نزل بجيشه وادى غفو ، فكر أمير المسلمين راجعاً فى وجهه عازماً على لقائه حين علم أنه قد بعد عن حضرته ودار إمارته ، فالتقا الجمعان بوادى غفو المذكور ، فكان بينهما حرب شديد مذكور ، وأقبلت أقيال مرين أمثال العقبان والتحمّ بينهما القتال ، واشتد الحرب وعظم النزال ، وأظهرت مرين فى حربه جدها وصبرها فى القتال ، فباشر أبو دبوس القتال بنفسه فراً ما لا طاقة له به ، فأراد الفرار بجنته لكي ينجو إلى حضرة مراكش فيتحصن بها فأدركته أبطال مرين وأقيالها فترفق بجماعة من أبطاله فحاولوا بينه وبين أمله ومراده ، وسارعوا إلى قتاله ، فطعنوه فى وسط المعترك بالرماح وسقط تحت جواده متخناً بالجراح ، فأخذ قاتله رأسه^١ فى الحين ، وأقبل به إلى أمير المسلمين ، فلما وُضِعَ الرأس بين يديه استرجع ثلاثاً ، ثم حمد الله وأثنا عليه وخر لله ساجداً ولم يزل شاكراً لله حامداً ، ثم رفع رأسه وقال : هاكذا يفعل الله بكل غارذ ناكث ، ومفسد كاذب حالف حاث ، ثم أمر بالرأس فحمل إلى فاس ، ليعتبر برؤيته جميع الناس ، واحتوا أمير المسلمين يعقوب على محلته وجميع أمواله وخزائنه وبلاده ، وكان قتل أبي دبوس وانقطاع دولة الموحدين من المغرب وتملك أمير المسلمين يعقوب دولتهم ومملكتهم فى يوم الأحد الثانى من شهر محرم

(17) الجبل المكتوبة بحروف مغلظة زيدت من الفريطس ليستقيم الكلام .

من سنة ثمان وستين وستمئة ، وانقطعت بدولته الدولة الموحدية المومنية
ولم يبق لها أثر ولا رسم ، وصارت خبراً يذكر والبقاء لله وحده .

وذكر الشيخ الصالح أبو القاسم الشوطي قال : كنت في يوم الأحد
الثاني من محرم المذكور وهو اليوم الذي قُتل فيه أبو دبوس تحت الثريا
الكبرى ، من جامع القرويين من فاس فقعد رجل وسيم الوجه فأنشدني :

ملك بنى مؤمن ————— وكان فوق السماك سمكُــــه
فاعتبروا وانظروا وقولوا سبحان من لا يبدي ملكُــــه

فانصرف عني وحفظت البيتَين فأرخت اليوم فبعد ثلاثة أيام اتصلت
الأخبار بموت أبي دبوس في ذلك اليوم بعينه .

السنة الثامنة والستون وستمئة

فيها ارتحل أمير المسلمين يعقوب بعد قتل أبي دبوس إلى حضرة
مراكش ففتحها ولما قرب منها فر عنها من كان بها من الموحدين إلى الجبل ،
وخرج فقهاؤها وصلحاؤها وقضاؤها وعمالها وأشياخها إلى لقائه ، فتلَقَّوه
وبايعوه وطلبوا منه أمانه فأمنهم وجميع أهل المدينة وأحوازها وتلقاهم بالبر
والأكرام وأحسن إلى جميعهم بالخلع والأموال ، كل على قدر مرتبته ، ثم سار
فدخل حضرة مراكش في يوم الأحد التاسع من شهر محرم المذكور من سنة
ثمان وستين المذكورة ، فاستقر بقصبتها وتم له ملك الغرب وتهدنت البلاد ،
وصلح حال جميع من فيها من العباد ، وتأمنت الطرقات وكثرت الخيرات ،
وأذعن أهل تلك البلاد إلى الطاعة ودخلوا في الجماعة ، فلا نادر ولا مفسد ولا
طاع ، ولا خارج يخشاه منه ولا منازع .

ولما دخل أمير المسلمين يعقوب حضرة مراكش أمّن أهلها وعفا عن
من قعد بها من الموحدين وأحسن إلى أشياخ المصاعدة وحط عن قبائلهم
كثيراً مما كانوا فيه من الوظائف المخزنية ، وأفاض فيهم العدل فاحبته جميع
الناس ، وحين دخل حضرة مراكش تسميًا بأمير المسلمين ، وخرجت عنه
الكتب إلى القبائل ، وكان قبل ذلك يدعى بالأمير ، وبعد دخوله مراكش بأيام
قليل بعث ولده الأمير أبا مالك عبد الواحد رحمه الله إلى بلاد السوس الأقصا

لغزو مَنْ بها من الثوار والأمم المخالفين والقبائل من المنافقين وَمَنْ فرَّ
إليها من أشرار الموحدين ، فسار إليها في جيش عظيم من بنى مرين ، ففتحت
تلك البلاد بأجمعها وأطاعه جميع قبائلها وأتاه رؤساؤها طائعين مدعين من
جميع نواحيها ، ففتح السوس الأقصا بأسره من ماسّة إلى نون إلى البحر
المحيط ، واستقام له أمره ، وقتل مَنْ كان به من الثوار ، وأمن البلاد وأصلح
أحوالها ، ورجع إلى حضرة مراکش فسرّ والده يعقوب بقدومه سروراً عظيماً .
وأقام أمير المسلمين بمراكش يسدّد أحوالها وينظر في مصالح
أهلها ويزيل مظالمها ، ووفد عليه بها وفود البلاد يسلمون عليه ويهنئونه
بالفتح .

وفي هذه الأيام رفع الفقيه الأديب مالك بن المرحل إلى الأمير أبي مالك
عبد الواحد ابن أمير المسلمين قصيدة يهنئ بفتح مراکش :

فتح تبسمت الأكوان' عنه فما رأيت أملح منه مبسماً وفما
فتح كما فتح البستان' زهرته ورجع الطير' في أفنانه نغمًا
فتح كما انشقّ صبح' في قميص دجا

وطرّز البرق' في أردانه علمًا
أضحت له جنة' الرضوان قد فتحت

أبوابها وفؤاد الدين قد نعلم
الحمد لله هاذا ما وعدت به ياخير مَنْ ولي الدنيا وَمَنْ حكما
لم يخلف الله وعداً كان واعده

فاشكر يضاعف' لك الحظّ الذي قسما
بفتح مراکش عمّ السرور' فما يكابد الغم' إلا قلب مَنْ ظلما
حبا بها الله' مولانا الأمير' كما حبا أباه فأسنا فتحها لهُمّا
فلم يزل سعدة المألوف' متصلا بسعد والده المنصور منتظما
فدولة' الدين والدنيا قد اختلفت في الفتح والنصر والتأييد بينهما
أفاقت الأرض من نوم بها وصحت

وأصبحت' وهي تلحي السكر والحلما
لما رأت راية السلطان قد رفعت في ألقها قرعت أسنانها ندما

فاستقطفت منه قولاً من سجيته
من سنة الله أن يحيى خليفته
وأن يقيم بك الإسلام من أود
وأن يغير عيون المسلمين وأن

يشفى الصدور وأن يبرى بك السقم
فأنت أفضل من آوا ومن رحما
فلم تر البأس فيها بز للكرما ؟
فلم نر السيف فيها يسلم القلما
والسن الشر حتى أخرس الأما
لولاك كان وجود الدين قد عدما
رأي نجيع وطب" يذهب الأما
كالريح يمضى بعدل كلما عزما
وبطشه وأناة تجمع الحكما
وإن تشاهده لم ينطق وقد فهمما
يحتج إلى أحد فى علم من علما
أعطاه نوراً يجلى الظلم والظلمما
ومن حباه السجايا الغر والشيما
ما كان ذا بشراً بل املكا كرما
وقد علا بالمعالى ملكه وسمما
وقومه يرهبون العرب والعجمما
على عدا أصبحوا فى حيرة وعما
فلا يُجازاً امرؤ" إلا بما جرمما
لا يعصم الله منهم غير من رحما
وتائب آنب بالتوبة اعتصمما
وبعضه يحبط الأعمال والحرما
أقال عترة من أخطا وقد رحما
بلغت حضرته ثم انشئ النظمما

بشراك ياملك الدنيا وحافظها
إذا نسخنا معاليك التى راقى
كما نظرنا إلى يمينك من كتب
تضافرت ألسن الأقلام فيك معاً
لله منك ملك لا نظير له
ملك بصير بأدواء الأمور له
عدل الحكومة عاضى العزم معتدل
سيف وسيب وعفو بعد مقدرة
إن غاب عنك فإن الأذن شاهدة
الله أعطاه علماً من لدنه فلم
ومن تخيره للدين خالفه
سبحان من بجميع الفضل أفرد
فللورا أن يقول عند رؤيته
لاغرو فالحسن فى أوصافه تبع
فالغرب يزهر على شرق البلاد به
مولاي يهنيك ما أعطيت من ظفر
وعن قريب إلى يمينك مرجعهم
أين المفر؟ وخيل الله تطلبهم
كم من مضير يلاقى ما جنت يده
أنت الامام لبعض السهو تحمله
وقد كفا الله كف الخائنين وقد
يا بنت فكرى ضعى عنك النقاب إذا

ثم اسجدى فى بساط غير واطئة فأصبح الرأس فيه يجهد القدماء
وذكره فان الذكر منفعة وذاك فى محكم التنزيل قد رسما
من عبده مالك مملوك دولته على القديم ، ويرعا السيد القدماء

وفى سنة ثمان وستين المذكورة أعطا عمر بن منديل مليانة ليفمراسن
فسلطنه يفمراسن على مغراوة وعزل أخاه ثابت بن منديل .

وفيهما دخل النصرارا حصن العرائش وحصن شمس (18) بالسيف
فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأموال وأحرقوها وارتحلوا فى الأجفان .

وفيهما كان قتل طلحة بن محلى ليعقوب بن عبد الله بن عبد الحق فى
عين الشعراء فى آخر ذى الحجة منه .

وفى شوال منها نازل ابن الأحمر مالقة .

وفى يوم الأربعاء بعد صلاة العصر وليلة الخميس الخامس والعشرين لذى
القعدة من السنة المذكورة نزل ملك الروم الافرنسى مدينة تونس فى مراكب
لا تحصا ، فنزلوا فى البر وملكوا حصن القلعة وهم فى أمم لا يعلم لهم عدد
ومددهم فى البحر متصل ، وقيل كان جملة من نزلها من فرسان الروم أربعين
ألف فارس ، ومن الرماة مئة ألف رام ، ومن الرجال المقاتلة مئة ألف راجل ،
فأقام يقاتل تونس الى أن أفلح عنها لعنه الله ميتاً فى اليوم السادس من جمادى
الأولى من سنة تسع وستين وستمئة ، وكانت وفاة الافرنسى فى الخامس
والعشرين من ربيع الآخر من سنة تسع وستين المذكورة .

وفى سنة ثمان وستين فى يوم عيد الأضحى منها ولد الأمير مسعود ابن
الأمير يوسف ابن أمير المسلمين يعقوب ، وتوفى رحمه الله بطنجة فى يوم
ذى الحجة سنة اثنتين وتسعين وستمئة ودفن بقصبتها رحمه الله وغفر له .

(18) كان يقع على الضفة الشمالية لنهر لكوس أمام مدينة العرائش بجوار أطلال مدينة
لكوس القديمة .

السنة التاسعة والستون وستمئة

فى أول يوم من شهر رمضان منها خرج الأمير يعقوب من حضرة
مراكش بعد أن أقام بها مدة عام وسبعة أشهر فسار الى بلاد درعة لغزو مَن
بها من العرب المخالفين له .

الخبر عن غزاة أمير المسلمين يعقوب رحمه الله للعرب ببلاد درعة

قال صاحب التاريخ عفا الله عنه :

كان العرب قد ثاروا ببلاد درعة وأبادوا رجالها بالقتل وأموالها
بالنهب وكثر أذاهم فى تلك النواحي ، فخرج أمير المسلمين يعقوب لغزوهم
من حضرة مراكش ، فشقَّ الجبال والأوعار حتى وصلها فى النصف من الشهر
المذكور ، فنزل بأول بلاد درعة فقتل من العرب خلقاً كثيراً ، وسبوا نساءهم
وأموالهم بعد أن حاصروهم بمعقل من معاقل درعة أياماً ، فنزلوا إليه بأمان ولده
الأمير عبد الواحد ، فعفا عنهم وأمضا أمانَ ولده وفتح جميع بلاد درعة وملك
حصونها ومعاقلها ، ولم يبق ببلاد درعة وأنحائها من أهل النفاق والفساد
أحد وأحرزها من العرب ، فبعث بهم الى مراكش وهادن البلاد وأخرج عليها
العمال ، وارتحل الى مراكش فدخلها فى رابع شوال فى السنة المذكورة ،
فأقام بها أياماً ثم مرض فلما أفاق من مرضه خرج من مراكش فى نصف ذى قعدة
فسار إلى رباط الفتح فى آخر يوم من ذى قعدة المذكور من السنة المذكورة ،
فعيّد به عيد الأضحا وأخذ به البيعة على بنى مرين لولده عبد الواحد رحمه الله
وجعله ولي عهده .

وكان الأمير عبد الواحد رحمه الله على غاية العقل والذكاء والكرم والنباهة
والسياسة والاقدام والحنق والشجاعة وعلو الهمة ومكارم الأخلاق والحلم
وإصابة الرأي وحسن التدبير مُحبّاً فى الأدب والتاريخ ذاكراً لكثير من ذلك

مقرباً للعلماء والفقهاء ، وكان مع ذلك عالماً بأنساب بنى مرين وغيرهم من قبائل زناتة ذاكراً لأيامهم وحروبهم ، يجالس العلماء والفقهاء والشعراء ويذاكرهم واختص بمجالسته ومنادته ومسامرته جماعة من أهل الأدب والفقه ، منهم الفقيه القاضي الزكي يوسف بن حكم ، وكان من أهل الأدب البارع مشاركاً في علوم كثيرة أخذ عن جماعة من فقهاء الأندلس وإفريقية وأدبائها ، وولاه الأمير عبد الواحد قضاءً فاس فجرا بينه وبين والى المدينة شنآن فاستطال عليه الوالى فكتب إلى الأمير عبد الواحد كتاباً يشكو إليه فيه بالوالى وعدوانه عليه ويطلب منه أن يعفيه من خطة القضاء :

| | |
|-------------------------|---------------------------|
| أيسلمنى للردا مالكنى | مليك الملوك أبو مالك (19) |
| ونالله ما أسلمت عبدهما | لعدوان عاد يدا مالك |
| فياحضرة الجود لا تسخ بى | هديت كفعلك فى مالك |
| علقت برضوان من عطفكم | وها أناذا فى يدي مالك ! |

وكان من جلسائه الفقيه القاضي الأديب البليغ البارع علي بن محمد المغيلى .

ومنهم الفقيه الأديب مالك بن المرحل وكان يكتب له الرسائل .

ومنهم الفقيه الأديب أبو عمران التميمي .

ومنهم عبد العزيز الملزوزى .

وكان الأمير عبد الواحد رحمه الله يحب الشعر ويروى كثيراً منه ويأخذ نفسه بنظمه فينظم منه البيتين والثلاثة فى معنى الافتخار ، فمن ذلك قوله رحمه الله :

| | |
|--------------------------|-------------------------|
| فرقت فى الميدان كل مليك | وجمعت بين جراءة ونسوك |
| وجعلت للإسلام حداً مالكا | كيما يغيره العدا بسلكوك |

وهو القائل أيضاً يفتخر رحمه الله تعالى :

| | |
|-----------------------|--------------------------|
| أجود بمالى لكل العفاة | واقترح الهول فى المعضلات |
|-----------------------|--------------------------|

(19) كنية الأمير عبد الواحد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق .

أفود الجيوش وأصلا الحروب وأقتطف الهام بالمرهفات
وأحمى فسورى من أن تنال وأغزو وأنهب أرض العداة.

ودخل عليه شاعره عبد العزيز الملزوزى فى يوم من شهر رمضان
وهو بقمصره بحضرة مراكنس كأنها الله تعالى وكان يوما قد استتريت فيه السماء
بالسحاب والنيار يبكى بالدموع كأنه عاشق صد عنه حبيبته وتعطلت دموعه ،
وكان الرعد يندر مدرته ، والبرق يحكى لوعته وزفرته ، وكان المجلس الذى كان
فيه الأمير قد فرش بأصناف الرياحين ، والورد والبنفسج والخيرى والياسمين ،
فقال له الأمير عبد الواحد يا عبد العزيز أرايت ما أحسن هذا النهار لو كان فى
غير شهر الصوم ، ثم أمره أن يقول فى ذلك المعنا شعراً فأثشد ارتجالاً
على البديهة :

اليوم يوم مدامة وعقار وتبلغ الآمال والأوطار
أو ما رأيت الشمس أخفى نورها وتستريت عن أعين النظر
وبكا السحاب بدمعه فكأنه دنف بكا من شدة التذكار
والبرق لاح من الغمام كأنه سيف تألق فى سماء غبار
لا شيء أحسن فيه من نيل المنا بمدامة تبدو كشعلة نار
لولا صيام عاقتى عن شربها لخلعت فى هاذا النهار عذارى
أو كان يعجزى عنه صوم أوفدا ما صوم شهر فى صيام نهار
لكن تركت سروره ومذاقه حتى أكون عليه ذا إقرار

فأمر له بخمسة دينار وكسوة ، فأعطاه الوكيل الدراهم ناقصة ،
وأعطاه الكسوة من أثواب خشنه ، وكان الوكيل حاجاً ، فكتب عبد العزيز
إلى الأمير براءة يشكو إليه فيها من فعل الحاج الوكيل ويعلمه بما أمر له به ،
وفى أول البراءة هاذان البيتان :

أتظن أن الحاج يفعل صالحاً لا بارك الرحمان فى الحجج
إن كانت الحجج طئراً مثله لا بارك الرحمان فى الحجج

فلما قرأ الأمير الأبيات ضحك ودعا بالحاج المذكور فأمره بإبدال
الدراهم وأن يعطيه كسوة أخرا من رفيع الثياب ويعطيه مئة أخرا من ماله كفارة
لما صنع معه .

ومرض عبد العزيز المذكور من حُمًا أصابته بمراكش فدخل عليه
الأمير عبد الواحد وقد وجد راحة من حُمّاه ، فقال له الأمير : كيف أنت يا عبد
العزيز من مرضك ؟ وكيف رأيت مراكش ؟ فأنشأ يقول :

لمراكش فضل على كل بلدة وما أبصرت عين لها من مثابله
وما هي إلا جنة قد تزخرت ولكنها حُفَّتْ لنا بالمكاره

ولما أخذ الأمير يعقوب البيعة لولده الأمير عبد الواحد برباط الفتح
عظم ذلك على أولاد عمه من بنى عبد الحق ، فسار جماعة منهم من ليلتهم تلك
الى جبل أمرتو (20) فناروا به ، وهم محمد بن إدريس بن عبد الحق ، وموسا
بن رحو بن عبد الحق ، فخرج أمير المسلمين يعقوب فى أثرهم وبعث
لحربهم ولده الأمير الأجل يوسف فى جيش من خمسة آلاف فارس فسار فيها حتى
نزل عليهم بجبل أمرتو فحاصروهم ، ثم لحق به أخوه الأمير عبد الواحد فى اليوم
الثانى من نزوله بجيش من خمسة آلاف فارس أخرا ، ثم لحق بهم والدهم أمير
المسلمين فنزل عليهم فى اليوم الثالث بجميع جيوشه من بنى مرين فحاصروهم
يومين فأذعنوا وطلبوا منه الأمان فأمنهم وعفا عنهم على أن يخرجوا من بلاده
إلى تلمسان فنزلوا بأمانه ، وساروا بأموالهم ورجالهم الى تلمسان فأقاموا بها
مدة ثم جازوا إلى الأندلس .

وفىها مات علي بن زيان وأخوه وخمسة من بنى مرين .

وفىها جاز التاهرتى إلى الأندلس برسم الصلح بين ابن الأحمر وبين
ابن اشقيلولة .

وفىها أخذ الفتنش لعنه الله من بلاده من المسلمين وثقفهم فى
الحديد وأمر ببيعهم فى دواخل بلاد الروم .

وفىها نزل الفتنش الجزيرة الخضراء براً وبحراً ثم أقلع عنها بعد سبعة
أيام فى شهر ذى حجة منها .

(20) جبل شهير بقبيلة قشتالة قرب ضريح مولاي بوشنا الخمار ، بأعلاه حصن منيع من
بناء المرابطين .

وفيهما جاز وأولاد عبد الحق إلى الأندلس فسكنوا رندة .

وفيهما سار الأمير يوسف ابن أمير المسلمين إلى سجلماسة فنزل عليها وقتلها أربعة أيام وارتحل عنها ورجع إلى المدينة .

وفيهما توفي الفقيه المحدث القاضي الزكي أبو جعفر المزدغى وولي مكانه القضاء الفقيه أبو عبد الله بن عمران .

وفيهما ولي الشريف أبو زيد بن أحمد الجوطي بفاس .

وفيهما بعث أحمد ابن الأحمر إلى أمير المسلمين يعقوب يستنصر به ويدعو إلى الجواز إلى الأندلس ، فعزم على نصرته وبعث إلى يغمراسن يطلب سلمه ويكون معه يداً واحدة في جهاد الروم ، فامتنع من ذلك يغمراسن وأقسم ألا يصالحه أبداً حتى يأخذ منه الثأر أو يموت دون ذلك ، وكتب بذلك كتاباً من بعض فصوله هاذان البيتان :

فلا صلحَ حتى نروي السيف والقتنا وتأخذَ عبدُ الوادي منكم بثأرها
وأشفى غليلي من مرين التي طغت بسبني غوانياها وقتل خيارها

فلما سمع أمير المسلمين هاذا الجواب عمل على غزوه ، ورفع له في هاذة الأيام شاعره عبد العزيز الملزوزي قصيدة يمدحه ويحرضه على غزو يغمراسن بن زيان أولها :

أرا كلَّ جبارٍ بسيفك يصغر وكلَّ عزيزٍ خاضعاً متواضعاً
وتنام عيون الناس طراً وأنت في صلاح العلا والخلق ما زلت تسهر
أضأت بك الدنيا فزال ظلامها فأيامها من نور وجهك تسفر
وكل ملك خضت دار الفلا له فحبمته بالسيف ساعة يظهر
وكان لدينا الدين قد ضاع حقه ولم يبق منه غير عين تحذر
بعثت إلى يغمور بالصلح معلماً وقلت عساه بالبصيرة ينظر
فلم يغتبط بالصلح جهلاً وغلظة فيأعجباً من خاسر كيف يحشر

أردت بأن تهديه للرشد والهدا
فأنك لا تهدي من أحببت للهدا
أبا الله إلا أن يخلصك بالهدا
ويحرم يغموراً جهاد عدونا
فأسبق به فهو الجهاد برأسه
فتأخذه فهراً وتملك أرضه
أينسا تقيض إيسلي ثم وجدة
وقد سطعت بيض خفاف صوارم
ولا شمس إلا وجه يعقوب إذ بدا
ويغمور قبل الحرب يحلف أنه
فلما راأ أسيافكم تستبى الطلا
تولاً على أعقابيه متحسراً
أيجحد يغمور فضائلك التي
وأنت الذي صيرت الرئيس في الوغا؟
وأنت الذي أنقذت درعا من الردا
قطعت لهم قصداً جبالا تصعبت
فلما حللت السهل أرسلت ماجداً
بأولاد عبد الحق قد ظهر الهدا
أتوا قاصدين الغرب والظلم عنه
وقد قال خير العالمين محمد
بهم يعتلى الاسلام بعد امتحانه
وأرجو من الرحمان أنكم هم
أبا يوسف أنت الغياث لديننا
ستمليكها غرباً وشرقاً وقبلة
طليطلة تغزو ويفنا مليكها
مرين ألا قودوا الجياد لنهبها
ومن يك ذا بأس كيعقوب والندا

وكيف يرا رشداً شقي مغير
أتدفع عنه ما عليه مقدر
ويعطيك في أخراك ما هو أكثر
ويجعلته في بحر بأسك ينمر
فحتى متى في الدين يغمور يقصر
فأنت عليه في الملاحم أقدر
ويوم تلاغ والقنا تتكسر
وقد حجب الشمس المنيرة أغبر
تراه لدا الهيجاء والحرب مسعر
إذا ما التقا الجمعان للأسر يذعر
وأبصر خيل الله كالأسد تزار
فأين مضت أيمانه والتجبر؟
إذا عدت عند الوفا ليس تحصر
دريساً بكنه في السباب أيسر
وكانت بها الأعراب للنهب تكسر
ترا العيس فيها والسوايق تحبر
تذل له الإملاك ساعة يظهر
وصار النداء قد يرم الغرب يقطر
فصار بهم يسبى العقول ويهبر
يكون لكم بعدى لدا الغرب معشر
ويرجع في أثوابه يتبختر
ففي فعلكم هدي المآثر يظهر
أولو العلم في أخبارهم بك بشروا
وجوفاً فهاذا كان في الجفر يذكر
وإشبيلية عما قريب تذكّر
وللغزو يا أسد الفوارس فانفروا
فيظفر بالكفار فهو المظفر

لقد سكن الأعداء مساجد ربنا
فعدت إلى الخنزير والشرك مسكناً
وكم غنموا منا حسناً كواعباً
وكم مقلت أباكوا وكم غداة سبوا
وكم أبتوا منا بنيئاً أصاغرا
يظنون أن الدهر قد نام عنهم
أما علموا أن الإله يبيدهم
هو الملك المنصور ذو المجد والعلـ
فلو قيل للإسلام من كنت ترتجى؟
بأيامه أعلو على الشرك إنما
وما هو للإسلام إلا مهين
فمن كآبى الأملاك؟ من مثل يوسف؟

تخال النداء من كفه يتفجّر
وجود كسينب الوبل لا يتعذر
يحسنه الرحمان لا يتكدر
تعجز من في الغرب والشرق يشعر!
وذكركم مسك ذكي وعنبر
يزينهم علم وحلم وعفوة
فلا زال هذا الملك فيك وفيهم
إليك أمير المسلمين قصيدة
تناوكم فيها اللآلىء نظمت

السنة الموفية سبعين وستمئة

فيها غزا أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق مدينة تلمسان ، فالتقا
بيغمراسن بن زيان بالقرب من وجدة فهزمه وأكل جميع محلته ، وتبعه حتى
أدخله تلمسان فحاصره بها ثلاثة أيام وثلاثة أشهر .

الخبر عن غزاة أمير المسلمين يعقوب تلمسان وملاقاته يغمراسن بن زيان

قال صاحب التاريخ عفا الله عنه :

لما عزم أمير المسلمين يعقوب على غزو تلمسان بعث ولده الأمير عبد الواحد إلى مراکش يحشد من بها من قبائل العرب وبنى مرين والمصامدة وبنى ورا وغمارة وصنهاجة ومن بها من الأغزاز والأندلس والروم ، وذلك فى شهر صفر من سنة سبعين المذكورة ، وأخذ أمير المسلمين فى الاستعداد للحركة وفرق الأموال والخيل والعدد فى قبائل بنى مرين وقبائل العرب والأجناد ، فلم يزل كذلك حتى انقضا شهر صفر المذكور ، فلما كان أول يوم من ربيع الأول من سنة سبعين المذكورة خرج من حضرة فاس حرسها الله تعالى فى احتفال عظيم ، وأمر جميع قبائل بنى مرين أن يخرجوا بجميع عيالاتهم ونجبائهم فى زيهم وأن يظهروا قوتهم ليغيطوا بذلك أعداءهم ، فخرجت قبائل مرين فى هاذة الغزاة بالجمال المحلاة والمراكب الملبسة بالديباج والقباب المزينة والجوارى المولودات تقودها الرجال فى أحسن زي وأتم جمال ، فسار أمير المسلمين يعقوب رحمه الله فى جيوشه المنصورة الوافرة ، وجنوده المؤيدة الظافرة ، حتى نزل وادي ملوية ، فأقام عليه حتى انقضا شهر ربيع الثانى ولحق به ولده الأمير عبد الواحد فى جيوش عظيمة وحشود كثيرة فى قبائل العرب من حشم وسفيان والحلط والعاصم وبنو جابر وبنو حسان والأبيح والشبانات ورياح ، وغيرهم من الأغزاز والروم فى زي جميل ، واستعداد جليل ، فأقام رحمه الله بعد وصوله إليه بوادى منوية ثلاثة أيام حتى ميّز جيوشه ورتب كتابه وقدم بين يديه قواده وطلائعه وارتحل نحو تلمسان فسار حتى وافاه بها رسل ابن الأحمر وكتابه يسأله أن ينصر الدين ، ويفيث من بالاندلس من المسلمين ، ويخبره أن الفئش لعنه الله قد ضيّق ببلاد المسلمين وأباد أهلها بالقتل والأسر والغارات ، مع الأحيان والساعات ، فلما

الخبر عن غزاة أمير المسلمين يعقوب تلمسان وملاقاته يغمراسن بن زيان

قرأ الأمير يعقوب رحمه الله كتاب ابن الأحمر خرج إلى خباء الساقة ، فجمع أشياخ قبائل مرين وأمراء قبائل العرب فقرأ عليهم كتاب ابن الأحمر المخبر بتضييق الفتن على المسلمين واستطالته عليهم بالقتل والأسر والسياء ، وما طلبه منه من إعانة المسلمين بالأندلس ثم استشارهم في ذلك فأشاروا عليه بصلح يغمراسن وتهدين البلاد وجمع كلمة الإسلام على التقوا والجهاد لنضر الدين وإعانة المسلمين ، فشكرهم على ذلك وقال لهم هاذا والله رأيي ونيتي وقصدي والذي عزم عليه أمري ، ثم بعث إلى يغمراسن بالصلح شيخاً من كل قبيلة ومن شيوخ العرب يطلبون منه الصلح ويرغبون منه في المودة والمسالمة لكي يجوزوا إلى الجهاد آمنين على جهادهم وقال لهم عند وداعهم أعلموا يغمراسن أن الصلح خير كله ، فإن جنح إليه وأتاب فحسن ، وإن حاد عنه وأبأ إلا القتال فبشروه بالنكال ، وأخبروه بالحروب والنزال ، وأسرعوا إلينا بالرجعة والاقبال ، ففسر إليه ، ونستعين بالله عليه ، فسار الصلحاء والأشياخ إلى يغمراسن بن زيان فوجدوه آخذاً في الحركة وقد خرج من تلمسان فأخبروه برسالة أمير المسلمين ولاطفوه في طلب الصلح بالقول الجميل والحق المبين ، فقال لهم لا صلح بيني وبينه أبداً ولو بلغت في حربه إلى الردا ، لقد قتل ولدي وقرّة عيني وولي عهدي عمر أصالحه وأهدر دمه ؟ والله لا كان هاذا أبداً ، ولا أترك دم ولدي يمضي سُدّاً حتى آخذ منه بالثار ، وأذيق بلاده التبار ، فرجع الأرسال بذلك إلى أمير المسلمين ، وأخبروه أنه لا يصالحه ولا يلين ، فدعا الله تعالى في النصرة عليه والتيسير ، وأسرع نحوه بالرحيل والمسير ، وارتحل أيضاً يغمراسن إلى لقاءه ، وأقبل نحوه إلى قتاله ونزاله ، في قوة واستعداد ، وجيوش ملأت النجود والوهاد ، فالتقا الجمعان بوادي يسلى على مقربة من مدينة وجدة ، فجعل أمير المسلمين يعقوب رحمه الله ولده الأمير عبد الواحد على ميمنته ، وولده الأمير يوسف على ميسرته ، وأعطاه لكل واحد منهما طبولاً وبنوداً ، وأعطاه لكل قبيلة من قبائل بني مرين راية تقف عندها وتلجأ بها حزمها وقدم بين يديه قبيلة من بني فودود والحشم والأغراض والأندلس والرماة :

فى جحفل يُحمَدُ يوم الوغا فى جمعه تفريق ما يجمع
بحر حديد موج أطلاله يزيد بيضاً وقنا تلمع

ووقف امير المسلمين فى الساقاة تحت ظلال البنود مع انجاد مرين وحماها
فالتحم القتال بين الفريقين واشتدت الحروب بينهما واضطربت والتهب
نيرانها واشتعلت ، والأبطال شمرت عن ساقها ، ودارت رحاها وحي وطيسها
وتقدم الأمير يوسف بالميسرة للقتال ، وتابعه أخوه الأمير عبد الواحد باليمينه
فاقتحم تلك الأهوال ، وأنا أمير المسلمين والدهما على أنهما فى القلب
والساقاة وأقيال مرين وشجعانها بين يديه تقدمه وتحف به وعلى يديه وهو
تحت ظلال الرايات والبنود ، كأنه البدر حل فى أسعد السعود . وفى ذلك
يقول بعض الأدباء من الكتاب ، الملتزمين لخدمة ذلك الباب :

إذا الحيل جالت فى الحروب حسبتهم قضاء من الرحمان ما منه عاصم
فذاك على اليمنا يثير حماته وذاك على اليسرا فأين المقاوم ؟
والداهم فى جاحم الحرب بينهم يبيد حماة الجيش وأسعد قائم
فويحك ياغفور هل لك منجد ؟ أيقظان حس أنت أم أنت نائم ؟
أفى كل عام تترك ابنك للقنا ويُسبأ لك الفيدُ الحسانُ النواعم

فاشتهر القتال بينهما وعظمت الأهوال ، فرأى يغمراسن ما لا طاقة له به ،
ولا سبيل له بلقائه ، ففر منهزماً جريحاً وقتل ولده فارس وجميع من كان
فى عسكره من الروم ، فلم يفلت منهم أحد ، وكانوا ما يزيد على خمسمئة فارس ،
فاستؤصلوا عن آخرهم ، وقتل من بنى عبد الوادى وبنى راشد ومغراوة
والعرب خلق كثير ، وفر يغمراسن جريحاً فى شردمة قليلة من عشيرته وقرابته ،
وخرج من تحت ذبابات السيوف وأطراف الذوابل فمر على محلته ومراتبه
وقبابه وحرمه وهو يجد السير وفى كبده حر النيران وتركها وسار ، فانحصر
بتلمسان ، فكان كما قال الله عز وجل (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين) ،
ولولا ما حال الليل بين الفريقين واتخذ بنو عبد الوادى الليل جملاً ، فغروا
تحت ظلامه فى الفلا ، لم تبق منهم باقية ، فانتهبت مرين محلة بنى عبد الوادى
وأموالهم وسلاحهم وسبوا حريمهم وعيالهم ، وكان على يغمراسن يوم عسير ،
باء فيه بالخسران والويل الثبير :

فذلك يوم للشقي مذمم به زجر المشؤم طيراً مذمماً
تغشته عقبان من الخيل وقمع وما طال ما كانت على ذاك حوماً
بكل كمي في اللقاء مدجج إذا لمح الحرب العوان تبسماً
أسود مرين أرعدت بصليها وأبدت ببرق البيض كالوشني معلماً

وكانت هاذة الكائنة العظيمة والراقعة الجسيمة في النصف من رجب الفرد من سنة سبعين وستمئة المذكورة ، وارتحل أمير المسلمين يعقوب من الغد في أثره ، فوصل مدينة وجدة فوقف عليها حتى هدمت وغفأ رسمها وجعل عاليها سافلها ولم يبق لها رسماً وتركها قاعاً صفصفاً ، وارتحل إلى تلمسان فنزل بظاهرها وأدار عساكره بأسرارها وشرع في قتالها ، وبقي يغمراسن محصوراً ذا أرق وحنق ، واحتوت مرين على جميع ما بخارجها من القرا والضياح والفواكه والثمار والزروع ، وبث أمير المسلمين الجيوش في جبالها وقبائلها المجاورين لها ، ووصل إليه وهو محاصر لتلمسان أمير بنى تجين صاحب بلاد ونشريس محمد بن عبد القوي التجيني في جيش كثيف من قبائل تجين بالبطول والبنود والعدد السنية ، فركب أمير المسلمين إلى لقائه في جميع جنوده وأبطاله في أحسن زينة وأتم احتفال ، فاشتد الحصار على يغمراسن وضيق قبائل تجين بتلمسان لأخذ نارهم من أميرها فقطعوا الثمار ، ونسفوا الآبار ، وخربوا الربوع ، وأفسدوا الزروع ، ولم يدعوا بتلك الجهات قوت يوم ، حاشا السدرة والدوم !

فلما علم أمير المسلمين أنه قد انتسف بلاده ، وأباد طارفه وتلاده ، وقتل حماته وأجناده ، ولم يترك له بها شيئاً يرتفق به أمر الأمير محمد بن عبد القوي بالرجوع إلى بلاده ، فارتحل نحوها وأعطاه أمير المسلمين مما أخذه ليغمراسن ألف ناقة ومئة جواد من عتاق الخيل ومضارب وسلاحاً وخلقاً وودعه وانصرف ، وقعد أمير المسلمين بظاهر تلمسان حتى يعرف أنه وصل إلى بلاده ونشريس خوفاً عليه من يغمراسن لئلا يتبعه ، فان يغمراسن رحمه الله كان من الفرسان لا تؤمن غوائله ، ولا تنسا في الحروب مكائده ، إذا من بعتية أغنت ، ونجدة أعيت ، وحزم وإقدام ، وكرم وإنعام ، وعتو أنسا به الجبابرة ، وطغيان

أربا به على الأكاسرة والأقاصرة ، لكنه مع شجاعته تصحبه النحوس ، ويدرك
يدره الكسوف والنكوس .

فلما علم أمير المسلمين أن أبا زيان محمد بن عبد القوي وصل إلى
بلاده سالماً أقلع عن تلمسان وكرّ راجعاً إلى المغرب مظفرًا منصوراً ، ومات في
هاذه الحركة من بنى مرين علي بن جداز الونجاسني وعثمان البياضي ويوسف
الشیطان وعيسا بن ماسين .

وفيها رفع عبد العزيز الملزوزي الشاعر إلى أبي مالك هاذة القصيدة
يصف فيها الكائنة والقتال ويمدحه أولها :

| | |
|--------------------------------|----------------------------------|
| أشأقتك أطلال' الديار الطواسم' | فقلبك حيران ودمعك ساجم' |
| وقفت عليها بعد بُعْد أنيسها | وصبرك قد ولاء' ووجدك لازم |
| بعيداً عن الأوطان تسلى فانها | تهيج أشواق' المحب المعالم |
| تحن' إلى سلما ومن سكن الحما | وأين من المشتاق تلك النواعم |
| إليك فاني لست ممّن تشوقه | معاهد سلما أو سبته المباسم |
| إذا هافت العشاق' يوماً بكاعب | فقد بات في الادلاج في البید هائم |
| لألقا ملك' الأرض وابن' مليكها | أبا مالك ليث الحروب العرازم |
| مذل الأعادى في سماء عجاجة | بها البيض برق والدماء غنائم |
| رواعدها صوت الكماة وشهيهها | دراري هند تشتهيها الصوارم |
| بها أرض حرب لا ترا الأرض مثلها | لها الدم غيث والصخور جماجم |
| إذا طاف شيطان من الأسد حولها | فكف' أبى الأملاك بالسهم راجم |
| تحيد رماح الخطب عنه كأنها | على الجسم منه والجياد طلاسّم |
| وما ذاك من قصد الكماة لرميها | ولكنه بالطعن والضرب عالم |
| تسيم وميض البتر في كل فيلق | كما شام برق المزن للغيث شائم |
| أبو مالك ليث الحروب وغيثها | وبدر إذا ما الحرب بالنقع فاحم |
| ألا أيها الجيش الذي رام حريمهم | تنغب إلى البلوا فانك نائم |
| أنطمع أن تلقا ملوكا ثلاثّة | وأجسامها قد فارقتها الجمائم |
| أنطمع أن تلقا ملوكا ثلاثّة | لبعضهم تمنو الملوك القنائم |

الست ترا أسد العرين تبيدهم
سحائب أطيّار ترنم فوقها
إذا الحيل جالت في الحروب حسبتهم
أراك على اليمين تبيد حماتها
ووالدهم في جاحم الحرب بينهم
ترا جثث الأبطال تسقط بينهم
وقد خضب البيض النجيع كأنه
لهام لسام الخائفين كماتنه
أبا مالك لا زلتَ للملك مالِكاً
أتاك به يغمور يقدم جمعه
فمزق ذاك الجيش كل ممزق
تدور كزوس الموت فيه عليهم
وما كان من قاد الجيوش إلى العدا
إذا لم يكن سعد السعود يقوده
فمن كان يبغى الملك والمجد والعلا
إذا شيدوا شيئاً من الرأي بينهم
كان كماء الجيش فعل مضارع
وتجمعها بالسيف جمعاً مكسراً
هنيئاً لكم نصر مبين على العدا
أمير تلمسان أبدت جيوشه
فديتك يا يغمور هل لك زاجر
أفى كل عام تترك ابنتك للفنّا
أتيت لأخذ الثأر ويحك منهم
فخلفت أيضاً للصوارم فارساً
فها أنت كالعير الذى مر يبتغى
فلو أنه قد مرّ يطلب ما مضى
فما المجد إلا حيث أنت ومن يرد

وأجسامها قد فارقتها الجماجم
كما سجعت فوق الفصون الحماجم
قضاء من الرحمان ما منه عاصم
وذاك على اليسر فأين المقاوم ؟
يبيد حماة الجيش والسعد قائم
سقوط مبانٍ فارقتها الدعائم
رقاش وأطراف السيوف معاصم
تريك ضرام النار فيه العزائم
لك السعد بيت والسيوف تعائم
ولم يدر أن الحين في الجيش قادم
كما مزقت ميتاً بغير قشاعهم
أسود بأطراف السيوف تلاطم
يقود إلى الأوطان والجيش غانم
فماذا الذى يغنى الجيوش المصارم
تساوا لديه شهدها والعلاقم
فرايهم للرأي والجيش هدام
ويترك للأعناق منها جوازم
وجمعك ما بين الكتائب سالم
وطول سعود شأنها متدائم
وما هو مظلوم ولا أنت ظالم
أيقظان حس أنت أم أنت نائم ؟
وتسبباً لك الفيد' الحسان الكرائم
وقلت عسا الأيام يوماً تسالم
وليدك لم تشفق عليه الضراغم
بحرمانه قرناً فمر يزاحم
لعاد ولم تبصر عليه خياشم
سواك لمجد أو علا فهو آثم

فطوبوا لمن واليت يا قمر العلاء وويل لمن حاربته أنت دائم
وأعلم أنى قد أتيتك مادحاً فسعدى يقظان ونحسى نائم

ولما رجع أمير المسلمين من غزو تلمسان دخل رباط تازة فى أول
يوم من ذى الحجة من سنة سبعين المذكورة فعيّد بها عيد الأضحا وارتحل
إلى مدينة فاس ، وقيل بل عيّد أمير المسلمين عيد الأضحا بـ كرسيف .

وفيهما رجع عامر بن إدريس لتلمسان والمغرب بالعهد والإيمان .

وفى هاذة السنة ملك أمير المسلمين بلاد الريف .

وفيهما وصل القائد أبو الفضل من بجاية .

وفيهما هدم محمد بن عبد القوي مدينة البطحاء وهرب سليمان بن عيسا
ومن كان معه فى قصبة مالىق .

وفيهما وصل تاشفين بن معطى من رندة إلى مالقة ، فبقي بها ثلاثة
أشهر ، وقتل هو ومن كان معه .

السنة الحادية والسبعون وستمئة

فى غرة محرم منها دخل أمير المسلمين يعقوب فاس قافلا من غزوة
تلمسان ، فأقام بها إلى اليوم الحادى عشر من صفر من السنة المذكورة ،
فتوفي بها ولده الأمير الأجل أبو مالك عبد الواحد رحمه الله يوم الأربعاء ،
وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة ، فتأسف والده عليه لفقده ثم تلقّا بالرضا
والتفويض ما حكم الله وأمر فى عبده ورجع الى الصبر الجميل ، وعلم أن
الكل سالك ذلك السبيل .

فلما انقضا شهر صفر الذى توفي فيه ولده أبو مالك ارتحل أمير
المسلمين إلى حضرة مراکش ، فوصل إلى رباط الفتح فى يوم الثانى عشر من
ربيع الأول ، فأخذ به البيعة من بنى مرين بولاية العهد لولده الأمير أبى يعقوب
يوسف ، ثم سار إلى حضرة مراکش ، فدخلها فى نصف ربيع الآخر منها ، فقعد

بها أياماً ثم ارتحل إلى بلاد السوس فهدنها ، وبعث وزيره فتح الله بن عمر السدراني في جيش من ثلاثة آلاف فارس إلى عرب المعقل فغزاهم وقتل منهم خلقاً كثيراً بتيدسي ، وذلك في شوال من السنة المذكورة .

وفي شهر شعبان منها خرج أمير المسلمين يعقوب من بلاد السوس فدخل مراكش وأقام بها حتى أهل هلال رمضان فارتحل عنها إلى رباط الفتح فعيد عيد الفطر ، وارتحل إلى مدينة طنجة فنزل عليها وحاصرها وشرع في قتالها ، ونزل عليها في أول من ذى حجة من سنة إحدى وسبعين وستمئة المذكورة وأقام عليها محاصراً لها ملازماً قتالها غدواً ورواحاً مدة ثلاثة أشهر وقتحها .

وفي سنة إحدى وسبعين المذكورة في اليوم السادس والعشرين من جمادى الآخرة توفي الأمير أبو عبد الله محمد بن يوسف ابن نصر المعروف بابن الأحمد صاحب الأندلس ، فكانت أيام ولايته ثلاثاً وأربعين سنة وسبعة أشهر وأربعة أيام .

وفي شعبان منها توفي الوزير أبو عمّر ابن أبي خالد بمراكش .
وفيها هزم الملك الطاهر صاحب مصر والشام التطر بالقرب من نهر الفرات ، وقتل منهم خلقاً كثيراً لا يحصى وحضر معه في هذه الغزاة مزروع بن جابر العبد الوادي .

وفيها توفي علي بن ياسين الياباني قتله أولاد تاشفين .
وفيها نزل ابن الأحمر على انتقيرة .
وفي نصف شهر صفر منها ولد إبراهيم بن يوسف ابن أمير المسلمين يعقوب رحمه الله .

السنة الثانية والسبعون وستمئة

فيها فتح أمير المسلمين يعقوب مدينة طنجة وأحوازا .
قال صاحب التاريخ عفا الله عنه :

كانت مدينة طنجة منذ قتل وليها محمد بن الأمير وولي الأمير أبو بكر بها وذلك في سنة خمس وستين وستة قد ملكها الفقيه أبو القاسم العزفي صاحب سبتة فضبطها وقام بأمرها مع أشياخها ، فلما نزلها أمير المسلمين وطال عليها الحصار شرع في البناء عليها فبنا جزءاً من البنية المنصورة فضاء ذرع أهلها لأجل ذلك ، ثم إن أمير المسلمين عزم أن يرتحل عنها ويترك عليها جيشاً مع ولده الأمير يوسف فبينما هو واقف أمامها في عشيّ اليوم الذي كان عزم على الرحيل في غد منها والناس يقتتلون بين يديه وقد جنحت الشمس للغروب إذا قائد رماثها مع عصابة من جماعته قد قاموا في برج من أبراجها وكان القائد يعرف باللجي فعقد راية بيضاء ورفعها في البرج المذكور شعراً لذلك وأشاروا إلى أهل المحلة فيأدروا نحوه وأسرع إليه المقاتلون فنصبوا السلام وصعدوا معهم فملكهم البرج ، فأقاموا يحاربون أهل المدينة طول ليلتهم ، فلما كان من الغد تكاثرت عليهم الرجال والرماة من المحلة ونصبت السلام من كل ناحية فانهمز أهل البلد وتركوا الأسوار ، وركنوا إلى الفرار ، وركب أمير المسلمين وضربت الطبول ، فدخلت المدينة على أهلها فعفا أمير المسلمين عنهم وأمنهم ونادا مناديه في أسواقها وشوارعها بالأمان العام لجميع أهلها ، ولم يمت بها في حين الدخلة إلا نفر يسير من المقاتلين الذين رفعوا أيديهم وأشهروا سلاحهم ، وكان فتح مدينة طنجة ودخول أمير المسلمين يوسف إياها في ضحا. يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين المذكورة .

ولما فرغ أمير المسلمين من أمر طنجة المذكورة وأصلح أحوالها بعث ولده الأمير يوسف إلى حصار سبتة ، فسار إليها ونزل عليها بالموضع المعروف بأفراك (21) فأقام عليها أياماً يقاتلها وقطع عنها جميع ما كان يأتيها من البر من المرافق والبوادي ، فصالحه صاحبها الفقيه أبو القاسم العزفي على هدية يبعثها له في كل سنة من الأخبية والسلاح والثياب ، وكتب ببعثه

(21) يقع مكان أفراك في مدخل مدينة سبتة عن يسار الآي إليها من تطوان ، وقد منعت السلطات الإسبانية المحتلة سوره المريني سنة 1970 .

إليه ، فقبل منه الأمير يوسف وارتحل عنه إلى والده فسار معه إلى مدينة فاس
فدخلها في آخر جمادى الأولى من سنة اثنتين وسبعين المذكورة ، فأقام بها
شهرين وخرج منها إلى مراكش ، فوصل في شهر رمضان ، وعيّد بها عيد
الفرط وخرج منها إلى تادلة فأقام بها بقية شوال وشهر ذى القعدة ثم سار منها
إلى سجلماسة .

وفيها أعطى عائد بن منديل وأخوه ثابت إلى يغمراسن بن زيان
تنس وأحوازاها .

وفيها توفي سليمان بن عيش بالأندلس .

وفيها في آخر ذى القعدة منها نزل أمير المسلمين يعقوب سجلماسة
وحاصرها حتى فتحها .

السنة الثالثة والسبعون وستمئة

فيها توفي الفقيه الصالح إمام القرويين علي بن محمد بن حمد ودفن
بخارج باب الكيسة من أبواب فاس رحمه الله ونفعنا به .

وفيها تقدم الفقيه أبو يحيى بن أبي الصبر إماماً بالملك الناصر يوسف
بن أمير المسلمين يعقوب .

وفيها بنى سور مدينة فاس على يد عامل الرباط إبراهيم بن عيسا
الاشقر .

وفيها توفي أبو هلال عياد صاحب بجاية .

وفيها فتح أمير المسلمين يعقوب مدينة سجلماسة وما والاها من
الصحراء .

الخبر عن غزاة أمير المسلمين يعقوب سجلماسة وحصارها وفتحها وجميع أحوازها

قال صاحب التاريخ عفا الله عنه :

سار أمير المسلمين إلى فتح سجلماسة من مراکش وذلك في شوال من سنة اثنتين وسبعين ، فسار إلى تادلة ثم إلى سجلماسة ونزلها ، وكانت سجلماسة في يد يغمراسن بن زيان وعرب المنبسات القائمين بها بدعوة يغمراسن المذكور ، فكان يغمراسن يبعث إليها في كل سنة ولداً من أولاده لضبطها وحمايتها وضبط خراجها ، فسار أمير المسلمين يعقوب في جيوش بنى مرين يصحبه السعد والتمكين ، ويقدم رايته النصر والفتح المبين ، فنزلها بجنود قد ملأت الأرض وعساكر تضيّق بها الفضاء في الطول والعرض ، كما قيل :

عساكر من مرين ما لها عدد وكلمهم فارس الهيجاء ذو كرم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا وهم أذكوا منوك العرب والعجم

فحاصر سجلماسة وأدار بها قبائل مرين والعرب والأغزاز والروم والرمّة ، وشيخ في قتالها ونصب عليها المجانيق والرعدات وآلات الحرب ، وضيق عليها وقطع عنها جميع المرافق فضاق أهلها ذرعاً من شدة القتال والحصار ، وكان سفهاؤهم يصعدون على الأسوار فيسبّثون ويلعنون بالقبيح من القول ، فهتك المنجنيق من أسوارها برجاً ومسافة ، فانهدم البرج والمسافة والناس يقتلون فدخلت من تلك المسافة عنوة بالسيف على قائدها عبد الملك العبد الوادي ، فقتل هو ومن كان معه من بنى عبد الوادي وعرب المنبسات ، وصلىوا على أسوارها ، ودخلها أمير المسلمين فأمّن سائر أهلها وعفا عنهم ، ونظر في مصالحهم ورفع مظالمهم وأصلح أحوالهم وبلادهم ، وأقام بها حتى هدنها وسكّن أحوازها وأوديتها وقدم عماله وارتحل عنها راجعاً على طريقه إلى

مراكش ، وكان فتحه لمدينة سجلماسة يوم الجمعة الثالث من ربيع الأول المبارك من سنة ثلاث وسبعين وستمئة ، وقيل كان فتحها في آخر يوم من صفر من العام المذكور .

فلما رجع أمير المسلمين يعقوب من فتح سجلماسة واستقر بحضرة مراكش وقد تم له جميع ملك المغرب سمع به همته العلية وذاته الكريمة السنية إلى الجهاد ، إذ لم يبق له منازع في البلاد ، فسار إلى مدينة سلا لينظر في أمر الجهاد ، فوصله أن أبا طالب العزفي وصل إلى فاس ليجتمع به ، فسار فاجتمع بها مع أبي طالب في مصالحة وصرفه إلى سبتة .

وفيها وصل أشياخ بني عبد الوادي بالهدية إلى فاس .

وفيها وصلت بيعة الرئيس ابن اشقيلولة .

وفيها بنا علي بن يوسف بن يرجاسن حصن بني بلقيس من أحواز مالقة بالقرب من ذكوان .

وفيها في شوال اتصل به ما هي عليه بلاد الأندلس من الضعف ، ومكانة العدو وشدة الخوف .

وفيها ورد عليه كتاب الأمير أبي عبد الله ابن الأحمر يخبره بحال المسلمين وما هم فيه من الخوف والقتل والأسر ، ونص الكتاب الذي بعثه ابن الأحمر من أوله إلى آخره :

بسم الله الرحمن الرحيم صلا الله على سيدنا محمد وسلم

إلى الملك المؤيد بفضل الله العادل الهام ، ذي الشيم المحموده والاهتمام ، أمير المسلمين وناصر الدين المجتهد في إقامة دعوة الحق ، أبي يوسف ابن عبد الحق ، نور الله تعالى به الآفاق ، وجمل بيهانه الجيوش والرفاق ، من وليه ومجبه في الله تعالى المستجير برحمة الله تعالى وعونه ، والمبتهل له بالدعاء في ائتلاف كلمة الاسلام وصلاح شأنه ، محمد بن محمد بن يوسف ابن الأحمر ابن نصر .

سلام على حضرتكم العلية ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فإن الله تعالى أيد دينه بالاتفاق والائتلاف ، وحرم مسالك
الشتات والاختلاف ، وأنعم على عباده بدولتكم السنية ، وإظهار جنودكم المرينية ،
الذين هم في حرب الأعادى أولو بأس شديد :

مرين جنود الله أكبر عصبه فهم في بنى أعصارهم كالمواسم
مشنقة أسماعهم بمدايح مسورة أيمانهم بالصوارم

فطول علينا بمعلوم حدك ، ومشهود جدك ، وقد جعلك الله رحمة تحيي عيشها
بجيوشك السريعة ، وخلقك سُلماً إلى الخير وذريعة ، فقد تطاول العدو
النصراني على بلاد الاسلام ، واهتضم جنابها كل الاهتضام ، وقد استخلص
قواعدها ومزق بلدانها وقتل رجالها ، وسبأ ذراريتها ونساءها ، وغنم أموالها ،
وقد جاءنا باقراؤه وإرعاده ، وعدده وأعداده ، وطلب منا أن نسلم له ما بقي
بأيدينا من المنابر والصوامع ، والمحارب والجوامع ، ليقيم بها الصليان ،
ويثبت بها الأقسى والرهبان ، وقد وطأ الله لك ملكاً عظيماً ، شكرك الله على
جهدك في سبيله وقيامك بحقه واجتهادك في نصر دينه وتكميله ، ولديك من نية
الخير فابعث بعثك إلى نصر مناره واقتباس نوره ، وعندك من جنود الله
مَنْ يشتري الجنات بنفسه ، ويحضر الحرب باماته ، فإن شئت الدنيا فالأندلس
قطوفها دانية ، وجنائتها عالية ، وإن أردت الآخرة فهاجهد لا يفتر وهاذه
الجنة اذخرها الله لظلال سيوفكم ، واحتمل معروفكم ، ونجن نستعين بالله
العظيم وبملائكته المسومين ، ثم بكم على الكافرين ، فقد قال تعالى وهو أصدق
القائلين : (قاتلوهم يُعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف
صدور قوم مومنين) ، والله تعالى يجمعنا على كلمة التوحيد ينصرها ، ونعمة
الاسلام بالملك يشكرها ، ورحمة الله نتحدث بها وننشرها .

والسلام الموصول المبارك على أمير المسلمين ورحمة الله وبركاته .

فلما وصله هاذا الكتاب وجده عازماً على الجهاد والرباط ، وقوي
العزم في ذلك أي اغتباط ، حريصاً على الغزو والجهاد والجواز ، ليستأهل

بذلك الجنة يوم المفاز ، ثم تابعت عليه الرسل من ابن الأحمر وابن اشقيلولة ، يقولون له يا أمير المؤمنين أنت ملك الزمان ، والمنظور اليه في هذا الأوان ، وقد وجب عليك نصر المؤمنين وإغاثة المسلمين ، وجهاد أعداء الله الكافرين ، فإن لم تنصر الاسلام فمن ينصره ؟ وإن لم تتدارك هذا الصقع الأندلسي فمن يعمره ؟ وكان الشيخ أمير المسلمين ابن الأحمر قد أوصا ولده الأمير أبا عبد الله عند وفاته أن يستدعي أمير المسلمين يعقوب إلى الجواز إلى الأندلس ، وأن يبذل له ما يريده من الحصون والبلاد ، وكتب براءة بخط يده يستنصره ويستعيث به فيها ، وقال له : يا بني إذا مت ابعتُ بهذه البراءة إلى ملك العدو أمير المسلمين يعقوب وادعُه للجواز والجهاد ، فإنه ناصر هذه البلاد ، فبعث له ابن الأحمر البراءة التي كتب له والده عند وفاته فلبث أمير المسلمين دعوتهم ، وأجاب استغاثتهم واستنصارهم ، وكتب إليهم جواب كتاب استنصارهم رسالة من بعض فصولها :

شكواكم رحمكم الله وأعانكم وأيدكم بتأييده ونصركم عندنا من احتراق القلوب ألمٌ أو أرا نصركم بوجد ونار لا يطفئه إلا من يناسب دعاء العداة ، يوم تجوس خلالها الأبطال من الحماة والكماة ، وعزم لا يناله إلا التمتع في دار العدا بالنهب والقتل ، وليس إلا نشيد العزم وتأسيسه ، وباحتة بالقلوب وتعريسه ، حتى يصل إلى حدته فنجرعه من الموت كؤوس ، ونرفل من الغزو في شמוש ، وتجادله في عز دار تنمو بذلك دار المقامة يوم التناد ، والفوز يوم المعاد ، وإنا لنرجو أن نصلكم بنفوس صلح جهرها وسرها ، وسقِّيَ بماء الثلج واليقين غرها ، ونقدم عليكم بما يبسط نفوسكم ويسرها ، ويطلع لها الفرح من المكارة ويذهب عسرها فلتطب نفوسكم برحمة الله وعونه ، ولتفرحوا بفضل الله وصونه ، ونحن قادمون عليكم في أثر هذا إن شاء الله ووعدنا بوفاء يعين الله على أعدائه ونفد عليكم بأنصار الدين وأودائه ، وصحبنا قوم باعوا أنفسهم من العزيز الوهاب بجزيل المواعد ، يعملون في مرضاته الأسنة والسيوف القواضب ، ويصبون على الكفار العذاب الواصب ، يركبون اليكم نبج هذا البحر الأخضر عازمين على الجهاد ، وحر الجلال ، لا ظل لهم في الهواجر إلا ظل القنا وورود الثماد ، عند انصرام شهر المحرم من سنة أربع

وسبعين وستمئة نجوز إليكم وذلك أوان ظهور النبات واهتزاز الأرض بالخيرات ، فاعدوا للقاء ما نعد ، واستعدوا للقتال وتوكلوا على الله مثلما نستعد ، لأنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، واعلموا أنه لا تأثير لعبد إلا بالله ، وإياكم وإيانا من الاعجاب بالكثرة والعدد ، فان الله تعالى يقول : (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً) ، والله يعيننا وإياكم ، ويحسن محيانا ومحياكم ، والسلام عليكم .

ولما وصل كتاب أمير المسلمين إلى ابن الأحمر وقراه سرّ به وبعت بنسخته إلى من بالمدينة يرسم الجواز إلى الأندلس للجهاد .

الخبر عن خروج أمير المسلمين يعقوب من فاس برسم النظر في أمور الأندلس والجواز إلى الجهاد

قال صاحب التاريخ رضي الله عنه :

لما تواترت الرسل وتتابعت الكتب على أمير المسلمين يعقوب رحمه الله من ابن الأحمر وابن اشقيلولة يستنصرون به ويستدعونه إلى الجواز والجهاد خرج من مدينة فاس ملبياً دعوتهم ، وقاصداً نصرتهم ، في النصف من شهر رمضان المعظم من سنة ثلاث وسبعين وستمئة المذكورة ، فسار حتى نزل مدينة طنجة ، فكتب منها إلى الفقيه أبي القاسم العزفي صاحب سبنة يأمره بعمارة الأجناف الغزوانية لجهاد المشركين في البحر وتيسير المراكب وإعدادها بقصر الجواز (22) لتجوز المسلمين المجاهدين ، ثم دعا بولده أبي زيان فعقد له على جيش من خمسة آلاف فارس من أنجاد مرين وأعطاه طبولا وبنوداً ومالا وعدداً وجهزه بكل ما يحتاج إليه ، ثم عقد له رايته المنصورة ليقدمها بين يديه ، وأوصاه بتقوا الله تعالى في سره وجهره ، ودعا له ووجهه ، وانصرف

(22) قصر الجواز ، وقصر المجاز ، وقصر مصودة هو المسا اليوم بالقصر الصغير الواقع على ساحل مضيق جبل طارق بين سبنة وطنجة .

الأمير أبو زيان بجيشه من طنجة إلى قصر المجاز ، فوجد الفقيه أبا القاسم العزفي رحمه الله قد اتخذ له هنالك عشرين جفناً بغزاتها ورماتها وعددها ميسرة لتجوز المجاهدين ، فركب الأمير أبو زيان البحر هو وجميع جيوشه من قصر المجاز ، فنزل مدينة طريف من سواحل بلاد الأندلس ، وكان جوازه رحمه الله في السابع عشر من شهر ذي حجة من سنة ثلاث وسبعين المذكورة ، فأقام الأمير أبو زيان بطريف ثلاثة أيام حتى استراح الناس والخيول من هول البحر ، ثم خرج منها إلى الجزيرة الخضراء فقصعها وبعث بالغنائم إلى الجزيرة ، ووالى السير في بلاد العدو حتى وصل إلى شريش ، وهو يقتل ويسبى ويخرب ما مر عليه من القرا والحصون والبروج ويفسد الزرع ويقطع الثمار وينسف الآثار ، ولم يقدر أحد من الروم أن يخرج إليه ولا أن يصده عن قصده ، ثم قفل بالغنائم والسبى إلى الجزيرة فدخلها والروم بين يديه في القطائن (23) والأغلال ، والنساء والذرية يقادون في الجبال ، وفرح أهل الجزيرة بقدومه وقوي إيمانهم .

وكانت بلاد الأندلس من وقعة العقاب التي هزم فيها المسلمون مع الأمير الناصر الموحدى في سنة تسع وستمئة لم تنشر بها للمسلمين راية حتى جاءت راية أمير المسلمين يعقوب المنصور ، وكان أهل الأندلس قد خامرهم خوف الروم وامتلات قلوبهم رعباً منهم ، فكانوا لا يستطيعون قتالهم ولا يقدر أن يواقفهم ساعة فملك الروم أكثر بلادها وقواعدها وحصونها ومعاقلها ، فلما جاء الأمير أبو زيان براية والده المنصورة أعزه الله تعالى بجوازها وأعز بها الإسلام وأيد بها حزب الإيمان ، وأذل بغزتها عبدة الأصنام والأوثان .

وفى أول ذي حجة من سنة ثلاث وسبعين المذكورة أعطا الوزير ابن هشام الجزيرة لأمير المسلمين ، فدخلها الأمير أبو زيان والغنائم بين يديه ، وجاز الوزير ابن هشام إلى أمير المسلمين للعدوة فلاقاه بسوادى قشوش من أحواز طنجة ، وفى هاذة الأيام توفي الرئيس فرج بن أبى محمد اشقيلولة .

(23) جمع ططينة ، وهو القيد الذى تفل به الأيدى ، وملزمة يضغط بها على الخشب المغرقة في عرف التجارين .

ولما جاز الأمير أبو زيان إلى الأندلس بعث أمير المسلمين حفيده تاشفين بن الأمير عبد الواحد إلى يغمراسن بن زيان أمير تلمسان يطلبه في الصلح والألفة واجتماع الكلمة لكي يجوز إلى الأندلس آمن الروعة من بلاده ، فأسعه يغمراسن بمطلبه ، فتم الصلح بفضل الله بينهما على المراد وجمع الله تعالى كلمة الاسلام ، وألف بين المسلمين ونفا عنهم التحاسد والتنافس والاضلام ، فلما وصل الأمير تاشفين بن الأمير عبد الواحد من تلمسان وقد تم صلحه مع يغمراسن بن زيان سر أمير المسلمين يعقوب بذلك سروراً عظيماً وأخرج الصدقات ، فتصدق بمال جزيل في جميع بلاده شكراً لله تعالى على ذلك ، ثم كتب الكتاب وأخرج به للرد إلى أشياخ بني مرين وأمرأ العرب ورؤساء قبائل أهل المغرب من المصامدة وجزولة وصنهاجة وغمارة وجانانة يستنفروهم إلى الجهاد ثم ارتحل إلى قصر المجاز .

السنة الرابعة والسبعون والستمئة

في أول محرم منها ارتحل أمير المسلمين يعقوب إلى قصر المجاز فنزل به وأخذ في تجويز أجناده وأهل دواره ، فكان الناس يجوزون فوجاً بعد فوج ، وقبيلة بعد قبيلة ، وطائفة بعد طائفة ، فكانت المراكب والسفن غاديات ورائحات آتاء الليل وأطراف النهار من قصر المجاز إلى طريف يزدحمون في ذلك المعبر :

| | |
|------------------------------|----------------------------|
| فالمرسلات تهوق العاديات السى | غزو العداة وتجويز صباح مسا |
| كأنما البحر أضحا للجياد مدا | وكل شعبة ماء حولت فرسا |
| كأنما اقترب البران واتصلا | فصار ذاك طريقاً للورا ييسا |

فلما تكامل الناس بالجواز واستقروا ببلاد الأندلس وانتشرت عساكر المسلمين بها من مدينة طريف إلى الجزيرة الخضراء جاز أمير المسلمين يعقوب في آخرهم في خاصته ووزرائه وخدام دولته ، ومعه جماعة من صلحاء المغرب وكان جوازه رحمه الله في ضحا يوم الخميس الحادى والعشرين من شهر صفر من سنة أربع وسبعين المذكورة من قصر المجاز على حين غفلة من الناس ولم

يشعر بجوازه أحد" حتى طلع في الجفن ، فسَهّل الله عليه الجواز وهون عليه ركوب البحر ، فخرج بحجر الأيل من سواحل الأندلس ، وكان أهل العلم بالحدثان يقولون إن الاسلام ينصر بالأندلس على يد ملك يعبر اليها البحر من العدو ويخرج بحجر الأيل من غير قصد ولا رؤية ، وهذا من عجيب الاتفاق ، فسار من حجر الأيل إلى ظريف فصلاً بها الظهر وارتحل من يومه ذلك إلى ناحية اللاتنة ، فاجتمع هنالك مع ابن الأحمر والرؤساء بنى اشقيلولة بعساكرهم ينتظرون ، فتلقوه وسلّموا عليه وفرحوا بقدومه واهتزت بلاد الأندلس بجوازه .

وكان بين ابن الأحمر وبين ابن اشقيلولة ضدّ ومنافسة وشجناء فازالها وأصلح بينهما ، واجتمعت بحول الله تعالى كلمة الاسلام ، وتآلفت قلوبهم على التقوا وجهاد عبدة الأصنام ، فتفاوضوا فيما يصلح المسلمين ، وكيف يكون وجه العمل في جهاد عبدة الأصنام ، فأقاموا معه ثلاثة أيام وانصرف ابن الأحمر إلى غرناطة غير راض ، وسار بنو اشقيلولة الى مالقة ، وارتحل أمير المسلمين يعقوب آخرهم في خاصته ووزرائه وخدام دولته ، ومعه جماعة من صلحاء المغرب .

وكان جوازه رحمه الله في ضحا يوم الخميس في اليوم الرابع بجميع جيوش المجاهدين من العرب وبنى مرين ، قاصداً الجهاد الكافرين ، لم يقعد ولم يثبت ، ولم يبال بمن سار عنه أو قعد أو أبطأ أو تخلّف ، ولم تستطع جفونه مناماً ولم يلتذّ شرباً ولا طعاماً ، ولم يزل يجدّ الرحيل ويوالى المسيرة ، حتى وصل إلى الكوادي الكبير ، مخافة أن يشعر الروم أو ينذر به نذير ، فعقد هنالك لولده الأمير يوسف على مقدمته وقدمه بين يديه مع الأدلاء في جيوش من خمسة آلاف فارس من أنجاد بنى مرين والعرب ، وأعطاه الطبول والبندود ، فتقدم والدّه بمرحلة ، وسار هو في أثره في جميع جيوشه ، فانتشرت عساكر المجاهدين في أرض المشركين كأنها السيول الطامية أو الجراد المنتشر ، لا يمرون بقرية إلا خربوها ولا بشجرة إلا قطعوها ، ولا بزرع إلا حرقوه وأفسدوه ، ولا بمال إلا غنموه وأكلوه ، حتى أتوا على جميع ما بتلك النواحي

من القرا والمدن ، وقتلوا جميعَ مَنْ وجدوا بها من الرجال ، وسبوا الذراري والعيال ، ثم والا السيرَ إلى بلاد الكفرة حتى وصل إلى حصن المقورة ما بين قرطبة وإشبيلية يقتل ويسبي ويهدم ويُخرب حتى دمر جميع ما مرَّ عليه من البلاد ، وقتل ممَّن بها من الروم الوفاً لا تحصا لها أعداد ، ودخل ستاً من القرا بالسيف فهدمها وأضرها ناراَ ودخل حصن بلعه عنوة بالنسيف ، ولم يحي من رجاله أحد ، وغنم المسلمون جميع ما كان به من الأموال والذراري والعيال ، وامتلات أيدي المجاهدين بالغنائم ، ثم سار رحمه الله إلى أحواز قرطبة أعادها الله للإسلام ، ودوخ تلك البلاد بالقتل والسبي ، ثم أمر رحمه الله بالغنائم فجمعت فاجتمع من الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والنساء والذرية والسلاح والعدد والثياب ما ملأ السهلَ والوعر ولا يحويه عدد ولا حصر ، ثم أمر بها فقدمت بين يديه ، وقدم عليها أمناء يحفظونها ، وأفسد كلَّ ما مرَّ عليه من البلاد بالحرق والهدم والخراب ، وأضرَم النيران في الزروع حتى صارت البلاد كالشقق ، ولم يبق بها زرع ولا نبات الا احترق ، واجتمع السبي على سبيل العادة وفاضت الغنائم فيض النيل ، فسار أمير المسلمين والغنائم تساق أمامه وقد ملأت الأرض طولاً وعرضاً حتى وصل إلى أسجة جبرها الله للإسلام ، فوصل إليها وبرز عليها بجيوشه المنصورة وعساكره المظفرة وصعد أهل أسجة على الأسوار ينظرون إليه والغنائم تجوز أمامهم على باب المدينة والروم في السلاسل والنساء في الحبال وأهل البلاد ينظرون إليهم ويصيحون وينوحون ، وارتفعت أصوات المسلمين بإعلان الشهادة والتكبير ، وكان يوماً على الكافرين عسير ، فبينما هم كذلك إذ أقبل رجل بدوي من أهل الأندلس إلى أمير المسلمين فأخبره أن النصارا دمرهم الله قد حشدوا واجتمعوا كبيرهم وزعيمهم دون نونيو دي لارا وأنه قد خرج في أثر المسلمين في جيوش عظيمة ، وجنود جسيمة كثيرة ، لا يحصا عددهم وهم لاحقون بك ، ومستعدون إلى حربك ، واستنفاذ غنائمهم من يديك ، فتأهب للقائهم ، وكن على حذر من أمرهم ، والله يؤيدك وينصرك عليهم ، قال : فاستبشر أمير المسلمين بمقاله ، وقال نرجو من الله أن يظفرنا بهم وبجنودهم وأقبا لهم .

الخبر عن غزاة أمير المسلمين يعقوب وملاقاته مع دونونيو دى لارا أمير النصرانية وما منح الله فيها المسلمين من النصر على الكافرين

قال المؤرخ لأيامهم :

فلما وصل أمير المسلمين يعقوب رحمه الله إلى مدينة أستجة ونزل عليها بجنوده وطبوله وبنوده وبما أفاء الله عليه من غنائم الروم إذ أتاه النذير بأقبال دونونيو كبير النصرانية وزعيمها إلى حربه بجموع الروم وحشودها فى ثلاثين ألف فارس وستين ألف راجل ، فدعا أمير المسلمين أشياخ قبائل مرين وأمرأ العرب وقواد الأندلس والأغزاز ومن فى عنسكره من الفقهاء والصلحاء والقبائل وأشياخهم المطوعين ليشاورهم كيف يكون العمل فى لقاء العدو المقبل إليهم اتباعاً لأمر الله تعالى واقتداءً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ هي الصفة المحمودة التى مدح الله بها هاذى الأمة لقوله تعالى (وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) وقوله تعالى (وشاورهم فى الأمر) ، فاستشار أولاً أشياخ بنى مرين ثم أشياخ العرب ثم أشياخ المطوعة ثم قواد الأندلس والأغزاز ، كل يقول بما ظهر له من القول والنصيحة للمسلمين .

فلما أخذ رأيهم أمرهم بالاستعداد للقاء العدو والصبر والثبات عند اللقاء ، فبينما هم كذلك إذ نظر الناس إلى طلائع جيوش الروم قد أقبلت نحوهم على بعد والرجال أمام الخيل واللعين دونونيو دى لارا فى وسط الجيش ، وكبان الفئش أخزاه الله حزمه بيده وزوجه ابتته وفوضه على جيوشه وحروبه ، وفوض إليه الأمر فى جميع بلاده وجنوده ، وكان النصارا دمرهم الله قد سعدوا به لأنه كان لم يهزم قط ، وكان مع ذلك وبالا على بلاد الاسلام شديد الوطأة عليها ، قد أبادها وفتح أكثرها ،

لا يفتر عن القتال والسبي والقتل في كل الأوقات ومرور الأيام ، فأقبل اللعين إلى أمير المسلمين تحت ظلال البنود والأبواق ، تخفق على رأسه في جيش قد ملأ الأرض يموج كأنه الجراد ، والرجال والرماة أمام الجيوش وكلهم قد أعدوا للحرب أوزارها ، وزعموا أنهم حجابها وأوزارها ، ولبسوا لها أسنن العدد ، واعتمدوا على الكثرة ووفور العدد ، وتدرعوا بالمصفحات من الحديد والزررد النضيد ، والمغافر وظهر أهل 'شنت مرية' ، حمية الجاهلية ، فلما عاين أمير المسلمين من حالهم في إقبالهم أمر بالغنائم فقدمت بين يديه وبعث معها ألف فارس من بنى مرين وألف راجل من المجاهدين المطوعين ، وتأخر هو ومن بقي معه من المسلمين مستعدين لقتال الكافرين ، ثم ترجل عن جواده فأسبغ وضوءه وصلاً ركعتين ثم رفع يديه وأقبل على الدعاء والمسلمون يؤمنون على دعائه ، فكان في آخر دعائه ما دعا به النبي (ص) يوم بدر للصحابة (اللهم انصر هاذة العصابة وأيدها وأعنها على جهاد عدوك وعدوها) فأجاب الله تعالا دعاءه ورحم تضرعه وابتهاله ، فلما فرغ من دعائه قام فاستوا على جواده ، واستعد للقتال وجلاده ، وعقد لولده الأمير الأجل يوسف على مقدمته ، ونادا على المسلمين فقال : يامعشر المسلمين ، وعصابة المجاهدين ، أنتم أنصار الدين ، الذابثون عن حماه والمقاتلون عِداه ، وهاذا يوم عظيم ، ومشهد جسيم ، نه ما بعده ، ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها ، وزينت حورها وأترابها ، فبادروا إليها ، وجدوا في طلابها ، وابدلوا النفوس في أثمانها ، ألا وإن الجنة تحت ظلال السيوف ، وإن الله اشترا من المومنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فاعتنموا هاذة التجارة الرابعة ، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة ، وشمروا عن ساعد الجد في جهاد أعداء الله الكفرة ، وقتال المشركين الفجرة ، فمن مات منكم مات شهيداً ، ومن عاش رجع إلى أهله سالماً غانماً مأجوراً حميداً ، فاصبروا وصابروا واتقوا الله لعلكم تفلحون .

فلما سمعوا منه هاذة المقالة ، تآقت أنفسهم للشهادة ، وعانق بعضهم بعضاً للدواع ، والدموع تنسكب والقلوب لها وجيب وانصداع ، وكلهم قد طابت نفسه بالموت ، وباعها من ربه بالجنة قبل الفوت ، وارتفعت أصواتهم بالشهادة والتكبير ، وكلهم يقول عباد الله إياكم والتقصير ، فتسابقت أبطال

المسلمين نحو جيش الروم معتمدة على الحي القيوم ، فالتقا الجمعان ، حزب الله وحزب الشيطان ، والتحم القتال ، واشتدّ النزاع وعظمت الأهوال ، وقسم اللعين دونونيو جيوشه على خمسة أجزاء ، ليظهروا جوعاً متكاثرة ، فكانت والحمد لله خاسرة ، وأقبلت الروم بدفعتهم إلى المسلمين فتلقاهم المجاهدون بقلوب صابرة ، ونية صادقة ، فلا ترا إلا السمر تهوى فى الروم كأنها الشهب الثواقب ، والبيض تفعل فى أعداء الله فعل العذاب الواصب ، والسيوف بالدماء ترعف ، ورؤوس الكفرة عن الأجساد تقط وتقطف :

مبا دبٌ للاسلام منهم دارج إلا وصَبَّ عليه منه عقاب
أوجاء مسترقاً إليه مارد إلا وأحرقه هناك شهاب
أو فارق المعمود منه صفه يوماً فكان له إليه إياب

فدارت بهم فرسان' المجاهدين ، من العرب وبنى مرين ، كالآساد الضارية إذا برزت من العرين . يحكمون فى رقابهم السيوف ، ويذيقونهم مرارات الحتوف ، وقد صبروا لجهاد الكفرة صبر الكرام ، فى حرب اللثام ، وقتل زعيم الكفرة دونونيو وولده وهزم جيشه وقتلت جموعه ، وأنجز الله تعالا وعده لعباده المومنين ، وأيدهم بملائكته المَسوئين ، ونصر دينهم على أعدائه الكافرين ، واستأصلهم المسلمون بالقتل ، ولم يكن إلا كلمح البصر حتى لم يُبق السيوف من الروم مَن يرجع لقومه بالخبر ، ولم تبق الرماح منهم باقية ، ولم تق الدروع والمجن عنهم واقية ، وقطع رأس اللعين فى الحين وتكسرت أعلامه ونهبت عساكره ، وحمد الله أمير المسلمين على ما منحه من الفتح المبين ، وأمر بجميع القتل تقطع رؤوسهم وإحصائهم لعددهم ، فقطعت الرؤوس وجمعت فكانت ثمانية عشر ألف رأس ونيف ، وطلعت رؤوس الروم مثل الجبل العظيم ، فصعد المؤذنون عليها فأذنوا بصلاة العصر ، فلما سلم المسلمون من صلاة العصر افتقد أمير' المسلمين جيوشه ونظر مَن استشهد منهم فى تلك الغزاة مِمَّن سبقت له الشهادة وقضي له بالجنة والسعادة ، فوجد ستة نفر من بنى مرين ، وسبعة من العرب وثلاثة من الأندلس ، وثمانية من المتطوعين ، فكانت جملتهم أربعة وعشرين رجلا ، فأمر المسلمين بدفنهم ومواراتهم وتعفية آثار قبورهم ، ثم أثنا على الله وشكره ، وأطال حمده وذكره ، وكانت هاذ

الغزاة العظيمة ، والنعمة السابغة الجسيمة ، التي أعز الله بها الاسلام ، وأذل بها عبدة الأصنام ، فى يوم السبت الخامس عشر من شهر ربيع الاول المبارك الذى من سنة أربع وسبعين وستمئة .

وجاهد أمير المسلمين يعقوب فى هاذة الغزاة حق جهاده ، ونشر دين الله هو وجنوده وحفدته وأولاده ، وبأشهر الحرب بنفسه فقتل من الروم عدداً بيده ، ورفع الله بهاذة الغزاة للاسلام مناراً ، واضفاً بها على يده الكريمة للكفر ناراً ، فعمت جميع المسلمين المسرات ، وتواترت على أهل بلاد الاسلام البشارات ، ووردت من حضرته العلية إلى البلاد الغربية المخاطبات ، بشرح هاذة الغزاة الكريمة فقرعت الطبول على العادة المعتادة فى الفرحات على ما سنّاه الله تعالا من الفتوحات ، وأخرجت الصدقات ، ونشرت رايات الكفرة منكسة فى أعلا منار القرويين ومنار جامع الكتبيين بمركش ليعايننها الحاضر والبادى ، والرائح والغادى ، والحمد لله رب العالمين .

وحضر فى هاذة الغزاة الرئيس أبو محمد بن أشقيلولة مع ابنه وأخيه وجماعته وأبلا فيها بلاء حسناً .

ووصل أمير المسلمين بجميع جيوشه المنصورة إلى الجزيرة الخضراء منصور اللوا ، مؤيداً على العدا ، وقدم بين يديه الغنائم والسبي وأسرا الروم مصفدين فى الأغلال ، فدخلها فى الخامس والعشرين من شهر ربيع الاول المذكور فى احتفال عظيم ، وبروز جليل ، وزعماء الروم وأقيالهم يقادون أمامه فى ثقطان ، ونفس اللعين دون نونيودي لارا على عصا مرفوعاً بين يديه ليراه الناس .

فلما دخل قصره بعث بالراس إلى ابن الأحمر بغرناطة ليرا فعل الله تعالا فى أعدائه ، فلما وصل الرأس إلى ابن الأحمر صبره وجعله فى المسك والكافور وبعث به إلى ألفنش لعنه الله يستخدمه بذلك ويستألفه ويتجسب إليه ، فقسّم أمير المومنين بالجزيرة ما أفاء الله عليه من الغنائم على المجاهدين بالسوية والاعتدال ، للفراس سهمان وللراجل سهم واحد بعد أن نزع منها الخمس لبيت المال . وكان ما غنم المسلمون فى هاذة الغزاة مئة ألف رأس

من البقر وسبعة وعشرين ألفاً ، وأما الغنم فلا تحصى حتى بيعت الشاة منها بالجزيرة بدرهم ، وكان عدد الأسرا من الرجال والنساء سبعة آلاف وثمانمئة وثلاثين نفساً ، وعدد البغال والحمير أربعة عشر ألف رأس وستمئة رأس ، وأما الدروع والسيوف والمغافر والتروس والبيضات فما لذلك عدد لكثرتة ، فامتلات أيدي المسلمين وصلح حالهم وحال أهل الأندلس ، وأخذ حظه من ذلك القوي والضعيف ، والمملوك والشريف .

وكتب أمير المسلمين الى بلاد العدو بشرح هاذة الغزاة وبما أسناه الله تعالى من الفتح العظيم والنصر الجسيم كتاباً قرىء على منابر بلاده ، وكتب أيضاً الفقيه أبو القاسم العزفى إلى فقهاء المغرب وصلحائه بشرح هاذة الغزاة بعد الافتتاح :

أما بعد حمد الله الذى بحمده يزيد المزيدي من فضله ، وبعضه تنفتح راية الفتح فلا تغلق بعد فتحه وخله ، وبحمده تفتح (الغنائم) التى أحلت لنبيينا محمد (ص) ولم تحل لنبي من قبله ، والصلاة على سيدنا محمد نبيه المصطفى ، وصحبه الأعلام ، نجوم الاسلام ، المقتدا بهم إلى مناهج الحق وسبيله ، والمناجزين عدو الله وعدوهم على كثرة عدده ، بحسن قبول الدعاء للمقام العظيم المرينى يعقوبى بدوام السعد ووصله ، ومزيد الفتح المشفع بمثله ، ومضاعفة الخيرات على ما عني به من جمع كلمة الاسلام بعد شتات شمله ، وعلى ما أهل به فى تمهيد البلاد ومصالح العباد بمقتضى الشرع الدينى الذى هو من أهله ، فكُتب كتب الله لكم من البشائر أفصحها وأصحها خبراً ، وأوضحها غرراً ، وعرفكم من عوارف منحه الجسيم ، وصنعه الوسيم ، ما لا يزال يتردد ويتجدد أصالاً وبكراً ، من سبته حرسها الله تعالى وآله الله تعالى ظاهرة القيام وافرة الأقسام ، مبتسمة بها الأيام أجمل ابتسام ، والحمد لله على ما سنه من أياديه الجزيلة وأنعمه الجسام ، وأنتم معشر الأولياء الأصفياء فى الله تعالى معتمدون بالمسرة والاجلال ، موفياً حق جلالكم الذى يقدمه من لهم صالح الأعمال مردد من شكر جلالكم السنية وأعمالكم الدينية ما اتصل بصفة الحسن الذى لها والجلال ، مستوهبة ادعيتكم الصالحة وهي اهم ما

طمحت لاستهائه طوامح الآمال ، منحتم إدخال السرور على قلوبكم ، فى كل ما يأتى على وفق مطلوبكم من مسرات الخيرات السابغة السربال ، وبحسب ذلك حفظكم الله تعالى وحفظ كمالكم مبادراً إلى إعلامكم بالتعريف من البشائر ، ومبالغ فى التأكيد على الرسول به فى سرعة الوصول إلى تلك المجالس والمحاضر ، والعلم بأن لمحضركم من الفضل والدين ما هو فيه غيركم ولكونكم تحضون على جهاد الأعداء بأقضا وسعكم وإمكانكم حد ما يقتضيه قوى إيمانكم ، وقد كان فى هاذة الأيام الخالية من صنع الله العجيب ، ونصر دينه الذى هو الآن غريب ، من المسرات أوفر نصيب ، وذلك باعتناء ما خصه الله من العناية الربانية فليس هو بغريب ، فوفا المومنين حقه بأوفا حظ وقوا رجاءهم لئلا تنقطع البشرى عنهم بنصر الله وفتح قريب . على يد من رجعت به كلمة الاسلام واحدة ، وغدت بيمينه وجوه السعد والاقبال مسعدة ومساعدة ، ونشطت بأنجاده وعونه نفوس الرجال للقيام بمحاربة أعداء الله الذين صاروا بطول الدعة والنعم المتسعة من ربات الحجال بعد ما كانت متكاسلة عنها متقاعد ، الملك الذى ليس له فى عصره مضاه ، والخليفة الذى يقصر عن ملحق شأوه كل مفتخر مباه ، والامام الذى هو بسبب الحق آمر وناه . الملك الأجل ، الأسنا الأسما الأنما الأفضل الأطول البجل المؤمل ، المنعم المجمل ، المحسن المفضل الذخر الملاذ المعظم ، الهمام الأمير المنصور ، المظفر المشكور ، المجدد الأحفل الأعدل ، المجاهد الأكمل ، أمير المسلمين ، وناصر الدين ، القائم بالحق ، أبو يوسف ابن عبد الحق . والا الله نصره واعلامه بطريق جميل واجلاله فى سبقه الى أفضل الطاعات ﴿ بياض ﴾ وبماله من القبائل والجماعات وكريم مقدمه ، وذلك أنه لما اجتاز البحر إلى بر الأندلس نصره الله بجيشه الجرار ، وأبطاله الذين اتصفوا فى حال الشدة بصفات الأولياء الأبرار ، وحازوا من البسالة ما يقصر أهل الاطالة فى عظمه الذى هو أوضح من ضياء النهار ، ويقدم شيئاً على الأخذ فيما كان أمر من نظم شمل أهل الايمان ، واجتثاث محل التشاجر الواقع بينهم من أصلها والشنآن . لتعمله بما ورد أن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، ولقوله تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) ، ولما حظي بتمام الأمل فى ذلك والاختيار ، بادر إلى جهاد أعداء الله

الكفار ، وحاز إنجاز وعد الله بالحماية له والاطهار ، ابتغاء الجنة التي اشتراها الله بها من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، فيا لها من صفقة رابحة ، فنهض إلى قرطبة أعادها الله للإسلام بعسكره المنصور ومخاض النجح ودلائل الفتح ذات وضوح عليه وظهور ، فوقعوا في جيش الكفرة الذي كان لهم يدا علم الغرور ، لاحتفال الطاغية قصمه الله في حشده وتحمل لهم أنه فاعل الافاعيل التي لا خفض لرفعه ، وكان الفتنش لعنه الله قد قدم بين يديه دونونيو كبير النصرانية وزعيمها ببلادهم الذي اعتقدوا ألا ناصر مثله لدينهم الخبيث وعاضدا لظهوره بزعمهم الكاذب في الوقائع العظيمة ونعله فيها ما نقلوا أنه لم ينقل مثله في تواريخهم القديسة ، فلما التقا الجمعان ، وشرعا في الضرب والطعان ، عمل المسلمون بمقتضا قوله عليه السلام : غبار في سبيل الله ودخان جهنم لا يجتمعان ، فاقترحموا في جموعهم ، معملين في قتلهم سيوفهم ، تفرق جمع الكفرة تفرق أيدي سبا ، ونكست أعلامهم وقتل حمايتهم وولت فرسانهم منهزمين فارين هاربين ، فطفقت خيل المسلمين ، من ورائهم لاسقين لزامهم وعاد النهار ليلا من شدة القتام ، وطلعت لعدو الله دونونيو نجوم نحسبه ، فكب منكوساً على رأسه ، وأدركه الحين لحينه ، وقطع رأسه على رغم أهل دينه ، ورأى ولده عليه من العار ، أن يتخلف عن أبيه ساعة في دخول النار ، فاتبع به سريعاً ، واستحضر القتال فاستمر على من بقي منهم فقطع تقطيعاً ، وجملة ما أحصي من قتلهم بلا خلاف ، ما ينيف على ثمانية عشر ألف ، وبعدما انتشر ، بهذا القتل الخبر ، وكثر العجب من كثرة ما حل بأعداء الله ابتهجت النفوس به وسرت ، ومرت البشائر به واستمرت ، وتواترت الأخبار من بلاد الكفار دمرهم الله وأبادهم ودمر أموالهم ، بأن المفقود منهم أربعة عشرة ألفاً وزيادة ، فوجدت بذلك البشرى ووردت على المسلمين مسرة عظيمة عقب أخرى ، وكل ذلك من نعم الله تعالى من الأبناء المترادفة ما تبتهج به نفوسهم وترضا ، ويعرفهم من ورود المسرات ما يتبع بعضه بعضاً ، وعندما أومت الظبا للركوع ، وقعت رؤوس العدا ساجدة أسرع وقوع ، وضائق بها سعة الأرض حتى أشبهت الرهبان من دخول

بعضها فى بعض فارتفعت على أعلا الصوامع كالجبل الشاهق ، فصعد المؤذنون عليها للأذان ، فكان أشها مسموع بالآذان والمسامع الموائق ، فياله من محل جامع للشرف الأعلا وأي محل أعلا شرفاً من هاذا الجامع الرائق ، استمر صيت الاسلام به فأصبح فضيلته مشهوراً وأرا عباد الله ما كانوا يرغبونه من الله فى إنجاز وعده ، بنصر الاسلام وعضده أعواماً عديدة وشهوراً ، وقد أفاء الله تعالا فى هاذه الغزاة من الفنائم العظيمة والخيرات الجليلة الجسيمة ، ما لا يبلغه الوصف ولا يدركه ، ولا يشق الأوهام سبيل تخيله ولا تسلكه ، من خيل مسومات عراب ، وأسلحه لا قيمة لها وآلاف من الغنم والبقر والبنغال والحمير والثياب ، كل ذلك من الذخائر التى يجب لمن تخلد (بياض) وهاذا الجمع المقتول ، كان شؤنة الكفر التى بها يصول ، وعدتها التى أعدها لكل أمر مهول . ظنه أنه جمع السلامة فاذا هو التكسير ، واتخذة ولياً ناصراً والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير ، فلم تبق والحمد لله نفوس باقية للكفار إلا وتحكمت فيهم سمر العوالى وبيض الشغار ، فاقتضت سيوف المسلمين عذار أبكار نفوسهم بعد أن بذلت لها فنون الرعب مهورا ، واغتسلت بماء الدماء منهم فكان له طهورا ، وحان وقت صلاة العصر فاغتنمت فضيلة أدائها فى أول الوقت فقامت لله تعالا فى محارب الحروب بأداء فرض صلاة العصر ، فوهب لها من عصابة الجزبل ما جل عن استقصائه الحصر ، وما كان عطاء ربك محظورا ، وفى يوم السبت منتصف ربيع الأول المبارك أتبع هاذا الفتح الذى سنأه الله تعالا فضلا منه على فئة الاسلام وأعظم بها فئة وذلك من عام أربعة وسبعين وستمئة ، نور الله بصيرة جيشها المنصور فى يوم سبته المذكور ، وجمعها فى غدوها ، اعتماداً فيه على قوله عليه السلام : بورك فى أمتى فى سبتها وجمعها ، وهاذا الشهر المبارك الذى خصه الله من البركات السنية والحالات الربانية ، حالة رتبة التشريف والظهور ، على سائر الشهور ، وهو مولو نبينا محمد صلا الله عليه وسلم (بياض) الوسط منه لما ورد من التفضيل من الخير لاوسط الأمور ، ومقاصر بنيت على التوفيق مبانيها فتكفل الله بتسييرها وخصائص أسباب عن ما لاهلها من رتبة الجلال والتعظيم (لا يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) ، ومن عجائب نصع الله تعالا الذى أيد أهل دينه

ونصر ، وأهدا إليهم المسرة والبشر ، أنه لم يستشهد فى هذه الغزاة من المسلمين ، حاشا نيفاً وعشرين رجلاً كتبوا فى زمرة الشهداء السعداء ، الموفقين ، وسارعوا إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين ، وذلك من أعظم الآيات البينات لمن تأمل واعتبر ، والحمد لله الذى صدقنا وعده فى نشر دينه وهنيئاً للمقام العلى وصل الله سعه بهاذ الصنى الذى جرا على يديه ، وذخره منفعة شريفة إليه ، ليحظا بمن الدنيا وسعادة الآخرة عنده ، وعساكره المرينية الميمونة التى حظيت أيضاً من الأجر والخير بالحظ الأوفى ، وخصها الله تعالى من النجدة والشدة وتصميم العزم بما صار الواحد منهم يناجز ألفاً ، ان لاحت لهم فريسة انقضوا لانتهاز فرصتها انقضاض العقبان ، فهم فى الشجاعة آية فى هاذ الزمان ، بارك الله فيهم وشكر جميع مباديهم ، أنجدهم الله (بياض) ولا زالت عناية سجيته تحرسهم ، فعرفكم بحكم بهاذ البشر لتأخذوا من الابتهاج بها بأوفى نصيب وأتمه ، وتشكروا الله تعالى على نعمه بأبلغ الشكر وأعمه ، ولتقرءوه على من تعلمون له نية صالحة فى الجهاد ، فيعلم أن هاذ أوانه وبياسر وبيادر بأقضا الجد والاجتهاد ، وليفتنم فضله الذى يجد بركته فى الدنيا ويوم المآد ، وليتجر منع الله بأفضل التجارة التى تعود عليه بأفضل مكتسب ومستفاد ، وقد قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم) الآية ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتب الأمير أبو عبد الله بن الأحمر إلى أمير المسلمين يعقوب جواباً عن خطابه الكريم الذى قد بعثه له بشرح هاذ الغزاة الدونونية ، التى أوهنت قوى النصرانية ، وكتب له فى آخره دعاء جليلا .

قال صاحب التاريخ :

وأقام أبو يوسف يعقوب بالجزيرة الخضراء بعد إيابه من غزاة دون نونى لارا بقية شهر ربيع الثانى ، وورد عليه بها فى هاذ الأيام كتاب عامله على حضرته مراكش وأعمالها يهنئه ويخبره بأنه فتح له مدينة تينمل

قاعدة جبل درن وأس ملك الموحدين كان فتحها في آخر ربيع الثاني من سنة أربع وسبعين المذكورة فتكامل فرح أمير المسلمين بذلك .

وفي شهر ربيع المذكور ورد على أمير المسلمين كتاب صاحب إفريقية ، وكتاب ابن الأحمر ، وكتاب ابن أشقيلولة (الذي معه) هاذة القصيدة الفريدة (24) .

وسرت بسعدكم النجوم الطلع
حتى لضاقت بها الفضاء الأوسع
أن الأمور إلى مرادك ترجع
ملا البسيطة نوره المتشعشع
نفساً تفديها الخلائق أجمع
بعزيمة كالسيف بل هي أقطع
أمر إذا أمضيته لا يرجع
والخيل تردا والأسنة تشرع
ما إن له إلا التوكل مفزع
يوماً إذا أضحا الجوار يضيّع
حتف يخب به إليك ويوضع
كيما يحم له الحمام الأشنع
فبجيلة قد دلس ما لا ينفع
والأرض تنشر في يديك وتجمع
فتح يمد بما سواه ويشفع
وبحسبه منك النعيم المقنع
ولبست أنت منه ما لا يخلع
جعل الخلافة فيكم لا تنزع
والله يعطي من يشاء ويمنع

هبت بنصركم الرياح الأربع
وأنت لنصركم الملائك سبعا
واستبشر الفلك الأثير تيقنا
وأمدك الرحمان بالفتح الذي
لم لا وأنت بذلت في مرضاته
وأنت تنصر دينه متوكلا
وكتائب منصوره يحدو بها
له جيشك والصوارم تنتضيا
من كل من تقوى الإله سلاحه
لا يسلمون إلى النوائب جارهم
كم من قصي الدار عاص قاده
لما يفت يوماً فاملاء له
إن ظن أن فراره منج له
أين المفر ولا فرار لهارب
أخليفة الله العظيم هنيئته
وليهن ذاك الفتح أنك فتحه
فلقد كسوت الدين عزاً شامخاً
إن الذي سماك خير خليفة
هيهات سر الله أودع فيكم

(24) هاذة القصيدة من شعر الأمير سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن بن علي مدح بها ابن عنه أمير المؤمنين يعقوب المنصور ، ولعل ابن أشقيلولة أنا تمثل بها فقط .

لكم الهدا لا يدعيه سواكم
إن قيل من خير الملوك بأسرها
إن كنت تتلو السابقين فانما
فلأنتم' ذخّر الخلافة والذي
خزنها أمير المؤمنين مدائحا
فالمدح منى فى علاك طبيعة
جرر ملاءة عزة موصولة
واسلم أمير المؤمنين لامة
وحماك من يحمى بسيفك دينه
وعليك يا أسنا الملوك تحية
ومن ادعاه يقول ما لا يسمع
فاليك يا يعقوب يومى الأصبح
أنت المقدم' والخلائق تبّع
وجه الزمان بملكه يتطلع
من قلب صدق لم يشنه تصنع
والمدح من غيرى إليك تطبع
ففساه يحسدها السماك الأرفع
أنت الملاذ لها وأنت المفزع
وكفاك ما يخشأ وما يتوقّع
يفنا الزمان' وعرفها يتضوع

الخبر عن غزاة أمير المسلمين يعقوب الغزاة الثانية

قال المؤرخ ليامهم :

لما قدم أمير المسلمين من غزاة دون نونيو إلى (الجزيرة) الخضراء
أقام بها خمسة وثلاثين يوماً حتى قسم الغنائم بين المجاهدين واستراح
الناس ، ثم خرج إلى الغزاة الثانية أول يوم من جمادى الأولى من سنة أربع
وسبعين وستمئة ، فسار فى جيوشه وكتائبه المنصورة المظفرة حتى وصلوا
إشبيلية وأحوازا ، فنزل بظاهرها بموضع يعرف بالماء المفروش ، فجالت
جيوشه المنصورة فى أحوازا وأنحائها وقرأها وأمير المسلمين واقف
أمام بابها تضرب طبوله ، وتشرق بالنصر راياته وبنوده ، والروم دمرهم الله
قد انحصرت جموعهم بداخل إشبيلية وأركبوا الأسوار ، واعتقدوا فيها على
الحصار ، وأيقنوا لما عاينوا من جد أهل الاسلام فى قتالهم بالهلاك والتبار ،
ينظرون إلى المجاهدين يعبثون فى بلادهم ويسبون نساءهم وأولادهم ،
ويقطعون ثمارهم ويحرقون زروعهم ويخربون أرضهم وديارهم .

فلما غنم المسلمون ما بخارج إشبيلية من الأموال وهتكوا جميع أحواضها وحرقوا قراها وبروجها ارتحل أمير المسلمين عنها إلى شريش ففعل بها كفعله بإشبيلية ، وأقام محاصراً ومضيئاً عليها بالقتال ثلاثة أيام ، فلما كان في اليوم الرابع قدم عليه رهبان النصارى يرغبون منه أن يكف عنهم القتال حتى يبعثوا إلى ملكهم ، فكف عنهم أمير المسلمين وارتحل عنهم لأجل ذلك ولأجل المجاهدين كانوا قد امتلأت أيديهم بالغنائم والسبي ، فارتحل إلى الجزيرة الخضراء وصرف رهبان الروم دون مطلبهم ، فوصل الجزيرة الخضراء في اليوم السابع والعشرين من جمادى الأولى المذكورة ، فقسم ما أناء الله تعالى في الغزاة من الغنائم بين المجاهدين ، فبيعت الرومية من هذا السبي بمثقال ونصف ذهباً لكثرتهم ، ودخل فصل الشتاء فبقي أمير المسلمين بطول زمان الشتاء كله ساكناً بمحلته المنصورة على وادى النساء أمام الجزيرة الخضراء مرابطاً محترساً جيوش المسلمين يبعث الجيوش والسرايا فتغير على بلاد الروم في كل يوم فيعودون إليه بالغنائم والطرف حتى أضعف بلاد الروم وأباد أكثرها واجتنب الروم الحرائة في تلك السنة فقلت الأسعار وانقطعت طرقاتهم .

فلما علم أمير المسلمين ذلك منهم جاز إلى العدو فنزل بقصر المجاز ، وترك بالجزيرة جيشاً من ثلاثة آلاف فارس من بنى مرين والعرب وأمرهم بالاغارة على بلاد الروم في كل وقت وحين ، وكان جوازه من الأندلس إلى العدو في آخر يوم من رجب من سنة أربع وسبعين المذكورة ، وكانت مدة إقامته بالأندلس خمسة أشهر .

الخبر عن رجوع أمير المسلمين يعقوب من غزوه إلى فاس المحروسة

قال صاحب التاريخ :

لما قضا أمير المسلمين أربه من الغزو ودوخ بلاد الروم وتملكها وقتل حمايتها وضعفها وتشوقت قبائل مريين إلى بلادها بطول مغيبهم عنها جاز إلى العدو في آخر يوم من رجب من سنة أربع وسبعين المذكورة ، فنزل بقصر المجاز ثم سار منه إلى طنجة ثم إلى حضرة فاس .

ولما نزل بقصر المجاز أتاه أولاد أبي القاسم العزفي بعثهم والدهم للسلام عليه والتهنئة له بالسلامة والظفر والأياب ، فوصلوا إلى حضرته فسي جماعة من فقهاء سبنة وصلحائها ، فوصلهم على طبقاتهم وأكرم وفادتهم ، وارتحل إلى مدينة فاس فدخلها في الثامن عشر من شعبان من سنة أربع وسبعين المذكورة .

وعند وصوله إلى مدينة فاس خالف عليه طلحة بن محلي البطوئي بجبل أزرو من بلاد فازاز وتمنع به ، فخرج إليه أمير المسلمين من فاس ، فنزل بعساكره عليه وحاصره به ثلاثة أيام ، فقرأ طلحة ما لا قبيل له به ولا طاقة له عليه ، فأناب إلى الطاعة وطلب أمانه ، فنزل إليه فعفا عنه وطلب منه أن يبيع له التوجه إلى المشرق وأداء فريضة الحج ، فأسعفه بطلبه وصرفه لما أراد ، ووصله بمال جليل وخيل عتاق وإبل وما يحتاج إليه ، وذلك في النصف من شهر رمضان المعظم من سنة أربع وسبعين المذكورة .

وفي أول رمضان المذكور تولاه الوزارة أبو سالم فتح الله السدارتي وخلع عليه ، فاستبد بالوزارة وتنفيذ الأمور ، ثم رجع أمير المسلمين من جبل أزرو إلى مدينة فاس فدخلها في العشر الاواخر من رمضان المذكور ، فعيد بها عيد الفطر .

وفى ثانى شوال من هاذة السنة قتل اليهود بفاس ، قامت عليهم العامة بسبب جارية مسلمة ادعت أن أحد اليهود اقتضاها قهراً فى داره فقتل منهم أربعة عشر رجلاً ولولا ما اتصل الخبر بأمر المسلمين وركب بنفسه فى جماعة من حشمه وأمر بطرد العامة عن مواضع اليهود وكفهم عنهم لم يبق منهم أحد ثم أمر منادياً فنادا بالمدينة ألا يتعرض أحد لليهود الذمة .

وفى اليوم الثالث من شوال المذكور ، شرع أمير المسلمين فى تأسيس المدينة البيضاء وحضرته الغراء وبنائها على وادى فاس المحروسة .

الخبر عن بناء المدينة البيضاء دار المملكة ومقر العز والبركة البلدة السعيدة أيدها الله وحرسها

قال صاحب التاريخ :

لما عزم أمير المسلمين يعقوب على بناء مدينة يتخذها دار ملكه وقرار سلطانه ويسكنها هو وخاصته وحشمه ركب يوم الأحد الثالث لشوال المذكور ، وأخرج معه العرفاء والبنائين وأهل المعرفة بالصنائع فتخيروا موضعها على وادى فاس (بياض) وشرع فى حفر أساسها وأخذ طالع ذلك الفقيه المعدل سليمان الغياش (25) ومحمد بن الحباك وكان تأسيسها فى طالع سعيد ووقت يمن وبركة ومزية ، دل على طول بقائها وكثرة عمارتها واتصال خيراتها وما يجبا إليها من الأموال ، فكانت والحمد لله مدينة مباركة ، فاتخذها دار ملكه وملك بنيه وعقبه من بعده ، يجيى إليها جميع خراج المغرب ، ومن بركتها وسعادتها ويؤمن طالعيها أنها لا يموت فيها خليفة ، وأنها لم يخرج منها جيش إلا ظفر ،

(25) الذى فى تاريخ ابن خلدون والقرطاس لابن ابن زرع انه أبو الحسن ابن القطان .

ولم يعقد قط بها لواء إلا نصر ، ومصداق ذلك أن أمير المسلمين يعقوب الذى اختطها وشيدها وبنا أسوارها وجامعها وأسواقها واتخذها دار ملكه وقرار سلطانه توف رحمه الله غائباً عنها فى المدينة التى بناها أمام الجزيرة الخضراء من بلاد الأندلس ، ثم ولده الخليفة بعده أمير المسلمين يوسف توفى بقصره فى بلدته الجديدة التى بناها بتلمسان وهو محاصر لها ، فاستوطنها ومدنها واتخذها حضرته إلى أن توفى بها على ما يأتى بيانه ، وكذلك حفيده الخليفة بعده وهو الأمير أبو عبد الله بن يوسف المذكور توفى بقصره بقصبة طنجة ، وكذلك أخوه الوالى بعده سليمان فانه توفى أيضاً بقصبة رباط تازة .

ولما تم سور هاذة المدينة السعيدة فاس الجديد بالبناء أمر ببناء الجامع الكبير بها للخطبة فبنى على يد أبى عبد الله بن عبد الكريم الحدودى وأبى علي بن الأزرق والى مكناس ، والنفقة فيه من مال معصرة مكناسة ، ولم يخدم فى بناء هاذ الجامع الكبير مع المعلمين إلا أسرا الروم الذين قدم بهم من الأندلس ، ففى شهر رمضان من سنة سبع وسبعين وستمئة تم الجامع المذكور وصلى فيه ، وفيها ابتدئ بعمل منبره الذى به الآن على يد المعلم الغرناطشى الرصاع ، وأول خطيب خطب به الفقيه المحدث محمد بن أبى زرع ، وفى أول جمعة من شهر رمضان المعظم من سنة ثمان وسبعين وستمئة تم المنبر بالعمل وخطب عليه ، وفى يوم السبت السابع عشر لشهر ربيع الأول من سنة تسع وسبعين وستمئة علقت الثريا الكبرا بالجامع المذكور ، وزنها تسعة قناطير وخمسة عشر رطلا ، وعدد كؤوسها مئة كأس وسبعة وثمانون كأساً ، وكان الصانع لها المعلم الحجازى ، والاتفاق فيها من جزية اليهود لعنهم الله . وفى شهر رمضان من سنة تسع المذكورة بنيت المقصورة بالجامع المذكور ، وفيها بني فى المدينة المذكورة الأسواق من باب القنطرة إلى باب عيون صنهاجة ، وبنا بها حماماً عظيماً وأمر رحمه الله عماله ووزرائه ببناء الدور بها ، فبنا كل واحد منهم داراً ، وفى نصف شوال منه أمر ببناء قصبة مكناسة وقصرها وجامعها ، وبنا ذلك كله فى شهر شوال المذكور ، وولاه الفقيه إبا أمية الدلائى قضاء مدينة فاس وأمره ببناء المدرسة لطلبة العلم فبناها

بازاء عين قرقف من جهة قبلة جامع القرويين ، وأجرا فيها ماء العين وأسكنها بالطلبة والمقرئين وأجرا عليهم المرتبات من جزية اليهود لعنهم الله .

وفى هاذة السنة أخرج أبو علي النواب من فاس .

وفى شهر ذى قعدة منها بعث الأمير ابن الأحمر قصيدة من نظم الكاتب أبى عمر ابن المرباط إلى أمير المسلمين يعقوب يستنصره فيها ويطلب منه الجواز ثانياً لأنه لما جاز أمير المسلمين إلى العدو بعد غزاة دون نونيو خاف ابن الأحمر من الفونش وخشي أن يكون للنصارا عليه كرة ، فكتب إليه كتاباً بالقصيدة المذكورة تركناها لطولها يستعطفه ويعترف له بالخطأ فى الاول ويطلب منه الاقالة والعودة إلى الأندلس لاطفاء الفتنة وقمع الكفرة ، ومن هاذة القصيدة قوله :

هل من معين فى الهدا أو منجد من متهم فى الأرض أو من منجد

هاذا ما وجد من هاذا الكتاب

والحمد لله رب الأرباب